القردة
رواية
عبد الحميد وشفون
كتوباتي
kotobati

القردة

عبد الحميد وشفون

رواية

الكتـــــــــــاب: القردة

تـــــــــــــــأليف: عبد الحميد وشفون

تدقيـــــــــــــــق: عبد الحميد وشفون

النوعيـــــــــــــة: رواية

الإصــــــــــدار: 2024

التصميم والتنسيـــق: مكتبة كتوباتي

النشر الإلكترونـــي: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.

وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

إهداء

إليك عزيز القارئ

اللهم ارحم والدي كما ربياني صغيرا

_ 1 _

كانت غرفة واسعة، تضيئها شمعةٌ صغيرةٌ تموت فوق رف خزانة مملوءة بالكتب، جدرانها مطلية بأوراق صفراء ذات مربعات بنية، ليست باتساع سماء إفريقيا، لكنها واسعة، ولا يمكن للمرء إنكار ذلك، إذ أن غرفة ذات أربعة جدران تحتوي بداخلها خزانةَ كتبٍ مفرومة وأريكة مثقوبة وطاولة بمقعدين خشبيين متقابلين عليها كومة أوراق مبعثرة لا يمكن أن تكون غير واسعة، بحيث يمكن لشاب ثلاثيني له أنف هرمي يمتطي أحد المقعدين أن يكور إحدى الأوراق بين يديه ويقذف بها فلا تصل إلى الجدار الذي خلف ظهره، وقد يضطره أيضا إن هو أصابه التعب من معالجة أوراقه وشدته الرغبة في الوقوف عند النافذة لحرق إحدى سجائره البيضاء الرقيقة أن يقطع البساط العتيق تحت قدميه الحافيتين في ست عشرة خطوات كاملة.

هكذا وقف مراد شاحب العينين يقتله النعاس مسندا مرفقيه على إطار النافذة فيما تنبعث من فمه غمامات بيضاء نحو الخارج، كان ينظر إلى ساعة يده بعد كل نفثة، كأنما له ذاكرة ذبابة تنسى كم كان الوقت قبل لحظة، عند النفثة السابقة.

كانت الشمس تهوي بعيدا خلف الجبال الرمادية، والظلام يغشى البلدة بتثاقل، وتطلعت عينا مراد البنيتان إلى بيوت البلدة ذات الأسطح الحمراء المائلة، كانت أبخرة المداخن تتصاعد منها، والحمام ينتف ريشه فوق الأسطح مثنى وثلاث ورباع وعشرا، وكانت بقايا السحب المتوردة في الأعلى تنكمش وتنمحي داخل نفسها، كأن شفاه الرياح اللطيفة تمر بجانبها فتغازلها فتذيبها من شدة الخجل، حملق الرجل بعيدا نحو الأفق، كان يقول في نفسه إن العيش وحيدا في شقة واسعة ليس بالأمر الذي قد يقتل صاحبه من الفرحة، تماما كما أنه لا يقتله من الملل، ذلك أنه فقد زوجته منذ ما يقارب الخمسة والأربعين يوما، عندما كانت تهم بجلب مخلوق آخر لهذا العالم وهي على فراش الولادة تصيح صيحتها الأخيرة، كان يمكن أن يكون مخلوقا صغيرا بالغ الجمال له عينان سوداوان واسعتان ترمشان، يستطيع المرء أن يحمله بيد واحدة، و بحذرٍ بالغ، كمن يحمل حبة بيض طازجة، ظن مراد أنه يستطيع عيش كل ذلك إن هو أغمض عينيه وزم شفتيه المرتعشتين ألما وحرقة.

وعاد الهواء العابر يضرب بياض عينيه حينما أيقظه فجأة رنين بوق سيارة راح ينبعث من خلف البناية المقابلة، كان بائع مواد التنظيف يجول شوارع

المدينة ببراميله الزرقاء المحملة على ظهر سيارته ليتوقف بها عند أبواب ربات البيوت فيطرقها.

عاد مراد من حلمه البارد والتفت إلى مكتبه وجعل يحملق في الأوراق المبعثرة عليه طويلا، وهو يعقد ذراعيه على صدره، بينما تلتف إحدى ساقيه حول الأخرى واقفا، وبقايا السيجارة المحترقة تتساقط عند أصابع قدميه على أرضية الغرفة.

بعينين تقطران حيرة تنهد بعمق، وفكر كيف أنه قد أصبح من واجبه ومنذ ليلتين فقط حينما يعود من عمله مساء أن يجلس إلى مكتبه ويكتب، أن يكتب ما يجول في صدره، ويرص الكلمات خلف بعضها ما شاء قلمه الأسود أن يرص لأنه عاهد عهدا، تساءل كيف يمكن للحلم أن يغدو طموحا، وللطموح أن يغدو عهدا ومسؤولية يرفعها المرء على كتفيه ويهرول بها إلى حيث لا يدري، ليس من أجل نفسه فقط، بل من أجل الآخرين أيضا دون أن يكون له الحق في التراجع، في أن ينزل ذلك الثقل عن كتفيه ليأخذ نفسا، لكنها العهود يا أنا، ذكر نفسه، إن كنت سأتعب لأن الكتابة هي ما أرادها صاحبي فسأواصل الكتابة لأنني أريدها، وإن كنت سأتعب من الكتابة

لأنني أريدها فسأواصل القيام بها لأن صاحبي يريدها، وهكذا .. حتى يتسنى لي أن أكتب " تمت ".

أطلق تنهيدةً عميقةً وعاد يحملق خارج النافذة، ضرب سيجارته بأصبع يده الصغير لينفض عنها البقايا المحروقة ثم رفعها إلى فمه وامتصها،

ومرت خمس دقائق أخرى، ظل خلالها يحملق في المدينة دون أن يفعل شيئا، إنما غارقا في تلابيب أفكاره الجارفة.

***

كانت السيجارة قد احترقت بالكامل وسقط رأسها من يده نحو الأسفل حيث يتمدد الشارع المظلم، مرت فترة، وراحت المربعات الصفراء تظهر على النوافذ و تتقافز بين المنازل بعشوائية، كان الليل قد أظلم بما يكفي، وفي تلك اللحظة سمع مراد صوت طرق على باب الشقة، تحركت قدماه الحافيتان نحو الباب الخارجية، ومرت لحظات قليلة، ظهر مراد بعدها يعود إلى الغرفة،

وكان يسير خلفه شخص آخر يتبعه بخطوات تشبه تلك التي يدلف بها الضيوف عادة، في التخاذل، في التأني والحشمة، كان شابا يماثله في العمر تقريبا، نحيل الجسم ذا أنف وذقن دقيقين، بعينين دافئتان ورأس يكسوه شعر خفيف مع مقدمة رأس صلعاء تجمعت عليها بعض قطرات العرق الدافئة، حط الزائر فخذيه النحيفين على المقعد المقابل بعد أن رمى سترته على الأريكة، واستضاف نفسه بأن تناول من وسط الطاولة قنينة زجاجية وأفرغ منها بعض الماء في كأس صغير ودسه بعد ذلك في جوفه دفعة واحدة، بصوت مسموع و مزعج، وقال وهو يمسح فمه براحة يده : " كان حلقي جافا كالتبن من العطش .. والآن قبل أن أنسى، في المرة المقبلة انظر أين تنفض سيجارتك، بعضها الآن موجود على حذائي .. كادت تسقط على رأسي في الأسفل " وعاد يتهالك على المقعد، و فرش ذراعيه المشعرتين على الطاولة، قال بعدها ووجهه مسمر في كومة الأوراق أمامه.

- " هل هي نائمة ؟ "

رد مراد بينما يضع يديه على ظهر الكرسي المقابل حيث وقف ينظر في عيني زائره:

" بكت كثيرا ثم نامت بعدها.. مثل دمية سقطت بطاريتها من ظهرها.. "

- " هل تناولت عشاءها ؟ "

- " أجل، هي فتاة عاقلة .. تعرف أن عدم تناول الطعام لن يذهب حزنها، وهي تبكي بشكل مؤدب أيضا، حتى.. غايةً في الأدب، على فترات متقطعة، مثل امرأة سافر زوجها.. "

- " وهل تبكي النساء حين يسافر أزواجهن ؟ "

- " ألا تفعلن ذلك ؟ "

والتصقت عينا الواحد منهما في وجه الآخر، وظلا يحدقان في بعضهما لفترة، ثم هز الزائر رأسه يمنة ويسرة، كأنما ينفض النعاس عن وجهه، وقال بعدها وعيناه العميقتان تنزلان إلى الأوراق مجددا.

- " هل أحرزت تقدما ؟.. "

حينها بدا مراد وكأن فكرة ما قد لمعت في رأسه فجأة، فقرر أن يمضي في تحقيقها فالتف حول ركن الطاولة ومد ذراعه نحو الأوراق و حمل ثلاثة منها ومشى بها نحو الزائر ثم ألقى بها أمامه وعاد بضع خطوات إلى الوراء وانثنى على المقعد.

- " ليس كثيرا ... لكنني فعلت ما بوسعي، انظر بنفسك.." غمغم بنبرة غير مرتاحة.

وأخذ الزائر الأوراق الثلاثة بين يديه يفترسها بنظره بينما يراقبه مراد من الجهة المقابلة وركبتاه تهتزان بقلق، كانت عينا الزائر تقعان على نص مكتوب بخط اليد قد حوى الكلمات التالية:

" كانوا سبعة أشخاص تجمعوا حول نار هادئة، يصغي ستة منهم في اهتمام بالغ إلى سابعهم، كانوا رجلين وخمسة أطفال دون السادسة عشر.. بينهم طفلة صغيرة اسمها هديل، تجلس القرفصاء إلى جانب توأمين هما حسن وحسين، فيما اتخذ أحد الرجلين واسمه مراد من حبتي آجر مقعدا له وكذا الآخر واسمه (تاكفا) وهو الذي كان يقص عليهم حكايته، إلى جانب طفل يرتدي قبعة معقوفة عند طرفها يمضغ قشة يابسة بين شفتيه الرقيقتين قد جلسا على جذع شجرة طويل وهما يذكيان النار بعصاتين يابستين، كان اسم الطفل هشام، وأما الفتى الآخر فتمدد على ظهره واضعا يديه تحت رأسه ورافعا إحدى ركبتيه فوق الأخرى والريق يقطر على خده اسمه (تاز) أي الجرو التازماني ... كانوا يجلسون في الطابق الثالث لبيت عتيق مهجور يلفه نبات العليق من كل جانب، كانوا في غرفة تتصل بالشرفة بعد أن حطم العابثون جدارها، وفي السقف كان ثمة ثقب عظيم تلمع النجوم عبره، كان الظلام يلفهم من كل جانب، و حمرة النار تسطع في عيونهم وترقص بلا هوادة،

عندها راح الرجل الجالس على حبات الآجر، أي (تاكفا)، راح يقص عليهم حكايته قائلا :

فقطع الزائر قراءته وقال في دهشة :

- " تاكفا ؟ "

- " أجل .." رد مراد بثقة : " تاكفا .. ظننت أن نطقه هكذا سيكون أسهل على لسان القارئ.. أم هل ..؟ "

ولما لم يكمل مراد سؤاله لأنه رأى الزائر يهز رأسه كأنما متفهما، وقال بعدها: " حسنا، ليكن.." ومضى يقرأ الكلمات السوداء مجددا.

حين راح الرجل الجالس على حبات الآجر، وكان اسمه (تاكفا)، راح يقص عليهم حكايته قائلا:

" عندما أفقت وجدت نفسي متيبسا لا أقدر على الحركة، في مكان لا أعرفه، كان باردا جدا، ومظلما، صدري يصطك من الفزع، ولو كان يصح أن يطلق عليه هذا فإنه كان ضيقا وواسعا في وقت واحد، ضيقا بحيث لم يكن بإمكاني أن أحرك ذراعي حركة بسيطة، وواسعا لا شيء يحده، كنت أستطيع أن أرى من خلال الظلام بشكل واضح، لكن لم تكن هنالك جدران أستطيع رؤيتها، كان الفراغ يمتد إلى ما لا نهاية، ولم أكن أعرف حقا أأنا أقف على

رجلي أم ممدد على ظهري أو أني كنت مغروسا في الفراغ على رأسي، كانت تهب علي نسمات باردة، حاولت مرارا أن أخلص نفسي، وكل ما قدرت على فعله هو أن أرتجف من شدة البرد القارص الذي كان يلفح جسدي العاري، وعندما حاولت أن أصرخ بعد ذلك، كان صوتي يعود إلى جوفي فأبتلعه وأختنق به لفترة، شعرت أن جسدي مدسوس بداخل شرنقة باردة خفية لا يمكن رؤيتها ولا لمسها، وأصابني من الضيق ما لو وضع بصدر ثور لخَرّ لحظتها صريعا، ومرت فترة حتى سمعت فجأة صوت قرع خطوات تدنو شيئا فشيئا "

وتوقف الزائر عن القراءة مرة أخرى ورفع عينيه إلى مراد قائلا:

- " هل حذفت المشاهد الأخرى ؟ "

فرد مراد : " أجل .. "

- " أتعتقد أنها لن تكون جيدة ؟ "

- " لا، لن تكون جيدة .. "

عاد الزائر يقرأ: " كانت الخطوات تقع ثقيلة ومزعجة، ثم اختفت، وسمعت بعدها ضجيجا يشبه احتكاك معدن، كأن أحدهم يجر صفيحة معدنية فوق أخرى، ولم يستمر ذلك طويلا إذ ما لبث الضجيج أن اختفى، ثم بدا كأن حدة الظلام تشتد من حولي أكثر فأكثر، وزاد ضيقي ضعفا آخر، ثم وفي لحظة

انفلت الأمر على نفسه، أحسست أني أخرج من ظلام العدم إلى فضاء فسيح ملون بالأزرق، ثم بدأت تظهر بعض الألوان من حولي، كانت الأرض من تحتي تتلون بمربعات بيضاء وتتضاعف أعدادها بعيدا عن قدماي ثم تصعد من أربع جهات في شكل جدران زرقاء باهتة التقت جميعها مشكلة سقفا معتما ينزل منه مصباحان ضعيفان ينيران الغرفة، التفت خلفي فإذ بباب معدنية تظهر على الجدار ويظهر مقبضها، ثم هابني أني سمعت صوت شخص يسب ويطلق لعنات متتالية، وما كدت أعود بوجهي إلى الجهة الأخرى حتى كان يقف أمامي رجل يرتدي مئزرا أبيضا ويعبث بوجه عجوز ميت بعدما أخرج نصف جسده من ثلاجة الموتى على صندوق معدني بارد، ونظرت بهلع فإذا بعدد من تلك الصناديق التي يرقد عليها العجوز قد أدخلت في أماكنها وأحكم غلقها في خزانة ضخمة بضخامة الجدار الذي خلفها، وأدركت أنني بداخل غرفة تبريد الموتى حيث ترقد عدة جثث بداخل صناديقها الباردة في انتظار أن يتم تشريحها، ولاحظت فجأة أنني لم أعد أشعر بالبرد الذي كان يقصم عظامي - لو صح في مثل هذه الحالة أن لي عظام يمكن أن تقسم - ولا بذلك الضيق الذي كان يخنقني ويعصر فؤادي.. تفقدت المكان حولي ومشيت بجانب الرجل الواقف حتى أصبحت أمامه ونظرت في عينيه

مباشرة، ولم يكن يبدو أكثر من مجرد طبيب يعبث بأجساد موتاه ليس إلا ، كان ذو رأسٍ أصلعٍ له نظرات ثاقبة، وكانت له شفتان غليظتان، وجهه أحمر مضرج ونحيف جدا، فكان يبعد قطعة القماش البيضاء عن صدر العجوز الميت فيضغط على بطنه بأصابع يده الخمسة ثم يعيد الغطاء فيصعد إلى وجهه فيفتح إحدى عينيه وينظر بداخلها مطولا ثم يتركها ليهوي جفنها العلوي على الذي تحته تلقائيا، كان وجه العجوز الميت جافا رقيقا محلوق اللحية، وكانت في رقبته التي تشبه رقبة الديك المسلوخ واحدة من تفاحات آدم الحادة البارزة، لاحظت كيف أن الطبيب راح يفعل شيئا يثير الريبة والعجب، أخذ يضع اصبعيه على رقبة الميت كأنما يتحسس نبضات قلبه، وكان في كل مرة يكرر فعلته يأخذ نفسا عميقا كمن يُعمل إصبعيه في إبطال لغم متفجر، لثلاث مرات متتالية، ولحظتها زال الخوف من عيني وهاجت في ذهني عشرات الأسئلة، إذ أن الطبيب لم يكن يقدر على رؤيتي حتى تلك اللحظة، مع أنني وقفت أدس يدي في صدره .. بقيت مصعوقا من الدهشة ، وتيبست ذراعي الشبحية في صدر الطبيب المنهمك في فحص ميته حد التعرق - وخرجت من ظهره - ولما خرجت من صدره فقد جعلت أتأملها بعينين شبحيتين لم يعد بمقدورهما الاتساع أكثر، ونظرت حولي فإذ بجدران الغرفة

تتلاشى وتنمحي كأنها رسمة زيتية تتساقط عليها قطرات المطر، وما هي إلا لحظة حتى اختفت الغرفة بما فيها، واختفى الطبيب الأصلع والعجوز الميت وكذلك خزانة التبريد الكبيرة وعاد الظلام يغشي بصري بالكامل، وفقدت شعوري بكل شيء حولي، كمن غلبه النعاس فجأة، وغصت في نوم عميق جدا.

وفي لحظة من الزمن لم أستطع وأنا أفتح عينيّ الذابلتين أن أدرك موضعها من اليوم وجدت نفسي واقفا أمام بالوعة مرحاض كما لو أنني قد انتهيت لتوي من التبول، وكان رأسي حين فتحت عيناي مرفوعا للأعلى أحدق إلى المصباح بفم مغلق، واستغربت الأمر بالقدر الذي يتوجب، ثم هبطت بهما فنظرت إلى نفسي.. كنت أرتدي قميصا قصير الكمين وبنطلونا خشنا وأقف حافي القدمين أمام حفرة المرحاض المثخنة.."

أنهى الزائر هذا ثم رفع الأوراق فرصها عموديا فوق الطاولة ثم ألقى بها فوق كومة الأوراق الأخرى وأسند ظهره المتعب على ظهر المقعد.

- " لقد جعلت الراوي شخصا مجهولا لا يمثل أي دور في القصة !! .."

- " أجل، كنت سأجعل الأحداث تدور على لسانك أنت كونك... لكنني اعتقدت بعد ذلك أن هذا أفضل ... أم هل لك رأي آخر ؟ .. "

- " لا، أبدا .. أنت الكاتب وتستطيع أن تَنْظم الكلمات بالطريقة التي تراها.."

- " لا أخفيك سرا أن الأمر أصعب مما تصورته... أحيانا أشعر أن عقلي يتعرق أثناء الكتابة، وقد أضطر لصرف عشرين دقيقة كاملة لكي أجد الكلمة المناسبة .. مثلا، انظر هنا .. قام مراد ومد يده إلى الأوراق فأخرج واحدة وجعل يمرر أصبعه على عدد من الأسطر المشطوبة حتى وصل إلى منطقة فارغة وأردف بعدها :

- " مثلا هنا .. كان الطبيب يصعد الأدراج حينها، واضطررت لأن أجعله يسب نفسه ويلعنها بطريقة تُنبئ القارئ أنه غاضب جدا، ولم أستطع إيجاد الكلمة المناسبة .. لقد أفسدت الورقة بكاملها .. "

ففكر الزائر:

- " هل يمكن أن تقوم بذلك من خلال جلدة رأسه ؟ .. "

- " كيف ذلك ؟؟ "

- " كأن تقول مثلا.. كان العرق يسيل من جلدة رأسه كأن دماغه يغلي في الداخل.. "

- " أوه يا أنت، أخبرتك أنك تصلح لهذا الأمر أكثر مني.. هذا مناسب حقا " ثم انقلب فرحه فجأة إلى بؤس مفتعل: " مع أنني قرأت عددا من الكتب يفوق سني أربعين ضعفا إلا أنني ما زلت أفشل في إيجاد كلمات مناسبة لوصف مشاهد بسيطة .. لماذا لا تأتي إلى هنا كل ليلة لتساعدني .. "

- " سوف أحاول .. لكن هذا عملك، مهمتك أنت، فانشغل بها ... أنا لا شأن لي بكتابة الروايات يا صاحبي، لا تورطني سيستمر الأمر كما اتفقنا، أنا سأعطيك المادة الأولية وأنت ستعجنها، سأخبرك بالأشياء التي لا تعرفها فقط، و إلا فأنت تعرف المدينة أفضل مني "

بهذا دندن الزائر وطأطأ رأسه بعدها كأن غمامة حزن تحركت فوقه .

فغمغم مراد قائلا : " لا تظن أنني أرغب في التراجع، أنا لن أتخلى عن كتابتها .. لكنني لا أملك أدنى ثقة في أن أحدا سيتحدث عنها بعد أن يقرأها.."

رفع الزائر رأسه نحو مراد بنظرات صارمة.

- " سأخبرك بشيء يا مراد، و إن كنت أبعد من أكون أهلا لأن أخوض في أمر كهذا، لكنني قرأت هذا في كتاب ما، وبت أوقنُ به بشدة... "

أصغى مراد جيدا، فراح الزائر يقول بعدها بنبرة من تسيل من شفتيه الحكمة :

" إن الكاتب يا مراد إذا كان بداخل كتابه أثناء كتابته فسيكون الناس بداخل الكتاب أيضا أثناء قراءتهم له، لكنه إذا كان خارج كتابه أثناء كتابته فإنه لن يدخله أي أحد.. سيهرب الناس منه عند أول صفحة.. ثق بنفسك أولا، وكن أنت القلم، كن الأوراق، وكن كل شخصية تكتب عنها، كن عينيها اللتين ترى بهما، كن يديها اللتين تمسكان الأشياء أيضا، وكن قدميها واذهب معها حيث تذهب، وأخيرا كن قلبها حتى يمكنك أن تشعر بما تشعر هي كما لو كنت مكانها .. وبذلك تستطيع أن تكون داخل كتابك، و إذا كنت بداخل كتابك فسيطمئن الناس لوجود أحدهم بالداخل وسوف يدخلون أيضا .. "

هز مراد رأسه موافقا : " أجل ... إن ما تقوله حق أبيض، و إلا فليس من السهل علي الآن أن أحبس دمعي، سأفعل ما بوسعي يا صديقي، أعدك بذلك .. أعدك أنني ... "

و قاطعه الزائر بأن قام عن مكانه ومشى نحو النافذة، كانت قاعدة حذائه السميكة تحدث قرعا على أرضية الغرفة، جذب الستارة قليلا وأطل بوجهه نحو الخارج، كانت ذراعه الأخرى مرخية للأسفل وعيناه الضيقتان تنظران

بعمق، وظل واقفا لفترة قبل أن يفلت الستارة من يده ويمضي معيدا أصابع يده على صفحة الطاولة ثم رفع يده إلى عينه يعصرها.

ودندن بصوت متثائب: " أشعر بنعاس قاتل، يجب علي أن أذهب الآن.. سأعود بعد يومين "

واستدار متوجها نحو باب الغرفة فناداه مراد من خلفه وهو يقف على قدميه بأسف :

" تاكافاريناس ! .. "

وتوقف (تاكفا) عن الحركة ..

- " كن بخير يا صديقي .. أرجوك لا ترهق نفسك في التفكير الزائد، ألم تقل لي يوما أن الأشياء تحدث !! .. "

وابتسم (تاكفاريناس) ابتسامة لم يكن له من سبيل ليمنعها ثم رد بعفوية : " أجل .. عندما تحدث الأشياء تكون قد حدثت .. وفقط، لا أكثر.. لقد قلت هذا سابقا .. " ثم خرج من الغرفة بعدها، وكان مراد لا يزال يقف مشدوه البال حين غابت فرقعات حذاء (تاكفاريناس) وهو يجذب الباب الخارجية خلف ظهره، ثم تهالك على المقعد فقرب الأوراق وحمل القلم بين اصبعيه، مسح أنفه وأحنى ظهره وانكب يكتب في عزم عظيم يتقد في عينيه اللتين تتراقص

بداخلهما شعلة الشمعة وهي تحتضر، وكان الذي دونه على الأوراق لليلتين متتاليتين ما يلي :

"عندما انتهيت من تأمل المرحاض العفن بجدرانه الوسخة دون أن أصل إلى أدنى نتيجة عن كيفية وصولي إلى هناك، استدرت لأخرج فألقيت بيدي إلى مقبض الباب وانتظرت قليلا ، ثم ألقيتها مرة ثانية، وثالثة، دون أن أفلح في الإمساك به، كانت يدي تخترق المقبض وتنزل لأسفل، نظرت إليها فإذا هي تبدو غير مقطوعة، وإن أصابعي الخمسة لا تزال في أماكنها تتحرك كالديدان الجائعة، ثم قررت أن أقوم بالشيء الذي شعرت أن فرائسي الشبحية تتوق لفعله، لقد اندفعت صوب الباب مباشرة وكأنها مشرعة عن آخرها.. لكنني عندما وقفت بعد ذلك في ردهة المراحيض حافي القدمين ونظرت خلفي وجدت أن الباب لا تزال واقفة في مكانها تسد مدخل المرحاض الذي كنت قد خرجت منه لتوي، ونظرت إلى جسمي مرة أخرى فإذا هو متماسك لم يسقط منه عضو واحد.

ولا شيء في تلك اللحظة كان يثير دهشتي أكثر من كوني غير خائف من قدرتي على اختراق الباب دون فتحها، ومن الحالة التي أصبح جسدي عليها.. لا ولا حتى أدنى خوف يذكر، كنت أشعر بأن جسدي مرتاح جدا بعد

أن كان في ما مضى - ولست أدري كم من الوقت على ذلك قد مضى - مربوطا بداخل ذلك الفراغ المظلم عاجزا لا أقدر لا على الرؤية ولا على الحركة، فكأن المعادلة انقلبت وانزاح طرفاها كل إلى الجهة الأخرى، من عجز تام إلى قدرة لا نهائية على الحركة، فجأة لمعت في ذهني صورة الطبيب الأصلع الذي رأيته في المشرحة إلى جانب العجوز الميت وهو ممدد على الصفيحة المعدنية بوجهه الشاحب، حاولت أن أسترجع المزيد من الصور لكنني لم أفلح، شعرت أن عيناي تتجمدان كلما هممت بفعل ذلك، وأدركت لحظتها أن ذاكرتي كانت شبه فارغة، لا تحتوي شيئا أكثر مما رأيته منذ فتحت عيني فوجدت نفسي مقيدا وسط الظلام.

فجأة تناهى إلى سمعي صوت ماء يسكب من خلف باب أحد المراحيض الخمسة، ومرت لحظات ثم رأيت مقبض الباب يدور، أردت أن أتراجع إلى الخلف قليلا فإذا بي أجد نفسي وقد اخترق ظهري الجدار الذي خلفي حتى كدت أختفي بداخله فأسرعت أعود بخطوتين إلى الأمام ثم وقفت، وتحرك الباب فاندفع من خلفه رجل حسن الهيئة يرتدي بذلة أنيقة ويتنفس كالخنزير المتعب.

وضع الرجل محفظته الجلدية أمام الحنفية ثم فتح ربطة عنقه وجعل يحدق في المرآة طويلا وهو يلهث، كان له جبين متموج يغطيه العرق، وله خدان متوردان وشفتان منفوختان.. ويلف رسغه ساعة فضية لامعة، وتظهر من تحت صدريته البيضاء شعيرات سوداء ملتوية، متمثلا بذلك في ما يشبه - وليسامحني الله في الآخرة - ذلك الرجل الأنيق المثير للاشمئزاز في نفس الوقت والذي تنفر منه نفس الواحد عند أول نظرة، فتح الحنفية ونضح بعض الماء على وجهه وعاد يشهق وعيناه تتسعان في المرآة كأنه مطعون في بطنه، كان ذلك وأنا أقف على بعد ثلاث خطوات أراقبه، انتبهت إلى المرآة فجأة، وضيقت عيناي أحاول أن أجد نفسي عليها، لكن لم أرَ شيئا، إن المرآة لم تكن تعكس سوى الرجل ذي البدلة الأنيقة وأبواب المراحيض خلف ظهري، لكن ليس أنا.. وفهمت حينها أنه حتى المرآة الزجاجية ليس لها القدرة على رؤية جسدي الشبحي الفارغ المحمول على قوانين تختلف عميقا عن القوانين التي تحمل الرجل الذي بجانبي، وخالجتني نفسي وركبتني لحظتها رغبة عريضة في أن أرى شكل وجهي الذي لم أكن أعرف ملامحه، لكن حركات الرجل الغريبة جعلتني أفطن فجأة، وألتفت نحوه .. كان يبحث في جيب سترته فأخرج منه حقنة فارغة وضعها أمام وجهه وأخذ يحدق إليها

وقد زاد ذهوله واتسعت عيناه أكثر، وبدا من تجاعيد وجهه الطري أن خوفا عظيما تسلل إلى نفسه، هز رأسه يمنة ويسرة كأنما أسف على شيء ما ثم التفت إلى حقيبته فدس الحقنة بداخلها وعاد يحدق في المرآة مرة أخرى، بدا وكأنه يحاول التأكد من أن ذلك الوجه المحمر الذي يراه في المرآة هو وجهه وليس شيئا آخر، ثم رأيته وهو ينفلت على نفسه غاضبا فراح يضرب حوض الحنفية براحتيه حتى كاد يسقطه من مكانه، وفعل ذلك مرات متتالية حتى هدأت نفسه ثم رفع يديه وعدل ربطة عنقه و حمل الحقيبة ووقف منتصبا، ألقى على وجهه نظرة أخيرة ثم مضغ شفتيه قليلا وسار نحو الباب تاركا شدقها مفتوحا خلف ظهره.

***

عندما أظلمت سماء المدينة في اليوم التالي، عاد الاشخاص السبعة مجددا، وأخذ كل فرد منهم موضعه حول النار الهادئة، وعندما راح (تاكفا) يستذكر حكايته، بادره أحد التوأمين قائلا.

_ " كنت قد بقيت لوحدك في الحمام عندما خرج الرجل الأنيق وترك الباب مفتوحا خلفه .."

ورد عليه (تاكفا) متنصلا من شروده : " آه ،أجل .. إذن سأكمل .."

وأصغت إليه عيون وآذان الجالسين، راح يقول بعدها وعيناه تحملقان في ألسنة اللهب.

- " الحقيقة أنني وقفت هناك أتخبط أحاول يائسا والغيظ يعصف بي أن أفهم ما يجري حولي، لماذا وقفت هكذا داخل المرحاض فجأة، حافي القدمين، لا أستطيع لمس باب خشبية لا يسعها الدفاع عن نفسها، ولماذا كان ذلك الرجل يقف أمامي دون أن يلاحظني، ولماذا يستطيع هو أن يرى نفسه على المرآة دوني، وغلبتني وحشة عظيمة لأكتشف نفسي التي لم أكن أذكر منها شيئا، أردت أن أرى وجهي، ونظرت إلى يديّ مجددا وأنا أشعر بألم قارص ينساب إلى صدري، قررت أن أتبع الرجل بعدها، ولشدة ما كنت لا أدري من أنا.. فقد رميت يدي لأفتح الباب حتى أخرج، ولعنت نفسي على

شدة غبائي ونقص ذاكرتي، واندفعت بتهور إلى الخارج، اخترقت الباب وهي لا تزال واقفة مكانها، كانت عيناي تمران عبر الخشب، فتنطفآن قليلا ثم يعود النور مجددا، وحينها وجدتني أقف وسط رواق طويل تقف على امتداد جداريه عدد من الأبواب ذات المقابض الزرقاء اللامعة، أتمكن من رؤية الرجل الذي خرجت خلفه، كان قد اختفى ولم أستطع أن أقرر خلف أي باب قد دس نفسه هذه المرة، نظرت إلى قدماي العاريتين فلاحظت أن أظافرها قد قلمت بشكل متقن، ثم رأيت على الجدار بجانب أحد الأبواب جدول أيام معلقا، سرت نحوه ونظرت لبرهة، وكما بدا فقد كان اليوم هو العاشر من جويلية، شعرت فجأة برعشة باردة تسري في جسدي، ثم تحرك باب الغرفة وخرجت منه فتاة صغيرة السن ترتدي مئزرا أزرق سماويا وتحمل بين ذراعيها لوحا عليه عدد من الأوراق الفارغة، لم يسعني أن أرى وجهها بالقدر الذي أردته، فقد كانت التفاتتها وهي تغلق الباب خلفها سريعة جدا، لكنني قدرت أنها مخلوق رائع، لا يمت بصلة إلى ذلك الطبيب في المشرحة، أو ذلك العجوز، وهذا السمين الذي غادر المرحاض متعرق الجبين لتوه، كانت تلك مخلوقات فظيعة بائسة، أما هذه فمخلوق وديع له خدان أبيضان وفم بديع وعينان واسعتان لم أتبين لونهما، ورأيتها بعد ذلك وهي تبتعد نحو آخر الرواق

بمشية ذهبية، كان الرباط حول خصرها النحيف يهتز خلف ظهرها، ورأيتها تهبط للأسفل، كانت تنزل أدراجا على ما يبدو، وتذكرت فجأة أنه يمكنني إذا ما أنا نويت أن أحرك ساقاي الفارغتين واحدة بعد الأخرى، أن ألحق بها حتما قبل أن تختفي مثلما اختفى ذلك الرجل، ورحت أسير خلفها أتجاوز الأبواب واحدة تلوى الأخرى، حتى وصلت آخر الرواق ورأيت عددا من الأدراج تنزل نحو الأسفل ثم تنكسر إلى الجهة الأخرى، وحين كان علي أن أستدير في ذلك المربع الكبير الذي تنعكس بعده الأدراج إلى الجهة الأخرى فقد اعتقدت لحظتها أنني سوف أراها لكن .. لم يكن غير وجه مريع أهالني منظره للوهلة الأولى، كان وجه الطبيب نفسه، ذلك الذي رأيته في غرفة تبريد الموتى، المشرحة، بشحمه ولحمه، واقفا على آخر درجة من الجزء السفلي من السلم يتأمل ساعة يده ذات الحزام الجلدي الأسود، حاملا حقيبته في يده الأخرى ويتدلى من على كتفيه نفس المئزر الأبيض الطويل الذي ينتهي عند ركبتيه القصيرتين، ولم يقف كثيرا، إذ بدا لي أن غضبا عارما كان يعتريه لحظتها، وأنه على عجلة من أمره، عرفت ذلك من حركة شفتيه وعينيه المخيفتين، وجلدة رأسه المتعرقة، وفكرت في أنه توجد علاقة بين غضبه وما كان يفعله في قاعة التشريح، ربما أغضبه العجوز الميت بطريقة ما،

لكني لا أدري .. فلم أمكث في المشرحة طويلا، تحرك صاعدا فابتعدت عن طريقه وأنا ألاحظ عينيه تمران أمامي، فعلت ذلك بتثاقل، لا أدري لمَ تعمدت أن أتجنبه، كان يهمني فقط أن لا يمر عبري، أو أن لا أمر أنا عبره، وكنت لأرعبه بصوت مخيف كفحيح الأفعى أطلقه في أذنه لو كان بإمكاني فعل ذلك، لكنه لم يعد في مقدوري وكما يبدو أن أرعب أرنبا بريا، أو قطة صغيرة كتلك التي مرت بين ساقيّ وراحت تتسلق الأدراج خلف الطبيب في حماسة، أعجبني لون فرائها الأبيض، و تمنيت لو أني أمسكها قليلا، لكنني أنا أيضا كنت على عجلة من أمري، التفت إلى شأني ورحت أسرع الخطى نحو الأسفل.. قادتني الأدراج إلى ردهة واسعة تعج بالمرضى المتهالكين جنبا إلى جنب على المقاعد الطويلة، كان هنالك من يجلسون على الكراسي المتحركة أيضا، ورؤوسهم معصوبة، وكان البعض ينزلقون على الأرض مسندين ظهورهم إلى الجدران برقاب مائلة، لأنه لم يعد هنالك من مقاعد فارغة يجلسون عليها، وكانت هنالك عجوز تضرب حارس المدخل على رأسه بعصاها، كانت ترتدي تنورة حمراء وتصرخ في وجهه بصوت مبحوح توبخه لأنه لم يأت لخطبة حفيدتها، وكانت موظفة الاستقبال تضحك عليه ثم تعود لتوزيع أوراق الأدوار على المرضى الجدد الذين راحوا يدلفون من الباب دون

توقف، والتفت حول نفسي أبحث عن تلك المخلوقة البديعة فلم أرَ لها أثرا، كانت بعض الممرضات تظهرن من بين الأروقة المظلمة وتختفين بداخل الغرف الكثيرة، لكن تلك الفتاة لم تكن بينهم، نظرت إلى ساعة معلقة على الحائط، التاسعة وخمس دقائق، من البديع أنني ما زلت أقدر على قراءة الوقت على الساعة، وقفت بعد ذلك طويلا ألتف حول نفسي وأتحاشى من حولي، وشاهدت العديد من أبواب الغرف تفتح وتغلق، لكن دون جدوى، فالفتاة لم تظهر مرة أخرى، نظرت إلى الساعة مرة ثانية فكانت التاسعة والنصف، مرت خمس وعشرون دقيقة، يا إلهي، كان الناس يتعرقون من حولي، وأصابتني غبطة، أجل، غبطة .. لأني كنت عاجزا تماما عن أن أشم روائح أجسادهم الممتلئة، وأخيرا وجدت حسنة لهذا الجسد الملعون الذي لا يمكن رؤيته، وأي لعنة.. لا أدري، حدقت في موظفة الاستقبال طويلا، لكن كيف لي أن أفعل ذلك، كيف لي أن أسألها إن خرجت من أمامها فتاة جميلة، فكرت طويلا، ثم استخلصت فكرة لنفسي مفادها أن أذهب وأتفقد الدفتر الذي تحت يديها، واندفعت نحوها، عبرت الجدار الصغير ووقفت بجانبها، ولو أنه لم تصبها حكة في فخذها إذن لوقفت طويلا بعد حتى تبعد يديها الناشفتين عن الدفتر، وأسرعت لألقي نظرة، كانت مجرد صفحة فارغة، يبدو أن الصفحة

السابقة قد امتلأت لتوها، وتملكتني لحظتها غضب شديد لا أدري من أين أصابتني، ها أنا أمثل ذلك الشبح الذي بات يحن لفتاة رآها فجأة، مضحكٌ.. أليس كذلك؟؟! .. أردت أن أقلب الورقة لأتأكد، هل هي خرجت أم لم تخرج.. لكن موظفة الاستقبال عادت تضع يديها على الدفتر مجددا، ليتني أصيح في وجهها فتقع صريعة على الأرض ويقع الدفتر على وجهها مفتوحا على الصفحة التي أريدها، تمتمت بكلام فارغ ثم سرت بعيدا عنها، لا جدوى من ذلك، أنا أهلك نفسي، وقفت وسط الردهة مجددا، لكن دون أن أكترث لمرور الناس عبري هذه المرة، فلتمروا أيها المرضى التعساء، اخترقوا جسدي وامشوا حيث شئتم، وتمالكت نفسي بصعوبة، تأملت الغرفة المغلقة تارة والسقف الذي فوق رأسي تارة أخرى، فكرت هل علي أن أفعل ذلك حقا، هل سأبدأ باختراق الجدران ودخول الغرف المغلقة دون إذن أصحابها، فقط لأجد تلك المخلوقة الجميلة، ثم أخذت نفسا، ونظرت نحو السلم الذي كنت نزلت منه قبلا، لا أدري لمَ نظرت، لكن الرجل الذي رأيته في الحمام كان يهبط الأدراج حينها، يحمل محفظته بيده اليسرى وقد نشف جبينه، كان يرتدي حذاء لامعا، ولا يرفع عينيه عن الأرض أمامه، ولا شك في أنني لو عصرت بدلته

لسالت منها قارورة عطر من النوع الذي يكفي ثمنه لتوفير الدواء لعدد لا بأس به من هؤلاء المرضى إن هم اصطفوا في صف واحد.

كنت قد نسيت أمر الفتاة تماما، وانصب اهتمامي كل اهتمامي على ذلك الرجل، فقررت أن لا أفقد أثره هذه المرة، ورحت أتبعه نحو الخارج.. كنت كالكلب الذي دخل مدينة جديدة.. لا أعرف أحدا وأتبع كل من لا أعرفهم.. كانت الشمس تسطع صفراء في الأعلى، والسماء زرقاء صافية، ولا وجود لرائحة السحب، وسرت خلف الرجل حتى موقف السيارات حيث وقف هناك يعالج قفل الباب مستعجلا، كانت سيارة جميلة فخمة تقف على أربع عجلات عريضة، ولها مقدمة طويلة تنم عن محرك بارع، ثم رمى حقيبته على المقعد الذي بجانبه وأجلس مؤخرته الكبيرة خلف المقود ثم تذكر أن عليه أن ينزع سترته أيضا، نزعها منفعلا ثم راح يأخذ أنفاسا عميقة متتالية بينما يداه مثبتتان على المقود وعيناه تخترقان الزجاج الأمامي نحو نوافذ المستشفى الزرقاء العالية، وكنت أنا أقف أمام الباب أتأمل حركاته الغريبة، وقدرت أن هذا الرجل إنما هو واقع في بلوى، أو أن مصيبة عظيمة قد حطت على رأسه، كان مهموما، يعض شفتيه بين لحظة وأخرى، ولا ترمش عيناه إلا على فترات متباعدة، ورأيته بعد ذلك يضغط بعض الأزرار على شاشة إلكترونية بجانب

المقود، ظهر فجأة على الشاشة خارطة صغيرة، وفهمت أنه كان يحدد موقعا ما ليتبعه، ولما هممت بإلقاء نظرة فقد أدار - في تلك اللحظة نفسها - المفتاح وانطلق بعيدا بسيارته.

وقفت هناك لعشرين دقيقة، لوحدي ، كالفزاعة أفكر أين يجب أن أذهب، دون أن أوفق في تحديد مكان مناسب، ذلك أنني ما كنت أعرف في أي أرض أنا إلا بقدر ما كنت أعرف اسمي.. الذي لم أكن أعرفه.. كان هنالك مستشفى صغير يقف أمامي بجدرانه البيضاء الصامتة، مزركش بنوافذ كثيرة ذات زجاج أزرق، وكانت تحوطني جدران الموقف، وأنا واقف بين كل تلك المركبات المعدنية التي ظلت تحدق بعيونها القاسية، لكن فجأة لمعت في ذهني فكرة ذكية، إذا كان للرجل ذراعان فلابد أن يكون للمستشفى موقف سيارات وحديقة ليأخذ الناس فيها قسطا من الراحة، شددت الخطى نحو بوابة الموقف، ولم يخب ظني كثيرا، إذ سرعان ما لمحت في الجهة المقابلة دستة من الأشجار العريضة ذات الظلال الوافرة، كانت تحوطها جدران قصيرة تعلوها شبابيك معدنية، وكان يفصل بين ذراعي المستشفى طريق استعملها ذلك الرجل في الهروب بسيارته بعيدا، وكان يفضي إلى مكان ما، لكنني انتظرت قليلا حتى عبرت سيارة الإسعاف، كانت تخرج مسرعة، ثم سرت نحو

الحديقة، والتي رغم صغرها إلا أنها كانت جميلة، تغطي أرضها ظلال باردة، وتتخلل أشجارها طرق حمراء ملتوية، واخترت مقعدا لنفسي، وجلست أفكر لأول مرة منذ فطنت - كما كنت أحسب - على هذا العالم، ودهشت لما وجدتني أجلس حقا، دون أن تخترق مؤخرتي سطح المقعد الخشبي فأسقط على الأرض، ولا أدري كيف واتتني فكرة الجلوس على المقعد وأنا الذي اخترقت باب الحمام قبل ذلك، ثم تذكرت ذلك الرجل، هل لو أنا ركبت سيارته وجلست على المقعد الذي بجانبه هل كان سيجرني في سيارته أينما يذهب ؟ .. هل كان جسدي سيتناسب مع جلد مقعده الفاخر فأرافقه لأشفي غليلي بمعرفة ما قد تكون تلك البلوى التي شغلت فكره ؟ .. لقد تهت في بطن تلك الفكرة.. ثم جاء ذلك الطرف الثالث، كيف أتمكن من الخطو على أرض الحديقة بينما لا أستطيع ركل سلة القمامة التي بجانبي، كيف يحملني التراب والإسمنت ولا يصدني جذع شجرة، ثم فكرت في أنه قد يكون لما أنوي في رأسي علاقة بما يمكنني فعله، سألت نفسي هل لو أنني ضربت رأسي بجذع الشجرة فهل سأسقط صريعا؟ هل سوف يحدث ذلك حقا، ثم قمت فتوجهت نحو جدار الحديقة فصوبت رأسي نحوه دون تردد، ووجدتني أقف وسط الطريق مرة أخرى، وبذلك فقد قررت بأنني إنما أنا في منأى عن أذية نفسي،

وعدت أخترق الجدار متوجها نحو المقعد مرة أخرى فأخذت مكاني مثل المرة الأولى وقد كانت تجربةً ممتعةً حقاً، أن تقوم من مكانك فتضحك على الجدار وتعود ثانية، ومرت نصف ساعة أخرى وأنا جالس بلا حيلة، بلا هدف، ولا منفعة، سوى أنني آثرت المكوث هناك وتأملت نفسي وسط الحقيقة، كل تلك الحقائق التي من حولي، الجدران والمقاعد والآجر المحيط بأقسام التراب وأوراق الأشجار العالية .. وكنت قد رأيت ورودا على مقربة فقمت لأجلها، كنت أعلم أني لن أستطيع لمسها، لكني طمعت في استنشاق رائحتها، كانت هنالك الحمراء والبيضاء والصفراء أيضا، وانتهى الأمر بأن عدت بخفي حنين إلى مقعدي، وياليتني عدت بهما، وسمعت بعد ذلك أصواتا طرية تدنو من جهة قريبة فنظرت وكانت هنالك ممرضتان صغيرتان بمئزري العمل تتقدمان نحوي، كانتا تشابكان ذراعيهما وتقهقهان بصوت مرتفع، وكانت صاحبة الخمار الزهري تحدث صديقتها بينما تضم بيدها الأخرى حزمة أوراق إلى صدرها في سعادة بالغة، كانت تخبرها كيف أن ذلك المريض لا ينفك يأتي إليها ليشكو لها جمال عينها، فتضحك الأخرى، ثم تطلب من صديقتها أن تحكي لها المزيد عن ذلك الأبله، بينما مرتا من أمامي.

حل المساء ومازلت جالسا هناك لوحدي، فارغ الفؤاد حزينا أراقب الشمس وهي ترتمي بعيدا في الأفق، كنت وحيدا كمصباح الشارع، حتى بدأت أضيق من نفسي وتمنيت لو يعود ذلك الظلام فيأخذني إلى مكان آخر، لكني بدلا من أن أستسلم للجنون قررت أن أفكر بجدية أكثر، فقد حل الظلام ولم أجد بعد أي إجابة لأسئلتي، كان المصباح المعلق أمامي قد بدأ يفرقع دون توقف، ثم أضاء المكان حولي، جلست رافعا رأسي، ها أنا ذا شبح ! .. لا أعرف من أنا، لا أعرف اسمي ولا شكلي ولا من أين أتيت ولا إلى أين ينبغي أن أذهب، ولا أعرف أحدا يعرفني .. كانت ذاكرتي فارغة إلا من الأشياء التي مررت بها منذ أن أفقت في غرفة حفظ الجثث، وبعض الأشياء البديهية التي أظنها علقت في دماغي بقدر ما يعلق من الطعام في الصحن بعد الانتهاء من الوجبة، ثم سألت نفسي، ماذا أملك من حواسي الخمسة؟ لا يمكنني أن أشتم رائحة وردة، ولا أستطيع اللمس ولا التذوق أيضا، إذن شيئين فقط لا غير كنت أملكهما، السمع والرؤية، كما أن دماغي يعمل جيدا، في ما يخص الأمور الراهنة، ومرت نصف ساعة أخرى، إضافة إلى الثلاث ساعات التي قضيتها هناك دون أن يمر من أمامي أي أحد، انتظرت قليلا بعد علني أرى شخصا ما غريبا قد يأخذني الفضول لأتبعه فأقضي بعض الوقت برفقته، لكن

لم يأتِ أحد، نظرت إلى حاوية القمامة بجانبي، وكانت وحيدة مثلي، تشعر بالملل، فقمت من مكاني حافي القدمين مشلول الخاطر، خرجت من الحديقة ورحت أمشي كيفما اتفق .. سرت أربعين خطوة ثم خطر لي أن أستكشف المدينة، وسرت بين الحديقة وموقف السيارات حتى قادني الطريق بينهما إلى شارعٍ عريض يمتد يمنة ويسرة، وكان في الجهة المقابلة عدد من المحلات المفتوحة، انتظرت حتى فرغت الطريق من المركبات ثم عبرت بعدها، دون أن أشعر.. مشيت بين المارة أتحاشا أكتافهم تارة ومخترقا صدورهم تارة أخرى، وكنت حينما أرى محلا لبيع الطعام أقف عنده لحظة، أراقب كيف يمضغ الناس سندويتشات البطاطا المقلية بنهم وهم يبتسمون لبعضهم، ومع أن منظر أفواههم المملوءة كانت تبعث على الهرب، إلا أن ذلك بدا لي شهيا على نحو ما جعلني أشعر بالغيرة.

نظرت إلى نفسي مطولا ثم رحت ابتعد عن المكان منكس الرأس، كمن تم طرده من حانة بعد أن فرغت جيوبه.

كنت أود لو يصدمني أحدهم بكتفه فيسقطني على الرصيف ثم يلتفت نحوي مرعوبا يطلب المغفرة، شعرت بوحشة عظيمة، وأخذت المدينة تضيق علي بما رحبت، مع أنني أقدر على رؤية كل شيء، وسماع كل شيء، لكن

لم تكن لدي أي فكرة، كأن عقلي قد أغمض عينيه منذ فترة، رحت أجوب أزقة المدينة لساعتين أضرب هنا وهناك، أدخل من زقاق وأخرج من آخر، وقد أعود لنفس الزقاق مجددا دون أن أشعر، كانت الأزقة وسخة ومظلمة وتكسو جدرانها المتآكلة أوساخ وكتابات سوداء تظهر واضحة كضوء القمر وتزحف عليها مخلوقات صغيرة رباعية الأرجل تخرج من بين الثقوب ثم تختفي في الظلام بعيدا، وبين لحظة وأخرى كنت أسمع صوت ارتطام أكياس القمامة بالأرض خلفي، كان الناس يلقون بها من نوافذهم في غير مشقة، وكنت أرى القطط تقفز أمامي وهي تخرج من بين أكوام القمامة القديمة، تزمجر وتطارد بعضها، وكنت ألعن نفسي في الدقيقة الواحدة مليون مرة، ماذا أكون أنا بحق السماء .. وسرت في كل اتجاه لم تعترضني فيه جدران المنازل.

عندما انتصف الليل كنت قد وصلت إلى ساحة واسعة تتوسطها نافورة جافة، تحيط بها بيوت جيدة، كانت الساحة مظلمة إلا بقدر ما نالها من سخاء القمر، كانت هنالك سيارات مركونة أمام المنازل، وكان هنالك طفل صغير ذو شعر أصفر قد تسلق النافورة وجلس على قرصها الرخامي وكان يبدو مهموما فيما تتأرجح ساقيه العاريتين ورأسه منكس للأسفل.

قال (تاكفا) ذلك والتفت إلى الصبي الجالس قبالته والذي كان يرقد على ظهره ويحدق عبر شدق عظيم يتوسط سقف الغرفة حيث تصعد خيوط الدخان وتهرب بعيدا للأعلى، كان الصغير شارد الذهن يتأمل لمعان النجوم الباهرة، فقال (تاكفا) مشيحا بوجهه نحوه :

- كان ذلك أنت يا (تاز)، رأيتك هناك لأول مرة.

ولم يحر الصغير جوابا، إنما أغمض عينيه وراح يهز ساقه وعاد (تاكفا) يقول بعدها:

_ " كان هنالك ست مقاعد عريضة مثبتة على أرض الساحة تحيط بالنافورة، واخترت واحدا منها، وضعت ساقا فوق أخرى ومددت ذراعي على ظهر الكرسي كالأبله ورحت أقضي بعض الوقت في مراقبة (تاز)، كان من وقت لآخر يلتفت خلف ظهره طويلا قبل أن يعود فيحرك عينيه بين الأزقة المظلمة التي تخترق البيوت وتفضي إلى الساحة، ثم ينتهي به الأمر بأن يعود فيحملق في ساقيه العاريتين وهما تتأرجحان فوق حوض النافورة الفارغة، كان من الواضح أنه ينتظر شخصا ما، أو شيئا ما .. ورأيته يفعل ذلك مرات عدة، ووددت لو أذهب إليه فأسأله عما يفعله فوق النافورة في مثل هذه الساعة، لم أكن أقدر على رؤية ملامح وجهه جيدا، لكنه بدا لي فتى لطيفا،

ومرت عشر دقائق وكلانا لا يزال جالسا في مكانه دون فعل أي شيء يذكر، وفجأة علت أصوات صراخ راحت تنبعث من أحد البيوت خلف ظهري، فالتفت الفتى الأشقر لمصدر الصوت من شدة ما ارتفع وامتد صداه في الساحة، واستمر الصراخ قرابة خمس دقائق دون توقف، قدرت فيها أن أحد الأزواج يجيب زوجته بطريقته الخاصة عن سؤال لم يكن عليها أن تطرحه، ومن بين ما كان واضحا من جملة الشتائم التي تلفظ بها الرجل كانت تذكره بأنها إنما مجرد امرأة، ولم تكون شيئا غير ذلك.. والمرأة لا تعرف مقدار ما قد يحصل للرجل من فوائد عظيمة إن هو تأخر إلى مثل هذا الوقت من الليل عن فراشها، تلاه صوت تحطم آنية زجاجية، ثم بدا أن أحدهما قد استسلم للآخر، هدأت الشقة كأن ريح عاد مرت عليهما، ورأيت (تاز) بعد ذلك يجيل عينيه في ما حوله بغرابة، ثم سكنت عيناه تحملقان في مخرج أحد الأزقة ومرت لحظات وظهر منها عجوز متعب بدت عليه آثار العمل، كان يمشي محني الظهر يحمل كيسا أسود في يده فيما يجر ساقيه بصعوبة، يلف جسده الهزيل بسترة رمادية متآكلة.

تبعته عينا الفتى الماكرتين وهو يعالج قفل باب خشبية، كان العجوز يجد صعوبة في دس المفتاح في مكانه، ويده ترتعش بشدة فسقط المفتاح من

يده واندس في الأرض بين صفائح الإسمنت المظلمة، ورأيته بعد ذلك ينفق قرابة الأربع دقائق يتحسس الأرض بيديه حتى وجده أخيرا، كان واضحا أنه يعاني آلاما في ظهره، وما كاد ينجح هذه المرة في دس المفتاح في موضعه ويختفي بداخل منزله حتى وثب (تاز) من فوق النافورة برشاقة بالغة وحط على أرض الساحة، كان يرتدي قميصا ذا كمين طويلين وسروالا قصيرا وحذاءً مرقعا، واستطعت في لحظة ما لما قابل وجهه وجه القمر أن أتبين عينيه الواسعتين وفمه الصغير المغلق، كان شعره الأشقر الطويل يغطي نصف وجهه، وقف هنالك يحملق في البيت الملاصق لبيت ذلك العجوز باهتمام بالغ، كان بيتا جميلا مكونا من ثلاثة طوابق ومرصعا بقرميد أحمر فوق النوافذ وله شرفات واسعة، فيما كان بيت العجوز مهملا يتكون من طابقين وتكسو واجهته ألوان مقشرة.

فجأة شق الصمت صفيرا خافتا راح ينبعث من فوق سطح ذلك المنزل ذي الثلاثة طوابق، وتطلعت عينا (تاز) نحو ذلك الموضع، فإذا بخيالات تتحرك هاربة، وكان قد توقف واحد منها وراح يعطي بذراعيه إشارة انتهاء شيء ما كان بينهم.

وبينما يمضي (تاكفا) في سرد حكايته، حتى وصل إلى قول هذا فقد نظر إلى هشام نظرة ذات معنى واستتلى حديثه قائلا :

_ " وذلك ما كان ينتظره (تاز) إذ ركض بعد ذلك نحو أحد الأزقة واختفى بسرعة البرق حتى ابتلعته الظلمة .."

قاطعه هشام متسائلا :

_ " ألم تقم بتتبعه ؟.."

_ " لا .. فكرت في القيام بشيء آخر"

_ " شيء آخر أثار اهتمامك أكثر من حركات (تاز) الغريبة !! "

_ " لا شيء أثار اهتمامي، لكن ذلك العجوز كان يبدو في حالة سيئة .."

_ " لذلك اقتحمت بيته لأتطفل عليه !! "

نظر (تاكفا) في عيني هشام مطولا، مستغربا طريقة حديثه :

_ " وقفت أمام الباب مطولا أفكر فيما سأفعله، ففكرت في أنه مجرد عجوز مسن سينزع خرقته البالية عن ظهره ليكشف عن كتفين مهدمين أعياهما الزمن قبل أن يأوي إلى فراشه، لم يكن فتى عشرينيا.. أليس كذلك.. "

وفكر مطولا واضعا يديه على فمه :

_ " دلفت من خلال الباب الخشبية وحطت قدماي وسط ردهة صغيرة، كان البيت مظلما، يشق الردهة رواق طويل إلى الداخل ، كان الباب مفتوحا.. وكان العجوز قد ترك حذاءه عند مدخل الرواق، وكان على يساري أدراج تفضي إلى الطابق العلوي، وعلى يميني مرحاض وحمام يعصران بعضهما، ورأيت أثناء مشيي عبر الرواق صورا رمادية لبعض أركان المدينة عندما كانت لا تزال شوارعها واسعة فارغة، ثم صور لسيارات قديمة، ودخلت أول شق وجدته، كانت غرفة واسعة، مظلمة، مغبرة، كان في الغرفة طاولة كبيرة بكرسي واحد، وعليها شرشف أبيض ومزهرية فارغة، وعلى الجدار المقابل تستند خزانة عظيمة من الخشب الأحمر بها نوافذ زجاجية كثيرة، في وسطها تلفاز صندوقي كبير ميت، ذا أزرار بارزة، كان صندوقا عتيقا بمعنى الكلمة، في زاوية أخرى كان يقبع موكيت خشبي صغير كالجرو الخائف، وقفت أمامه أتأمل لوحين خشبيين يرقدان عليه تغطي واجهتيهما على التوالي عدد كبير من المفاتيح المعدنية القديمة وعدد أكبر من الطوابع البريدية الباهتة، ومددت يدي في غفلة لأرفع اللوح، أحسست بمرارة الأمر.. لم أرد سوى أن أشبع فضولي بتأملها عن قرب أكثر، لأن الظلام كان يملأ الغرفة، وكنت أخشى أن أصدم شيئا ما، أجتهد في التنقل بين ثنايا الغرفة على بقايا ضوء

القمر المنبعث من النافذة، ستقولون لماذا وأنت خفي لا تقدر على أن تلمس شيئا.. أجل، كنت خفيا ولا أقدر على أن ألمس شيئا، لكن عقلي لم يكن وكما يبدو قد اعتاد على ذلك كلية، بل كان يغيب عن ذهني أحيانا أنني أمتلك تلك المقدرة، المهم.. كان البيت بأكمله يشبه متحفا صغيرا يحتوي آثارا قيمة، كانت هنالك أيضا بندقية ذات فوهتين معلقة أفقيا على أحد جدران الغرفة، وفهمت حينها أن صاحب البيت ليس مجرد عجوز مسكين مكسور الظهر لم يعد يدري أي سنة يعيشها، بل كان عجوزا لديه شغف عظيم لجمع الآثار والتحف القديمة.

خرجت من الغرفة على صوت ضجيج ينبعث من أخرى فاتجهت نحوها، وكان العجوز يعد عشاءه البسيط على فرن صغير تغطيه طبقة سوداء من الوسخ، كان مطبخا صغيرا مثل التابوت المتسخ .. راقبته وأنا أقف خلفه مباشرة، كان قد أنهى لتوه من قلي ثلاث بيضات فألقى بها في صحن مفروم وجلس أمام طاولة خشبية صغيرة جعلها أمام ركبتيه وراح يفرم قطعة خبز فرمات صغيرة ويمضغ طعامه بتؤدة، وعندما تقدمت أمامه رأيت عيناه الفارغتان لا تكفان عن التحديق في موضع واحد، كان يحمل أشلاء البيض الصغير إلى فمه دون أن ينظر إلى الطبق، رأيت أصابع يديه الجافة الرقيقة

تفعل ذلك مرارا في احترافية بالغة، و إن صح ما أقوله فإنما يدل ذلك على عيشة طويلة تكتنفها الوحدة، لقد كان يحدق في نار الفرن كأن به فزعا، ولو أن أحدهم سأله عن نوع الطعام الذي كان يتناوله فأجزم أنه كان سيأخذ وقتا ليرد له الإجابة، واحمرت عيناه فجأة واغرورقتا وكأنه سيشرع في البكاء بعد لحظة، وأنهى طعامه بعد ربع ساعة ثم قام فغسل أوانيه وقفل راجعا إلى غرفته فانطرح على فراشه الرث البارد، واضعا كلتا يديه تحت وجهه، مثل الوسن ... لقد رقد مثل الوسن المسن دون أن ينزع سترته الثقيلة، كان سريره مصنوع من الحديد بالكامل، وغطاؤه وشاح أبيض به ثقب كبير عند الطرف، وكان يتنفس فينتفخ جنبه كما ينتفخ جنب أسد ضامر ظهرت عظامه بعدما نبذه قطيعه للجوع والوحدة فرقد في ظل شجرة ينازع موته، حزنت لحاله جدا، ورأيت حالي حينها فتذكرت حجم الوحدة التي أنا فيها، إن هذا العجوز لابد أنه يخرج صباح اليوم فيلقى شخصا يسلم عليه فيمدحه في وسامته أو يدعوه لفنجان قهوة، وحينما تذكرت القهوة فقد تذكرت .. "

وصمت قليلا ، وراح يجمع سبابتيه نحو بعضهما:

ـ " أترى حينما تجمع سلكي كهرباء هكذا... مع بعضهما، فتفرقع تلك الشرارة! "

وحك رأسه ثم عاد يحطم الجمرات بالعصى الخشبية قائلا بعصبية:

ـ " حدث في رأسي شيء كهذا، ضوء أبيض ثم شريط من الذكريات يلتف حول نفسه، كنت أقول أنني حينما تذكرت القهوة فقد تذكرتك أنت يا مراد، ليس بما يكفي... أعني ليس بالقدر الذي كنت سأعرفك به لو رأيتك في تلك اللحظة، كنت قد رأيت فيما رأيت من الشريط أنني جالس أمام شخص آخر حول طاولة في مقهى، كان المقهى هادئا، وكان الشخص أمامي يحرك فنجان قهوته فوق الطاولة، ولم أستطع تبيان وجهه، كان رأسي منكسا نحو فنجان من يجلس أمامي، لكن شعور قوي هاج داخلي بأنني أعرف كنه ذلك الشخص معرفة حقيقة، وعندما حاولت أن أرفع رأسي قبالته اختفى الشريط وعاد وجه العجوز النائم للظهور أمامي

كانت شعرات رأسه المتبقية بيضاء تركب بعضها، وتجاعيد وجهه المحترق تصرخ بأيام من التعب، وسأشبه نومه مرة أخرى فأقول أنه كان متعبا يشبه في نومه من انتهى لتوه من تلميع القمر.

هذا وعدلت عن التطفل على العجوز لأكثر مما فعلت، وما إن التفت لأغادر البيت حتى سمعت طرقا على الباب الخارجية فنظرت إلى العجوز وكان يفتح عينيه الزبيبتين بصعوبة، مشيت قبله لأتفقد الطارق.

_ " عندها وجدت صبيين صغيرين يركضان بعيدا "

قاطعه هشام قائلا وهو يفترسه بنظرات ساحقة.

وصاح التوأمان بصوت واحد:

_ " كان ذلك أنا.. " والتفت الواحد منهما نحو الآخر وراحا يجادلان بعضهما.

_ " لماذا تتحدث عن نفسك، كنت هناك أنا أيضا... "

_ " لكنني كنت هناك أنا أيضا، فلماذا تتحدث عن نفسك... "

_ " ذلك لأنني طرقت الباب أولا .. "

_ " لكنني أنا من وضعت الكيس أمامها.. "

_ " لكن كيف سأقدر أنا على وضع الكيس أمام الباب إن كنت تحمله أنت بيدك... "

_ " نفس المشكلة واجهتها أنا... "

_ " ماذا تقصد بقولك .. "

_ " أقصد أنني لا استطيع طرق الباب إذا كنت أحمل الكيس الثقيل بكلتا يديّ وأنت تسير أمامي دون أن تفعل شيئا .. "

_ " إذن فأنت تعد أن طرق باب عجوز تعطل جهاز سمعه منذ قرن كامل لا يعد عملا مهما يتطلب مهارة .. "

_ " أنا لم أقل هذا .. "

_ " لكن هذا ما فهمته .. "

_ " تلك مشكلتك .. "

_ " منذ متى لكل واحد منا مشاكله الخاصة ؟ "

_ " انتظر .. هل نحن نتشاجر ؟ "

_ " لا أدري .. هل نحن نتشاجر ؟ "

_ " لماذا تسألني .. يفترض بك أن تعطيني الإجابة .. "

_ " لكنك سألتني أولا .. "

_ " هل فعلت ؟ .. "

_ " فعلت ماذا ؟ .. "

_ " لا تسألني يا حاء اثنان عندما أسألك ... "

_ " لكن لماذا ؟ ... وأنت أيضا تسألني عندما ترغب في ذلك .. "

_ " ذلك لأنني خرجت أولا .. أنا أكبر منك بعشرين ثانية .. "

وهنا تدخل مراد ليفض الخصام بينهما، ولو أنه ظل صامتا مثل الآخرين إذن لاستمرا في مشاجرتهما اللسانية إلى الفجر تقريبا، قال بهدوء بالغ :

_ " حسين .. حسن .. أرجوكما توقفا عن هذا .. كلاكما .. "

وكانت هذه الكلمات القليلة كافية ليسامح أحدهما الأخر ويسلما على بعضهما، أما هديل، أصغر عضو في المجموعة فلم يكن أحد قد استمتع بذلك الشجار مثلها، حتى أنها كانت تضحك ملئ فيها أثناء ذلك، فكانت تضع يديها على فمها كي تداري ضحكتها، وكانت تتطلع إليها عينا هشام المحبتان بين لحظة وأخرى تستغلان الموقف وهما خائفتان أن يفضح أمرهما.

عاد هشام بعينيه الرماديتين نحو (تاكفا) يحدق فيه بخشونة، والذي بدوره راح يبادله نفس النظرات الصارمة، فنظر إليه بعينين مفتوحتين وغمغم قائلا بثقة :

_ " لا تتجهم هكذا يا صديقي، فأنا قد وُهبت مقدرة عظيمة في الملل من سماع الاشياء التي أعرفها مسبقا .. انظر .. مثلا .. (تاز) مثلي لا يهتم بقصتك .. "

ولم يحرك (تاكفا) عينيه الغائرتين عن وجه هشام قيد شعرة، ولا ابتسم لقوله :

_ " أترى.. (تاز)، الذباب.. (تاز) يحب تناول الذباب أحيانا.. لذلك يبقي فمه مفتوحا "

وهنا حرك (تاكفا) عينيه نحو (تاز) وكان لا يزال مستلقيا على ظهره وقد رسم لعابه بقعة كبيرة على الأرض بجانب رأسه، وعاد يحدق في هشام بسرعة، فقاطعتهما هديل بصوتها الطفولي الرطب، قالت وهي تقصد هشام بقولها:

_" لماذا تتحدث هكذا.. (تاز) يفعل هذا دون أن يدري.. هي طبيعته، هو لا يرغب في تناول الذباب كما تدعي"

_ " وأنت لا تغضبي هكذا يا صغيرة، أنا أمازح صديقي (تاز) ليس إلا ... " والتفت إليه:

_" أليس كذلك يا (تاز).. هل أنت معنا ؟"

انتفض (تاز) مستندا على يديه ليرفع رأسه لأعلى فوجد العيون تحملق فيه بغرابة فصاح قائلا: _" ماذا ؟ ... هل حان وقت السرقة، (تاز) هنا .. (تاز) لا يحب مذاق الذباب أبدا، (تاز) يحب نقل الأشياء التي لا يملكها من أماكنها.. "

وما كاد يقول ذلك حتى انفلت الجميع ضاحكين ملئ ثغورهم، بينما ظل هو جالسا قبالة النار وشرائط من شعره الذهبي تهتز فوق عينه المشعتين بفعل الهواء المتحرك دون أن يفهم سبب تلك الضحكات المنطلقة.

هكذا انمحت شرارات الحديث التي خلقها هشام بتدخله المفاجئ وحل مكانها جو بهيج تخللته نكات تمثلت في قصص قصيرة طرحها التوأمين بالتناوب عن مغامرات (تاز) في الليالي المظلمة، ذلك ولما كانت الجلسة قد انتهت عند ذلك الحد فقد قام (تاكفا) ومراد وهديل يستأذنون الصغار للمغادرة، وراحوا ينزلون أدراجا متعرجة تملؤها الطحالب نحو الأسفل، وقد لف مراد أصابع يده حول اليد الصغيرة مخافة أن تنزلق.. بينا لزم كل من هشام و(تاز) والتوأمين أماكنهم حول الجمرات الحمراء يتباحثون خط أعمالهم لليوم التالي.

_ 2 _

العاشرة ليلا، وقف مراد يطل من النافذة يحتسي قهوته المرة، رفع سيجارته إلى فمه وامتصها، ثم جعل يضيق عينيه نحو موضع في الأسفل، كان هنالك في الجهة المقابلة من الشارع شابان يستتران بالظلام يقايضان بعضهما، كانت عملية سريعة تلك التي أقاماها، ودس أحدهما يديه في جيبي سترته بينما قرب الآخر يده إلى أنفه يشمها، للحظة، ثم مشى كل في جهة معاكسة، على بعد خمسين مترا كان هنالك شرطي قصير القامة ذو بطن متدلية يقف بتخاذل يدخن سيجارته تحت ضوء مصباح الشارع، كان يضع يده على الحزام حول خصره فيما يحدق بعينيه الكرويتين في الفراغ جهة البنايات المقابلة دون توقف.

ومر أحد الشابين اللذين كانا يتقايضان في الظلام بجانب الشرطي على مسافة قريبة، واستطاع مراد وبصعوبة بالغة أن يلاحظ كيف التقت أيديهما بسرعة خاطفة، وكيف أن الأمر انتهى وكأنه لم يكن، حتى أن الشاب مر من خلف الشرطي دون أن تتغير خطواته، وغاب في الظلام عند الزاوية، كأنما

أحدهما لم يرَ الآخر، وأما الشرطي فدس يده في جيبه ثم رفع بنطاله الأزرق الليلي للأعلى، و بصق سيجارته عند قدميه وغادر بقعة الضوء الصغيرة.

_ " كنت أحسب أنك بدأت الكتابة منذ فترة.. " كذلك غمغم (تاكفا) وهو يدلف إلى الغرفة، علق سترته على ظهر الكرسي وتهالك عليه مطلقا زفرة طويلة، وأما مراد فقد فهم أن (تاكفا) قال جملته تلك ليس إلا ازدراء بما رآه في الأسفل، فوضع فنجان القهوة أمامه وعاد فجلس على الطاولة :

_ " هل كان ذلك زميلك السابق؟ "

_ " ومن يكون غيره.. إنه حقير.. السماجة فيه تقف على ساقيها.. "

وارى مراد عينيه عن عيني (تاكفا) آخذا بهما نحو النافذة حيث كان الهواء يلاعب الستارة وغرد قائلا :

_" بقيت مدينتنا لهذا الشرطي في النهاية .. " وحلت فترة الصمت التي لابد منها، كانت أربعة دقائق أو خمسة، وأجال (تاكفا) بصره فيما حوله ثم غمغم:

_" كيف حالها.. هل تحدثت اليوم عن جدها؟ "

_ " لم تفعل .. لكنها تحدثت عنك قليلا.. "

وما كاد (تاكفا) يسمع ذلك حتى شعت عيناه والتفت يرشق مراد بنظرات سائلة، فواصل مراد كلامه:

_ " سألتني إن كان ما تفعله معك يعد خطأ.. "

_ " إيه.. "

_ " قلت لها أنه من الجائز لك أن تغضبي منه هكذا.. "

_ " ثم ؟.."

_ " ثم أغلقت الباب وعادت إلى غرفتها، كان ذلك قبل ساعة ولم تخرج منها حتى اللحظة.. أخبرني أنت عن حالك.. "

_ " ماذا ؟.. "

_ " ماذا تقصد بماذا؟.. هل من خبر؟.. "

أمال (تاكفا) رأسه إلى الخلف، وكان يمد يديه على فخذيه حين دندن بغصة:

_ " لا شيء يا مراد.. لا شيء يذكر، كأن الأرض ابتلعتها.. أو أنها ركبت عصفورة إلى بلد آخر.. "قال ثم عاد يجمع يديه على الطاولة: " دعنا منها.. أخبرني أين وصلنا ؟.."

ولما كان مراد لا يأمل في جواب غير هذا، فقد رفع أربعة أوراق من على الطاولة ودفع بها نحو (تاكفا) :

_ " إلى حيث رأيت التوأم أول مرة.. "

وبدا (تاكفا) بعظام وجهه البارزة وهو يقلب الأوراق بين يديه وعيناه الصافيتان تهتزان يمنة ويسرة، يشبه أكثر ما يشبه نفسه قبل عشرين شهرا، حين كان يجلس في مكتبه يقلب ملفا لأحد المجرمين اللذين كان يتولى قضاياهم، ومرت عشرون دقيقة، وعندما انتهى من قراءة الأوراق فقد مسح وجهه وأعادها إلى مكاناها:

_ " إذن هل نبدأ ؟ .. "

ورد مراد بحماسة وهو يرفع قلم الكتابة:

_ " كنت أظنك لن تقول هذا .. " ثم وضع حزمة أوراق بيضاء جديدة بين ذراعيه على الطاولة ونصب القلم فوقها، بينما (تاكفا) يملي عليه باقي القصة.

" في الليلة التالية.. " راح مراد يكتب " جلس الرفاق تحت السقف المفروم كعادتهم، حول النار الراقصة.. كان يتسلق جدران البناء نبات العليق من كل جانب حتى نوافذه العليا، وكان يملأ المكان حيث نصب الرفاق

مجلسهم.. خردوات كثيرة، كان هنالك براميل معدنية فارغة وأثاث قديم رث وأكياس بيضاء و إطار مطاطي وأشياء أخرى.

نط جندب صغير من فوق لوح خشبي وحط على صدر (تاز)، وكان كعادته مستلقيا يحدق في النجوم بشكل متواصل، كان يبهره لمعانها، أمسك بالجندب ورفعه بين إصبعيه عاليا، جعله بين النجوم وراح يتأمله.. وعلى مقربة كان يدور حديث مهم بين أفراد الجماعة.. إذ أن (تاكفا) كان يمضي في سرد حكايته العجيبة:

_" عندما خرجت من بيت العجوز كان هنالك صبيان يركضان نحو الظلام بأقصى سرعة، ثم خرج العجوز خلفي، وبحركات آلية رفع الكيس عن عتبة الباب وعاد إلى الداخل، حتى لم يكلف نفسه عناء إلقاء نظرة، كأن له عهدا بذلك.. أما أنا فتملكتني رغبة لأعرف أمر الصبيين فتبعتهما، دخلت الزقاق الذي فرا عبره وكان مظلما جدا، لا أدري كيف لم يتعثرا ببعضهما وهما يركضان بتلك السرعة.."

وهنا قاطعه أحد التوأمين قائلا وهو ينظر إلى شقيقه بحاجبين يقتربان من بعضهما:

ـ " ما يقوله هذا الرجل صحيح يا حسن، ماذا لو تعثرت قدمي بقدمك وأسقطتني أرضا؟ .. "

فرد الثاني بنفس تلك النظرة التي كان ينظر بها شقيقه، كأن الواحد منهما يقف أمام المرآة يعاتب نفسه، رد منفعلا:

ـ " لكن لماذا لا أتعثر أنا بك.. ها.. هل أنت تعرف الركض أفضل مني؟ .. "

ـ " أجل، أنا أعرف أين أضع قدمي ... لذلك لم يسبق لي أن حشرت نفسي في سقف أحدهم.. هأهأهأهأ.."

ولما كان حسين بقوله هذا قد ذكر أخاه بتلك الحادثة فقد اغتاظ حسن لذلك جدا وحدثته نفسه بأن يمسك أخاه من شعره، لكنه عدل عن فعلها في آخر لحظة، كان ذلك عندما طلبت امرأة عجوز من السيد (خوني) ـ وسيأتي وقت نتعرف فيه على شخصه ـ أن يدفع لها بأحد عماله ليصلح لها سقف بيتها، ولما كان السيد (خوني) قد اختار لها التوأمين ودفع بهما لينجزا لها تلك المهمة .. فقد راحا وبعد أن تشاجرا أيهما يصعد السلم أولا، يقصدان وهما يمشيان بخطواتهما الحذرة حبة قرميد مكسورة، وكانا قد أخذا وقتهما في التقدم نحوها، عندما غاصت قدم حسن في السقف وكاد ينزل على

الأريكة لولا أنه تشبث بيديه مثل خلد كبير علق في حفرة ابنه .. إذن عاد (تاكفا) يقول:

_ " وأنا أتتبع المسار الذي خلت أن التوأمين قد هربا منه لم أنتبه إلا ووجدت نفسي أضيع شيئا فشيئا، كنت أسير وأنا أفرش ذراعاي أمامي.. وما حدث بعد ذلك أنني عندما التفت في زقاق ضيق أحسست أن شيئا ما راح يشدني إلى الخلف فجأة، لم يكن شيئا يشبه الحبل، لقد كان ... كيف أصوغ هذا! .. كنت أجاهد لأحرك قدمي خطوة أخرى، كان إحساسي أشبه بذبابة علقت في شبكة عنكبوت، كان ظهري ينسلخ عني وأنا أحاول الهرب، دون أن أتمكن من الابتعاد لأكثر من أربع خطوات أو خمسة، ثم بدأ المكان حولي ينغمر في ظلمة أكبر، كان جسدي يتشتت عن هذا العالم بينما أغرق في الظلمة.. كنت أخبو مثل مصباح يوشك أن ينطفئ.. ثم لا شيء بعدها، لفني الظلام من كل جانب ولم أعد أقدر على الحركة، تيبست تماما مثل عصا مكنسة .. كما أن ذلك الفراغ وفقدان القدرة على الحركة في الظلام أمر مرعب جدا، حتى لأخال أن صخرة برية كانت لتموت من الهلع.. ثم لست أذكر كم غبت عن الوعي بعدها، وعندما فتحت عيناي مرة أخرى كنت أقف وسط موقف السيارات أحدق في جدار أبيض كالأبله.. كأنني.. كارل جونسون في

لعبة GTA San Andreas عندما يقتل في اللعبة فتنطفئ الشاشة قليلا ثم يظهر مجددا في نفس المكان كل مرة .. تذكرت أن الموقف تابع للمستشفى، كان الوقت صباحا ربما التاسعة، عرفت ذلك عندما نظرت للأعلى.. يا الله "

ـ " ما بك يا (تاكافاريناس) هل أنت بخير ؟ .. "

ـ " أنا بخير .. لا عليك يا مراد ، فقط رأسي يؤلمني .." قال (تاكفا) ذلك وأنزل يده عن جبينه، واستتلى قائلا :

ـ " مشيت نحو مدخل المستشفى، كان يعج بالمرضى.. الكثير من المرضى، مجددا.. كأن أحدهم يقيم عرسه في الداخل، كل المرضى كانوا فقراء جدا، لا يرتدي الواحد منهم لباسا إلا كان به بقع حائلة أو رقع ظاهرة أو تكون أكمامه متسخة، وأعتقد أني كنت قد رأيتهم جميعا في المرة السابقة، كانت موظفة الاستقبال في مكانها أيضا، وكان هنالك رجل يصرخ في وجهها، وفهمت منهما أن مكاتب الأطباء كانت فارغة، وأن المرضى قد تدافعوا إلى أبوابها منذ السابعة، وقد مرت ساعة كاملة منذ أن كان على تلك الأبواب أن تفتح.. وفي تلك اللحظة وصلت طبيبة قدرت أنها في الأربعين من عمرها، كانت تحمل حقيبة حمراء بينما تتقدم نحو مكتبها على حذاء عالي، مثل أنثى

الكنغر، رافعة رأسها وهي تنظر إلى ساعة يدها... وصاح فيها أحدهم من آخر الصف وهي تدخل المفتاح في ثقب الباب بهدوء بالغ، كان يتكئ على عكاز بينما يدس كيس التبغ في جيبه :

_" ساعة ... راكي روطار بساعة .. "

وتعالت صيحات من أمامه ومن خلفه تأييدا لرأيه، وانطلقت الأيادي تضرب الهواء في غضب، والحناجر تزفر، والعيون ترشق الطبيبة بحقد لو مسها أحدهم لتساقطت يده مثلما يتساقط التراب عن جدار متآكل، ولأنه لا يليق بالطبيبة أن تستقبل مرضاها دون ارتداء مئزر العمل فقد كان لابد أن تمضي نصف ساعة كاملة حتى تخرج من مكتبها وتدخل أول بائس عندها.

تنحيت أنا عن كل ذلك ومشيت نحو الأدراج متوجها للأعلى، والحق أنني رغبت كثيرا في أن أعود لأتفقد المكان الذي كنت فتحت عيناي فيه أول مرة، كانت الممرضات صغيرات السن تجبن الأروقة بتثاقل مثل الديدان الزرقاء حديثة الولادة، وهن يضممن ملفات المرضى والملاحظات إلى صدورهن.

كان الباب مفتوحا، وكان هنالك رجل يصب الماء على وجهه.. نظرت نحو المراحيض وكانت أبوابها مفتوحة عدا واحد.. سطع صوت عظيم من خلفه،

أقصد ذلك الباب المغلق، والتفت الرجل الذي كان يغسل وجهه وصاح مصدوما.. ما بك يا رجل، هل تقطع الكرتون في الداخل؟ .. هل أنت بخير.. ألم تمت؟.. "

ولما قال (تاكفا) هذا فقد انطلق الجميع يضحكون بشراسة، عدا (تاز) الذي لم يكن يسمع شيئا وهديل التي لم تكن قد فهمت كلامه.

وأردف (تاكفا) بعدها: " كان الصوت فظيعا .. ورد الرجل من الداخل متألما.. أنا بخير لا تقلق.. وبعد دقيقتين خرج من المرحاض وراح يصب الماء على يديه بجانب صاحبه وقال له.. أنت لا تعرف حجم المتعة في هذا، ولو أنك تعرف ذلك لأحببت جمعها، لكن الناس الأذكياء يجمعون النقود يا صاحبي، لا يجمعون ال stink bomb في بطونهم.. الأمر مثل أن تتناول بقايا قط مات في الخلاء منذ أسبوع كامل، ما فائدة هذا، بل هو مرض، مرض خالص.."

وهكذا انفجر الجماعة ضاحكين مجددا:

_ " والله أقول الحقيقة.. هذا ما قالاه تمام.."

وفهمت هديل معنى ما قاله (تاكفا) سابقا لكن لم تساورها الرغبة في الضحك مثلهم، ونظرت إلى هشام وكان يلملم فمه من الضحك، فلم تجد بدا من أن تعود فتحدق في النار بوجه مكتئب

_ " فسأله الرجل الآخر " أضاف (تاكفا) : " أتدري من ماذا تصنع ال stink bomb ؟ .. فحرك الآخر رأسه نافيا وهو يفرك أسنانه بسبابته.. من بقايا قط ميت منذ أسبوع كامل؟ .. فرد صاحبه.. من القيء والفضلات الآدمية والشعر المحترق والقمامة المتعفنة.. وكان الآخر يمضمض الماء في فمه فبصقه على المرآة وقال فاتحا عينيه باتساعهما.. هل أنت جاد، أين قرأت هذا ؟ ... ورد صاحبه.. لا يهم أين قرأته، ما أريد قوله هو أنه إن كان بطنك يصنع مثل هذه الأشياء فهذا يعني أنك تتبع أسلوب حياة خاطئ أو أن بك مرضا ما... فرد صاحبه وهو يضرب بطنه المنتفخة.. أحب أسلوب الحياة الخاطئ.. لا عليك مني، هذا المخزن لا يصنع أشياء لا يقدر على تحملها.. قال ذلك وهم بالخروج فتبعه صاحبه.. أما أنا فنظرت في الرواق وكان فارغا، كانت أبواب الغرفة مغلقة، جميعها.. ثم تذكرت لما جئت إلى هناك فوقعت عيناي على جدول الأيام المعلق على حائط الرواق بجانب باب إحدى الغرف، وقفت أمامه وكان يوم آخر قد انمحى.. اليوم الحادي عشر.. ثم تحرك مقبض

الباب فجأة وخرج منها ... كان ذلك أنت يا مراد، وبالطبع لم أتعرف عليك حينها، لم تكن قد بقيت في ذاكرتي مثل معظم الأشياء الأخرى.. أعني لم تكن بالنسبة لي أكثر من مجرد زائر جاء يعود أحد المرضى، خرجت من الغرفة وتوجهت نحو السلالم مباشرة، شعرت أن في تلك الغرفة شيئا مميزا، كأن شيئا بداخلي راح يجذبني إليه بقوة، ومرة أخرى بلغ بي الفضول من شدته أن قررت أنني لابد من أتطفل مجددا، ودخلت من الباب وهي لا تزال واقفة في مكانها.. "

وزم شفتيه يحدق في النار لدقيقة كاملة، ثم شد جبينه بيديه وهم بالحديث لكن السماء منعته من ذلك فقد أرعدت فجأة، ونظر الجميع عبر الجدار المهدم إلى البرق السريع الذي يشق الأفق المظلم، وكان ذلك شيئا حثهم على الوقوف حينها، فقاموا عن أماكنهم _ عدا (تاز) _ بعدما استأذن منهم (تاكفا) بأن يؤجل إتمام قصته حتى الغد بسبب حال السماء وحال جبينه المتصدع من الألم، وقفت هديل باشمئزاز تراقب ما يفعله (تاز) بالجندب الصغير في يده، وكان قد جرده من سيقانه كلها وراح يعبث بقرني استشعاره، وفي تلك اللحظة هتف التوأمان بصوت واحد : " كله يا تاز .. كله يا تاز.. تاز.. تاز.. تاز.. "

وما كاد (تاز) يسمع ذلك التشجيع حتى وثب من رقدته جالسا القرفصاء وراح يحدق في الجندب المحتضر بنهم، تماما مثلما حدق (سميغل) إلى خاتمه المفقود عندما استعاده.. رافعا إياه فوق مستوى عينيه بسبابته و إبهامه، والريق قد تجمع في فمه، لكن وفجأة تدخل هشام وصاح فيه بأن يلقيه من يده، ولما كان (تاز) من ذلك النوع من الصغار الذين يسمعون الكلام كثيرا _ أقول كثيرا ذلك لأنه لم يسبق له أن رفض لهشام طلبا فقد وثب على قائمتيه وألقى بالجندب عبر فتحة الجدار نحو الأسفل ووقف كدمية مهذبة، ضحكوا قليلا لهذا.. ثم مشى (تاكفا) ومراد وهديل معا نحو السلالم وغادروا المبنى، وكذلك آوى (تاز) والتوأمين كل إلى فراشه بعدها مباشرة، وأما هشام فوقف أمام الفتحة في الجدار يتأمل البرق في الأفق، وغياهب الغابة المظلمة.. كانت السحب تتلاحم في الأعلى وتحجب النجوم الساطعة، وكان الرعد يفرقع متقطعا، والريح يهمس يزف حكاياه إلى الأشجار فتصغي له السمع بأعاليها، والبوم يضبح في الظلام ولا يرى .. دس هشام يديه في جيبي سترته وأغمض عينيه يشم رائحة التربة لما اختلطت بها قطرات المطر

_ 3 _

جاء (تاكفا) بمظلته المبللة، تاركا وراءه خيوط ماء تتلألأ في الظلام تربط بين الصفيحتين.. فرقع حذاءه على أرضية الرواق أثناء دخوله، لم يكن الباب مغلقا بالمفتاح لذلك فقد حرك المقبض بيده الأخرى واندفع إلى الداخل.

_ " أين أضع هذه.. " هتف يمسح شعر رأسه.

_ " ضعها هناك ... في أي مكان تريده.. "

رد مراد بعفوية وراح يتتبع (تاكفا) وهو يتجه إلى الزاوية فيضع المظلة المفتوحة على الأرض فيعود فيأخذ مكانه على الجهة الأخرى من الطاولة.

_ " المطر لا يتوقف.. "

_ " سيتوقف عندما تفرغ السحب.. "

بعد مرور عشر دقائق.

_ " اليوم بدأت الكتابة باكرا .. "

_ " أجل.. ظننت أنني أعرف ما يكفي من الأحداث لأواصل وحدي.. "

_ " ثم كيف كان ظنك؟ .. "

_ " خذ.. " وناوله أوراقا: " أنظر بنفسك.. "

ومرت فترة حتى انتبه الاثنان إلى أن هديل كانت تتكئ بكتفها على إطار الباب وهي تحمل قطتها البرتقالية اللون بين ذراعيها، كانت تنظر إلى الأوراق في يد (تاكفا) بوجه صامت، ثم قالت لما سألها مراد إن كانت تود الانضمام إليهما:

_" ما الذي تفعلانه؟ "

أجاب مراد بلطف بالغ: " نحاول أن نكتب قصة.. إننا نحاول "

_ " قصة؟ "

_ " أجل "

_ " عن ماذا؟"

_ " عنا.. عني وعن (تاكفا) وعنك أنت وأصدقائك الصغار أيضا "

_ " عني أنا؟ "

_ " ألا تحبين أن تصبحي شخصية جميلة في قصة ما؟ "

وهي تندفع نحو الطاولة، حيث وقفت تمد رقبتها الصغيرة لترى كومة الأوراق المكدسة، قالت: _ " أممم.. لا أعلم، ربما أحب هذا؟ "

وأردف مراد ماضيا في إغراءاته التي رأى (تاكفا) أن لا داعي لها لما هز رأسه مرجعا عينيه إلى الأوراق في يده .

ـ " أن تكوني بداخلها، وسيقرأها الناس ويرونك.. وأنت أيضا سترين نفسك عندما تطالعينها، مثلما تنظرين إلى المرآة تقريبا، لكنك تنظرين إلى الورق.."

وبينما تفلت القطة من بين ذراعيها قالت:

ـ " هل سأرى نفسي إن نظرت إلى الأوراق التي هنا؟ "

قالت وهي تأخذ مكانا على الطاولة..

ـ " أجل.. عندما تجهز القصة تمام، لا يزال أمامنا الكثير حتى نقول أننا انتهينا منها "

ورفعت ورقة ليس بها سطر فارغ ومضت تتأملها، كان القط قد وجد ضالته عند قدم (تاكفا)، فالتوى على نفسه مثل الدودة وأغمض عينيه مطمئنا، ولما كان (تاكفا) لا يحب هكذا كائنات بالغة الظرافة فقد دفع القط بحذائه إلى تحت الطاولة بهدوء.

استقرت نظرات مراد على هديل وهي تقلب عينيها الجميلتين بين كل سطر والذي تحته، ظنها تستمتع بما تقرأ، وابتسم لذلك لفترة، ربما ذكرته بشيء ما، ربما بطفله الذي لم يولد، ورقت عيناه وترقرقتا، فمسح الدمع بإبهامه خفية وعاد يبتسم لمنظرها، ورآها بعد ذلك وهي تعيد الورقة إلى مكانها، ثم وهي

تفرك عينيها النعستين.. تمنت لهما ليلة طيبة، تنحت عن المقعد وخرجت من الغرفة والقط يتبعها رافعا ذيله للأعلى، وخلال هذا كان مراد يتنقل بين الأسطر التالية.

لما عاد الجماعة يجلسون حول النار مساء اليوم التالي كانت السماء قد صفت وانمحت منها السحب، لكن الجو كان لا يزال باردا، يحمل خشيخشات الغابة في ثنايا الظلام حول البناء الميت، تلوت النار يمنة ويسرة، وزاد لهيبها، ودس (تاكفا) عصا قصيرة في جوفها وعاد برأسه إلى الوراء قليلا، وبينما عيون الصغار تطالعه بلهفة، مضى يسرد ما تبقى من حكايته، و هو يغمغم بصوت فيه بحة :

_ " عندما دخلت الغرفة كان هنالك مريض يرقد على سرير أبيض، رأسه ملفوف بضمادة، ومن فمه كان يخرج أنبوب يمتد إلى مكان ما، في عمر الثلاثين تقريبا، قدرت ذلك من تفاصيل وجهه المتماسكة، جلست على كرسي كان بجانب السرير ورحت أتأمله... لا شيء فيه كان يوحي أن روحه لا تزال في جسده، حتى بشرته السمراء كان البياض قد تسرب إليها، كان واضحا أن حالته حرجة، وأنه قضى وقتا لا بأس به راقدا على ذلك السرير دون حركة.. جربت أن ألمس يده المرخية مع علمي أنني لن أستطيع لمسه،

لا أدري لمَ فعلت ذلك.. أنا فقط شعرت أنه يجب علي أن أدعمه، كما تفعل الأم عندما تدخل على ابنها المريض فتمسك يده .. وأقسم أنني وأنا أمرر أصابع يدي عبر أصابع يده قد شعرت بحرارة دمه، لقد كان دافئا جدا، ثم ... "
وأحجم (تاكفا) هنا عن مواصلة الحديث للحظة، وكان لذلك قد أمسك جبينه وأغمض عينيه مطولا :

ـ " كأن رأسي يتشقق من الألم " استتلى رافعا رأسه لأعلى، ثم أنشأ بعدها لما بدا أن الألم قد بارح راسه :

أنشأ يقول خافضا يده إلى مكانها: " ثم جاءني صوت باب الغرفة وهو يفتح، ونظرت فإذا بها.. هي.. الممرضة التي كنت لمحتها قبل ذلك وهي تخرج من الغرفة، وسأقسم مرة أخرى على أنها.. على.. أنها أجمل شيء رأيته في حياتي، أجمل مخلوق وقعت عليه عيناي هاتين.. إنها شابة صغيرة في الثالثة و العشرين من عمرها، تلف رأسها بمنديل أبيض، وجهها أبيض جميل مثل قمر في ليلة ظلماء وسط سماء مرصعة.. مثل قطعة رائعة.. عيناها واسعتان مثل عيني غزالة.. كانت تحمل بيدها طستا صغيرا به أشياء للحلاقة، وبيدها الأخرى منشفة زرقاء نظيفة، وأزحت نفسي عن الكرسي لأفسح لها المجال فجلست نحو الشاب النائم وجعلت تمرر يدها على ذقنه، كانت تتحسس

الشعرات الصغيرة في وجهه.. يا إلهي كم كانت تفعل ذلك بطريقة فيها من الحنان ما يكفي ليوقظ ميتا، حملت الطست إلى حجرها وعالجت معجون الحلاقة في الفرشاة ثم وضعت المنشفة على صدره وحول رقبته ومررت الفرشاة على وجهه حتى غطته الرغوة.. وأخذت تحلق ذقنه بشفرة حلاقة، حتى فعل هذا كان سهلا عليها، ولست أذكر أنني رأيت حلاقا يفعل ذلك بطريقة أفضل منها.. لم تسل من وجهه المشدود قطرة دم واحدة، ولم تمضِ خمسة دقائق إلا وكان وجهه أملط لا تنبت فيه شعرة، وكانت هي تعيد الشفرة إلى الطست وترفع المنشفة إلى يدها الأخرى، حتى كأنها تركته في الخامسة والعشرين أقل من ذلك بقليل أو أكثر.. كان واضحا أنها تهتم لأمره، رفعت اللحاف فوق صدره ونظرت إليه مطولا، كانت عيناها تهتزان بغرابة، ثم غادرت الغرفة مباشرة، وكان خطئي أنني لم أتبعها، لقد ظننت أنها ستعود بعد لحظة، ربما لتجلس بجانبه وتخبره أشياء تود لو يسمعها، ذلك من جهة، ومن جهة أخرى كان جسد الشاب الطريح أمامي يشدني إليه مثلما تشد رائحة دماء الحوت الميت بقية الحيتان إليها، ولست أستطيع أن أجد كلاما أخبركم به عما كان ينشأ داخلي تجاهه.. إن قطعتي مغناطيس شُكلتا في مصنعين مختلفين لن تجد الواحدة منهما مشكلة في الانجذاب نحو الأخرى، كذلك

كنت أنجذب إليه أنا، إلى ذلك الجسد المحتضر، مع أنني لم أتعرف عليه ولم أره قبلا.."

انتهى تاكفا من آخر سطر فأعاد الأوراق إلى مراد وقال بعدها:

_ " وصفت الأمر بشكل جيد.. "

_ " حقا ؟.. "

_ " لقد أدهشني ما قرأته.. " قال (تاكفا) ذلك ودس عود النرجيلة في فمه ونفخ نفخة عظيمة:

_ " هل ستكمل؟.. "

_ " آه.. أجل، إنني.. لقد سهوت قليلا، أين هو القلم؟ .. " سأل مراد نفسه وجعل يبحث بين الأوراق حتى استخرج القلم وأحنى رأسه وانكب على الكتابة بينما (تاكفا) يملي عليه الأحداث من وقت لآخر:

راح مراد يكتب على لسان (تاكفا) ما جاء في نصه:

_" مع أنني لم أتعرف عليه ولم أره قبلا.. ومرة أخرى هممت بأن أتحسس وجهه، لكن صوتا ثاقبا انبعث من الأسفل، كان صراخ امرأة ذلك الذي انبعث.. ظننتها ستتوقف عن الصياح بعد لحظة لكنها لم تفعل، في النهاية إنك لن تسمع أحدا سليم العقل يقهقه في المستشفى.. كانت قد مرت عشر

دقائق ولا زال صراخها يوقظ المرضى، نزلت لأتفقد الأمر وكان ثمة جماعة يحيطون بامرأة تبكي وتسب وتشد شعرها.. لقد مات زوجها، كانت في الخمسين من عمرها، لكن زوجها كان قد استرجع أموال الضمان الاجتماعي التي قام بدفعها للدولة، سمعت أحد الواقفين يخبر صاحبه أن الفقيد قد تعرق إبطاه من حر الصيف خمسة وثمانين مرة، وأنها تبالغ في اعتراضها على موته، عدت إليها وكانت تلوح بسبابتها قائلة إن زوجها كان قبل ليلتين فقط لا يزال يقدر على الانحناء نحو الأرض ورفع أسنانه و إعادتها إلى فمه، لأنه كان يتمتع بصحة جيدة، وأن الأطباء قد تراخوا في مداواته أكثر مما ينبغي، فهم يتراخون دوما، ويأخذون وقتا في غسل أيديهم بالصابون أكثر من الوقت الذي يبذرونه في قتل المرضى المساكين الذين يأتون إليهم بحسن نية، ثم راحت تحلف أن زوجها لم يمت من تلقاء نفسه، وأنه قد أصيب بمرض انتفاخ الحلق مرات تفوق عدد أصابعه العشرين مجتمعة، ومرت نصف ساعة حتى بدأت تتقبل الأمر تدريجيا، وكانت قبل ذلك قد لعنت الأطباء مرورا بابن سينا، وصولا إلى أكبر طبيب في ذلك المشفى.. ثم قامت عن الأرض فشدت تنورتها إلى خصرها ومضت نحو الخارج تفرك عينيها مثل امرأة مات زوجها، وتحدث الرجلان مرة أخرى فقال أحدهما للآخر شاكيا.. ثلاثة مشايخ في شهر

واحد.. فرد الآخر.. أجل، كأن الموت أخيرا بدأ يفرق.. وتردد كلام الرجل في ذهني مثل رنين جرس الكنائس، كأن الموت بدأ يفرق.. يا إلهي! الآن فقط خطرت لي هذه الفكرة، وأنا على هذه الحالة، ألا يمكن أن يكون ذلك لأنني مت فعلا!، لكن أين جسدي؟ هل هو مازال يبرد داخل تلك المشرحة؟ أو يكون قد دفن تحت الثرى؟ سألت نفسي.. في أي موضع دفن؟ في أي حفرة؟ هل في كل مرة تقوم روحي من القبر وتأتي إلى هنا؟.. لكن لماذا إلى هنا تحديدا؟ .. هل كان هذا المستشفى هو المكان الذي لفظت فيه أنفاسي الأخيرة ؟ ثم، لماذا يا ترى أكون مت إن كنت مت حقا؟، لأي سبب؟.. هل كنت مريضا، أم كان حادث سيارة أم سقطت من مبنى عال أم أن أحدهم دس سكينة في بطني؟.. أم أنني عطست روحي فجأة دونما سبب؟ حقا إني لا أذكر شيئا أبعد من المشرحة.. كنت قد جلست على مقعد الانتظار أمخض هذه الأسئلة في دماغي عندما جلست إلى جانبي فتاة صغيرة، كانت أصغر من أن تصل قدماها إلى أرض القاعة عندما جلست على المقعد، كانت ذات شعر أشقر جميل جدا، مثل شعر دمية باربي، تعانق قطتها الصغيرة إلى صدرها، كانت ثيابها متسخة وتسعل بشدة.. "

وما كاد (تاكفا) يقول ذلك حتى انتفضت هديل من شرودها في النار ومدت عنقها بعينين واسعتين قائلة بدهشة:

_ " هل كنت هناك عندما جئت مع أخي مراد إلى المستشفى؟ "

_ " أجل، كنت بجانبك، ولم تكوني تستطيعين رؤيتي، لكنني كنت قريبا جدا منك.. كنت تسعلين بشدة، راقبتك بحسرة، قبل أن يناديك مراد لتراك الطبيبة.. "

_ " إيه.. "

_ " ثم.. سأكمل، ثم ناداها رجل كان يقف عند فتاة الاستقبال يتحدث إليها، كان أنت يا مراد، فقفزت الصغيرة عن المقعد وذهبت لتمسك يده فأخذها نحو مكتب الطبيبة مباشرة واختفيا في الداخل، كان واضحا أنها مصابة ببرد حاد جدا، إنها كانت تسعل بصوت معذب، خرجت بعد ذلك من القاعة نحو الخارج، لم أكن قد حددت مكانا معينا لأذهب إليه، كان يهمني فقط أن أخرج من تلك القاعة التي كانت تشبه حظيرة فيها أنثى واحدة وخمسين ذكرا من الديكة الرومية، إن المرضى كانوا لا يتوقفون عن الاندفاع من الخارج وفي كل فوج يدلف كانت أصواتهم المختلطة تعلو ضعفا آخر، ولم أكن شخصا يحب أن تثقب طبلة أذنه الشبحية، حتى إن فتاة الاستقبال ضاقت بهم ذرعا

وأغلقت الشباك الزجاجي على نفسها غير مبالية بردود أفعالهم وبوابل الشتائم التي طالتها، كان ذلك قبل ثانيتين فقط من خروجي من القاعة.. جلست في الحديقة لنصف ساعة.. مجددا مرت من أمامي ممرضتان صغيرتان سمعت إحداهما تخبر الأخرى أنها قطعا ستموت جوعا لو تأخرت عن الغداء لربع ثانية أخرى، كانت الساعة في معصم الفتاة تشير إلى الثانية عشر، لقد استطعت أن ألقي نظرة سريعة لما كانتا تمران أمامي.. وبالمصادفة، من الحديقة كنت أستطيع أن أرى أحدهم يمشي نحو موقف السيارات، ومن كان يا ترى.. الدكتور نفسه بصلعته ومشيته الآلية، كان يحمل حقيبته في يده يحث الخطا نحو سيارته، وكان يتبعه الرجل الآخر من خلفه، أعني ذلك الذي رأيته يدس الإبرة في محفظته في دورة المراحيض، كان مرتاعا مثل المرة الماضية وكان يتبع الطبيب كأنه كلبه، ولم أدرِ لحظتها كيف خطرت ببالي تلك الفكرة، أنني ما إن رأيتهما يدلفان إلى السيارة حتى وثبت من مكاني ورحت أركض، ووقفت على الطريق بين جدار الموقف وجدار الحديقة أنتظر وصولهما، وكان ملخص فكرتي أن أتبعهما قدر ما أستطيع وأن أقتطع مسافة أخرى من طريق سيرهما، ورأيتهما يمران أمامي، كانت نافذة السيارة مغلقة لكنني استطعت أن أتبين وجهيهما، إن الدكتور

كان يصرخ في وجه الرجل مثلما يصرخ راع في كلبه الذي أكل الدجاجة، واضح أن الدكتور كان على عجلة من أمره ولذلك ركض بسيارته بعيدا عن المشفى بسرعة كبيرة، لم أستطع أن أركض لأبعد من ثلاثين مترا حتى فقدتهما، كانا قد التفتا عبر الشارع جهة اليسار بزاوية قائمة مثل انكسار غصن يابس، ولما لم أقم باختراق المباني وتتبعهما مسافة أخرى لأن ذلك أمر ما كنت لأفخر بتذكره.. يبقى أنني حددت زاوية الشارع كنقطة جديدة لأنطلق منها في تتبع السيارة إن حدث وعدت إلى هناك في اليوم التالي، لا أدري لمَ صممت على تتبعهما ذلك التصميم كله لكنني شعرت بما لم أقدر على تجاهله بأنهما يخفيان سرا عظيما، ينبغي على معرفته.. وركبتني عاصفة من حيرة، لماذا يخفي الرجل حقنة في محفظته ثم يغسل وجهه مرتاعا وبعد ذلك يركب خائفا ذليلا مع دكتور غاضب قد خرج لتوه من غرفة حفظ الموتى؟ ماذا يمكن أن يجمع بينهما، ثم.. مرة أخرى لا أدري كيف انتبهت لهذا.. تلك العين الميتة، أعني العجوز، أعني عين العجوز الميت، ذلك العجوز الذي رأيته يرقد ميتا في غرفة حفظ الجثث بينما يفحصه الدكتور، ألا يقولون إن الميت إذا أغلق أحدهم عينيه فإنهما لا تنفتحان بعد ذلك! كذلك

أليس إن فتح أحدهم عينه، أليس من الغريب، بل من العجيب أن تغلق لوحدها عندما يرفع يده عنها!! "

وقاطعه مراد مؤكدا:

_ " أجل، إنك قلت هذا قبلا.. بالفعل، إنه لأمر يدعو للشك والحيرة.. والآن أقر أنك أخذت كل اهتمامي.. فيما يخص الدكتور جمال، أرجوك أكمل.."

وعاد (تاكفا) على الأثر:

_" كنت أقول أنى فكرت في العودة لغرفة حفظ الجثث لكنني لم أكن أعرف مكانها، إن للمشفى مداخل ومخارج لا تحصى، ولم تطن في رأسي أية فكرة.. ولما لم أجد حيلة لأمري بينما أقف هناك أحدق في النوافذ فقد جرجرت ساقاي أتمشى في المدينة في غير اتجاه محدد، و رحت أتنقل هنا وهناك في انتظار أن يهطل الظلام فوق رأسي مجددا وعندما قدرت أن الوقت حوالي التاسعة ليلا فقد كنت أقف وسط تلك الساحة مجددا، كان المكان خاليا والصمت يدب فيه كأن الناس موتى، ولم يكن الطفل يجلس فوق النافورة هذه المرة، وجلست على نفس المقعد الذي كنت قد جلست فيه سابقا ورحت أقلب بعض الأفكار في رأسي، حتى سمعت جرجرة محرك سيارة وهو يقترب

شيئا فشيئا إلى أن ظهرت من طريق مظلم بعينيها المشعتين ومرت ببيت العجوز، ركن الراكب سيارته ثم نزل منها وأغلق الباب بقوة حتى كاد يخلعه عن مكانه "

وهنا ضحك مراد بشدة، هز كتفيه بابتسامة عريضة، وقال بعدها:

ـ" ماذا أفعل؟ ليس بيدي حيلة، إن الباب لن يبقى في مكانه إن أنا ربت على ظهر السيارة"

ـ " على أية حال" غمغم (تاكفا): " يجب عليك أن تتخلص منها بسرعة، و إلا فسوف تنفجر بك وأنت بداخلها إن زدت السرعة لأكثر من عشرين مترا في الساعة "

ومرة أخرى انفجر مراد ضاحكا، بينما يراقبه الصغار بدهشة، حتى لقد ضحك ملئ فيه .

ـ " صدقني يا (تاكفا) عندما أقول لك أنها سيارة قوية، وسآخذك معي بها في رحلة طويلة يوما ما وسوف تعتذر إليها.. ذلك أنك تخطئ كثيرا في حقها.. تذكر هذا.. "

ـ " ههhe.. ولماذا أركب سيارة أستطيع الركض أسرع منها؟ "

_ " لأن.. لا أدري، ربما لأنك لن تسمح لصديقك بأن يموت لوحده في سيارة متفجرة! "

_ " واصل هكذا وسوف تقنعني بسهولة.. المهم.. كان الذي خرج من السيارة هو نفس الشخص الذي سبق ورأيته يخرج من غرفة ذلك المريض في المستشفى، ركل العجلة الأمامية ثم مشى إلى صندوق السيارة فبحث قليلا بداخله ثم دلف عبر الباب الخارجي حاملا معه حاجيات للمنزل .. "

_ " وتبعته أنت مباشرة" كذلك قاطعه هشام فجأة: " هاه.. قل الحقيقة ألم تتبعه إلى الداخل؟ "

فنظر إليه (تاكفا) طويلا دون أن ينبس ببنت شفه، فيما عينا مراد تتقلبان بين وجهيهما وهو يكاد ينفجر ضاحكا، لكن أحدهم شق ذلك الصمت قائلا: كانت الصغيرة هديل عندما راحت تعاتب هشام على فعلته.

_" وأنت ألا تتوقف عن فعل هذا؟ إن تصرفاتك سيئة.. في كل مرة تقاطع حديث من هم أكبر منك كثيرا، وبطريقة ليست لطيفة.. " كذلك ندت هذه الكلمات من بين شفتي هديل الصغيرتين، و إن كادت لتحمل عصا خشبية من أمامها فتطرحها على رأسه، ذلك أن عينيها البريئتين كانت تنظران إليه بغضب.

ـ " إيه يا أميرتي الصغيرة.. وأنت أيضا يحق لك أن تنتقدي تصرفاتي، في الأصل لم يبقَ إلا أنت من لم تفعلي هذا.. " ثم إن هشام غمغم بهذا وقام عن مكانه وذهب يقف عند الفتحة في الجدار يطل نحو الخارج.

وهنا نظر (تاكفا) إلى مراد نظرة استفهام، فأومأ له مراد بأنه سوف يفهمه الأمر لاحقا، وأن ليس عليه أن يقلق لذلك، وأنه يستطيع أن يعود لطرح حكايته، فهشام وقف هناك ولم ينزل الأدراج كي يتمكن من سماع باقي الحكاية؟

ـ " في تلك اللحظة قمت من مكاني ومشيت نحو المنزل.. "

وما كاد (تاكفا) يقول ذلك حتى ندت عن هشام ربع ضحكة:

ـ " هأ هأ.. "

كان هذا كل ما خرج من فمه، بينما يدس يديه في جيبي بنطاله ناظرا نحو الخارج، حيث تقف أشجار الكاليتوس تعانق بعضها وسط الظلمة، لكن (تاكفا) كان قد توقع من هشام أن يفعل هذا، فلم يأخذ وقتا كثيرا في ردة فعله الصامتة، بل سرعان ما عاد يقول على الأثر:

ـ" عندما عبرت الجدار ووقفت وسط ساحة المنزل كان الرجل لا يزال واقفا يطرق باب العجوز الذي كان يبدو أنه لم يسمع أياً من تلك الضربات التي

كانت قبضة الرجل تحدثها على بابه، وعندما طال به الأمر قرر أن يدخل بنفسه، أدار مقبض الباب ودلف إلى الداخل حاملا أكياس الحاجيات في يده، وكنت أسير خلفه أتبعه كظله.. آه، لاحظت أنه راح يمشي في الرواق كأن له عهدا بخبايا المنزل، لقد توجه إلى غرفة العجوز مباشرة، وكان العجوز مستلقيا في فراشه في غرفة المعيشة يحدق في نار الموقد عندما وقف الرجل على رأسه، فحملته الدهشة لأن يحمل ساقيه الضعيفتين من فوق السرير إلى أرضية الغرفة حيث استوى قاعدا وراح يعتذر إلى الرجل بينما يرتكز بقبضتيه على فراشه بعنق محنية، آه لكم هو لطيف ذلك العجوز المسكين.. إنك لن تقابل في حياتك الكثير من الأشخاص الذين قد تروح بهم لطافتهم إلى الحد الذي يجعلهم يستيقظون من نومهم فيجدون أشخاصا لم يكونوا قد فتحوا لهم الباب يقفون عند رؤوسهم فيعتذرون منهم لأنهم لم يسمعوا طرقاتهم.. "

_ " ذلك أن العم يوسف يعد أطيب شخص في هذه المدينة.." قاطعه مراد " حتى يقولون أنه لم يؤذ أحدا خلال فترة إقامته هنا، وبالمثل فلن تجد أحدا قد يفكر في أذيته، حتى اللصوص ومهما بلغت بهم حقارتهم فإنهم لن يفكروا في سرقة بيته الفارغ.. "

ـ" لكن لماذا تقول هذا.. أليس العم يوسف من هذه المدينة.."

ـ " لا ليس من هنا، إن العم يوسف ليس من هذه المدينة يا هديل.. ولا حتى من هذا البلد.. "

ـ " ما قصدك؟ " سأله (تاكفا) هذا.

ـ " أنا متأكد أنك سوف تتذكر هذا لاحقا يا (تاكفا) بما أنك تسترجع ذاكرتك شيئا فشيئا.. لكن العم يوسف ليس من هذا البلد، ليس عربيا، بل مولودا في أوروبا، لا أدري أين تحديدا، ولا أحد في المدينة يعلم.. ، ولا أحد يعلم عنه أكثر من هذا، هو شخص يحب فتح مواضيع قصيرة، أعني أنه يأنس بالأشخاص الذين لا يطرحون الكثير من الأسئلة.. ومن ذا قد يحب أن يتدخل الآخرون في شؤونه الخاصة!"

ـ " صح يا مراد.. على أية حال، اعتذر العجوز من الرجل على أنه لم يسمع طرقاته على الباب مذكرا إياه كما أن أذناه لم تعودا مثلما كانتا في السابق.. ولذلك فقد ابتسم الرجل.. دعوني أقول مراد أحسن.. ابتسم مراد ودس كيسا بين ساقي العجوز وجلس على السرير بجانبه يسأله عن حاله، فرد عليه العجوز.. "

وهنا توقف (تاكفا) عن الكلام مرة أخرى وراحت عيناه تتبعان تحركات (تاز) الغريبة، و الذي كان في تلك اللحظات يتحرك على قوائمه الأربعة خلف ظهر مراد يطارد شيئا ما بحذر بالغ، وما إن التفت مراد خلفه وكذلك كل العيون الأخرى وتسلطت عليه حتى وجدوه يخرج أم أربع وأربعين من تحت شقف إناء خزفي فيرفعها بين إصبعيه عاليا فوق عينيه يحدق فيها بغرابة كأنه موشك على ابتلاعها حية، فإذا بهشام يصيح فيه بقوة:

_" تاز.. "

وكانت تلك صيحة شديدة جعلت (تاز) يجفل في مكانه، ثم إنه رمى الحشرة بعد ذلك بعيدا عبر النافذة الفارغة نحو الأسفل وجعل يمد ذراعيه خلف ظهره وينظر إلى هشام نظرة اعتذار كطفل توسخت يديه بالتراب، وما هي لحظات إلا وعاد كل إلا مكانه، أما (تاز) فأخذ جلسة القرفصاء بجانب هديل وأرخى أذنيه يسمع الحكاية.

تلك الحكاية التي كان (تاكفا) يقول فيها:

_" رد العجوز على مراد قائلا بعدما تفقد الكيس الذي وضعه بين ساقيه، أنا بخير وعلى أحسن ما يرام، ثم سأله بدوره .. وماذا بشأن صاحبك، إنك لم تحدثني عنه منذ فترة.. فرد مراد.. ليس هنالك من شيء جديد غير الذي تعرفه،

أربعة وسبعون يوما مرت، ولا يزال في غيبوبته.. ولم يضيفا على ذلك شيئا، ظلا صامتين يحدقان في أرضية الغرفة.. "

ـ" أخبرتك أنه لا يحب من يتحدث كثيرا.. حتى لو كان الأمر يتطلب ذلك "

ـ" قام مراد عن السرير ومشى يغادر الغرفة.. بيد أن العجوز استوقفه فجأة.. قال من خلفه، بارك الله في مالك، وهنا التفت مراد إليه وقال وعلى شفتيه نصف ابتسامة.. أي منهما؟، فرد العجوز بعد أن فكر قليلا.. الذي هو أحق وأقدر على ذلك، فقال مراد " آمين " وغادر مباشرة بعدما زادت ابتسامته أكثر، وصعدت خلفه نحو الطابق الأعلى، وما إن هم بفتح باب شقته حتى وجدت نفسي أوشك أن أختفي عن المكان مجددا، أو أن يختفي المكان عني، لا أدري.. فقد اختفى مراد من أمامي، واختفى المبنى، واختفت المدينة أيضا واختفت السماء التي فوقنا، وأظلمت عيناي فجأة، وعدت أسمع رنينا خافتا يدق دقات متقطعة، وبدأت مصاريع نافذة بيضاء تتشكل وسط الظلام أمامي، ثم غبت عن الوعي تماما، وعندما أفقت مجددا كنت أقف حيث كنت قبل ذلك، كنت لا أزال أمام باب الشقة، لكنها كانت مغلقة، ومراد لم يكن موجودا.. كأن الزمن تغير.. عبرت الباب نحو الداخل تلقائيا، كأن يدا خفية

كانت تدفعني خلف ظهري، ووجدتني أقف في الرواق لوحدي، وكان حذاء مراد موجودا، ورحت أتفقد الغرف الواحدة تلوى الأخرى، ولم يكن فيها من شيء يذكر، حتى وقفت أمام باب الغرفة الأخيرة، كانت مغلقة، حقا لم أكن متأكدا من أنني كنت لا أزال في نفس الليلة، أعني عندما أظلم كل شيء وعاد، لم أدرِ هل مرت خمس دقائق أم عشرون أم ثمان وأربعون ساعة، لكنني نظرت إلى آخر الرواق حيث كان حذاء الشاب متروكا هناك فقدرت أنه حتما بداخل الغرفة، ولذلك عبرت الباب وأصبحت خلفها ونظرت فإذا بالشاب جالس على أريكة واسعة يطالع كتابا، في الجهة المقابلة خزانة واسعة تمتلئ رفوفها بالكثير من الكتب، وهممت بالاقتراب منه لأتفقد صفحات الكتاب الذي بين يديه فإذا بي فجأة .. "

وصفق (تاكفا) بيديه فوق الجمرات الملتهبة:

_ " بووم.. أغرق في ظلامي ... "

وانتظر الجميع منه أن يكمل حديثه، لكن (تاكفا) هز رأسه هزة عنيفة وعاد يقول بينما يضع راحتيه على ركبتيه وقد بدا عليه أنه يصارع ألم رأسه:

_ " أظن هذا يكفي لهذه الليلة.. " وقام واقفا.

فقال مراد من جانبه: " أجل ، معك حق ، لقد سهرنا بما يكفي ... أظنها الواحدة ! .. "

فقال أحد التوأمين موجها حديثه إلى (تاكفا):

_ " نحن لا نفهم ما تقوله، لكننا نحب ما تقوله "

فنطق الثاني بدوره ناظرا إلى شقيقه:

_ " تقصد أننا نحب ما يقوله، مع أننا لا نفهم ما يقوله.. أليس كذلك يا حسن؟ "

_" أنت تعيد ما أقوله.. "

_ " لا يا حسن ، أنا فقط أقول الأمر بطريقة مختلفة "

_ " ولماذا تفعل هذا.."

_ " لأن طريقة كلامك قد لا تفهمها الآنسة الصغيرة.. "

_ " وما بها طريقة كلامي؟ .. "

_ " إنك تتحدث مثل العمة نسرين عندما تغضب.. "

_ " لا تشبهني بتلك المرأة!!.. "

_ " لكنك تشبهها ... ولا تنظر إلي هكذا، أنا لست مرآتك حتى تنظر إلي هكذا.."

_ " أتدري شيئا؟"

_ " لا، أخبرني.. "

_ " لا بد أنك النسخة السيئة مني، أنا متأكد من هذا.. "

وهنا انقض حسين على شقيقه حسن وأمسكه من رأسه و أطاحه أرضا: " تعال إلى هنا، سأريك من هو النسخة السيئة يا وجه البومة.. "

كل هذا بينما (تاز) غارق في الضحك عليهما، فيما هديل قد تفتحت شفتاها في ابتسامة لطيفة، وكذلك (تاكفا) ومراد أيضا، أما هشام فلم يزل متخشبا عند فتحة الجدار يطالع السماء كأنما يراقب انشقاق القمر، بعد لحظات كان اللقاء قد انتهى وانصرف كل في سبيله ككل مرة.

عندما غلف الظلام سماء المدينة في اليوم التالي وحطت أزواج الطيور على أعشاشها، ومالت النبتة والنبتة إلى جوار بعضهما، وفرت كل ذات ناب لغارها، وعلق كل تاجر مئزره، وأسدلت كل أم ستائر دارها، تربعت هديل على فرشة صغيرة وأسندت خديها على راحتي يديها ومالت تستمع وكذا الأخرون بجانبها.

وأما (تاكفا) ففي طرق ذاكرته كان منشغلا، و إنه مضى يقول بعدما تهيأ له ما أراد قوله.

ـ " عند موقف السيارات أفقت مجددا، كان الوقت صباحا، ومشيت مباشرة نحو المستشفى، وكانت قاعة الانتظار تعج بالمرضى الذين لا يتوقفون عن التواجد هناك في كل مرة، كأنهم يأتون للعمل.. تجاوزتهم لأصل إلى السلم قاصدا الطابق الأعلى، وبينما كدت أنهى درجاته فإذ بالدكتور يظهر أمامي نازلا نحو الأسفل يتبعه ممرضان شابان خلفه، وكان الدكتور وهو يهبط هبوطه الثقيل يمد إحدى يديه بداخل قفازه الأبيض، ولذلك فقد التفت خلفهم عائدا وقد تركت فكرة البحث عن تلك الممرضة الجميلة وعن رؤية مريضها أيضا، فأنا لم أدخل المستشفى إلا لهذين الأمرين فقط، و إلا فإن فكرة المشي وراء ذلك الدكتور ذي النظرات الغريبة عبر رواق فارغ وقوفا عند باب أبيض واسع كان أمرا تلقائيا.. دفع الدكتور.. ماذا سميته يا مراد؟ "

ـ " الحكيم جمال.. "

ـ " جمال.. ودفع الحكيم جمال الباب وسرت أنا والممرضان من خلفه خطوات قليلة حتى واجهتنا ثلاجات الموتى مباشرة، وهناك وقف الحكيم قليلا يحدق في إحدى الثلاجات ثم هتف بصوت آلي.. رقم أربعة.. واندفع الشابان نحو الرف رقم أربعة وجعلا يخرجان صندوقا به جثة باردة وحملاها

حتى وضعاها على ظهر الطاولة المملوءة بأدوات التشريح في وسط الغرفة وتراجعا خطوتين إلى الخلف بشكل مهذب، وتقدم هو نحو الميت وجعل يقف عند رأسه يتأمله بنظرات ثابتة، ثم هتف مجددا.. هيا يا بنياي أخرجا من الغرفة وانتظرا في الخارج.. نظر الشابان إلى بعظهما نظرات حيرة، وكرر الحكيم كلامه .. انتظرا في الخارج قليلا.. وبذلك فقد تأكد الشابان مما ظنا أنهما سمعاه في البداية فتتابعا نحو الخارج، وفهمت من نظراتهما لما طلب منهما الخروج في أول مرة أنهما سيقيمان الأمر فيما بينهما ولذلك فقد تبعتهما بسرعة على أمل أن أفهم شيئا راودني، وكان ظني صحيحا فلقد سأل أحدهما الآخر: ألم يكن يفترض أن الحكيم كونه معلمنا أن يسمح لنا بالوقوف بجانبه ورؤية طريقته في العمل !! .. فرد عليه الثاني قائلا: الحكيم جمال لابد أنه يعرف ماذا يفعل، وأنه ربما بينما هو في الداخل لوحده سوف يقوم بالأشياء التي تجعله مميزا عن الآخرين في عمله، وإذا كان الأمر كذلك فإنه ليس بالأمر الحسن أن يدخل عليه الواحد ويفسد عليه خلوته، إن خلوة الحكيم جمال مع موتاه بالنسبة إليه شيء مقدس، هكذا أخبروني عندما أتيت إلى هنا، وها أنا أخبرك بهذا كوني أقدم منك في هذا المستشفى بستة أشهر.. أمر غريب حقا.. أجل، أتذكر تلك السيدة التي أحدث بكاؤها ضجة في قاعة

الانتظار في اليوم السابق؟ هل تلك التي كانت تقول أن زوجها كان في صحة جيدة، وأننا نحن الذين قتلناه.. أجل، إن هذا العجوز الميت زوجها... المسكينة.. هكذا تحدثا فيما بينهما.

تركتهما وعدت إلى الداخل، ولما وقفت بجانب العجوز الميت فقد كان الحكيم على الجهة الأخرى من الطاولة يضغط براحة يده ضغطات خفيفة على بطن الجثة، ثم يصعد نحو رقبته فيضع إصبعيه عليها ثم يصعد إلى عينيه فيفتحها فيمعن النظر فيها قليلا ثم يتركها، ورأيته بعد ذلك يعمد إلى أداة حادة رفعها من بين كمشة من الأدوات الأخرى الموضوعة بجانب رأس الميت وأخذ يتفحصها على ضوء المصباح المعلق، وعندما ظننت أنه سيقوم بفتح بطن الجثة فقد وجدت نفسي كأنما بدأت أنمحي مجددا، ورأيتني أختفي شيئا فشيئا كسحابة دخان تتلاشى، ثم حدث لي شيء عجيب لم يكن قد حدث معي قبلا. شعرت أن ريحا قوية راحت تنفذ عبري وتجرني معها خارج الغرفة، حتى لقد جرجرتني معها لآخر الرواق عند باب مغلقة، وكانت تسحبني على مواضع متقطعة، فكأنني جني يظهر ويختفي من نقطة لنقطة، كنت أختفي ويحوطني الظلام بين كل موضع وآخر، وعندما وجدت نفسي أقف أمام باب الرواق وقد هدأت الريح أخيرا، أو ذلك ما ظننته أنا.. فإذ بها

تأتي مجددا فتقذف بي في دوامة سوداء لا أدري من أين ظهرت. الأمر مثل الحلم تماما، أن تنتقل من مكان لآخر، من موضع لموضع، ومن مشهد لمشهد دون أن تستغرب الأمر ولا أن تتساءل عن ذلك.. كأن لك به عهدا. ثم لا شيء بعدها، غبت عن الوعي مجددا حتى أفقت في حديقة المستشفى واقفا أمام حفنة ورود تنبعث جذورها من تربة مبللة، نظرت وكان هنالك رجل يجر خرطوما إلى جهة أخرى حيث ألقى به وتركه يسيل بحرية، جلست على المقعد العريض أتأمل الرجل وهو ينسق الورود في انتظار أن يملأ ماء الخرطوم الحفر التي حول جذوعها، واسترسلت أفكر فيما حدث وفيما يحدث، و في الأشخاص الذين أعرفهم.. وكان أولهم ذلك الرجل الذي رأيته في الحمام أول ما أفقت، ثم الحكيم جمال.. ولما كنت رأيتهما يتشاجران في السيارة فلم يغب عن ذهني أنه تجمعهما علاقة غريبة، ثم تلك الفتاة الجميلة التي تتنقل في المستشفى كالشبح بزيها الأبيض بين المرضى، ثم ذلك الشاب الطريح في تلك الغرفة، والشاب الآخر الذي رأيته يخرج من غرفته، والعجوز الذي دخلت بيته مرات عدة، آه وكي لا أنسى ... الصبيان الصغار الذين كانوا يتصرفون بغرابة في ساحة المدينة في تلك الليلة.. وهكذا، وأشخاص آخرون، وأشياء أخرى، استرجعت ما استطعت.. وأظن أنني بقيت

على تلك الحال قرابة الساعة، حتى لمحت شيئا كان علي أن أقوم عن مكاني بعد رؤيته، إنني لمحت الحكيم جمال وهو يندفع من مدخل المستشفى نحو موقف السيارات هائجا، كأن ترك خلفه جثة أحدهم ممددة على سرير العمليات بعدما فشل في علاجها، فكرت أن هذا ما قد يدفع دكتورا عارفا بعمله وذا سمعة في وسطه ليخرج مرتديا مئزر العمل مع وجه يكسوه الغضب، وجبهة حمراء مضرجة، ولم يكن لدي وقت لأضيعه فقد كان الحكيم يخطو نحو الموقف بسرعة.

رحت أركض مثل بغلة خلفها قطيع نحل يطاردها، عبرت عدة شوارع والتففت حول بعض المنازل حتى وصلت إلى ذلك المنعطف الذي كنت حددته سابقا، وكان قريبا من طرف المدينة، فبعد أن تتبعت السيارة مرتين إلى مكانين مختلفين ها أنا ذا، وقفت أنتظر وصول السيارة عند المنعطف، لكنها ظهرت بعد ثلاثين ثانية فقط من وقوفي هناك مع أنني اختصرت مسافة طويلة بقطعي كل تلك الأزقة والشوارع، ذلك أن الدكتور جمال كان في عجلة من أمره وكان يقود السيارة بشكل جنوني جدا، أذكر أنني رأيت ملامح وجهه الحمراء وهو يمر أمامي، مليء بالغضب... ركضت خلفه قليلا ثم توقفت، السيارة اختفت، لكنني استطعت أن أحدد مساره تقريبا، ذلك أن

الطريق الذي سلكه كان لا تتداخل معه سوى أزقة بعضها ضيق لا يؤدي إلى أي مخرج، ثم وجدت نفسي أقف في عرض الطريق على حدود المدينة، تحت لائحة المدخل أنظر إلى الخلاء حيث تختفي الطريق بعد أقل من كيلو متر واحد بين التلال الخفيضة، وكان هذا ما أثبت شكوكي، أن الحكيم لا بد أنه يخفي سرا.. و إلا فكيف له أن يترك عمله دون أن ينزع المئزر من عليه ويركض بسيارته خارج المدينة بتلك الطريقة؟"

_ " انتظر لحظة يا (تاكفا)، هل كان الرجل الآخر برفقته ؟ "

_ " لا، كان لوحده ..."

_ " حسنا.. ثم ماذا "

_ " ثم لا شيء، استدرت نحو المدخل ونظرت طويلا.. سألت نفسي ما الشيء الذي يمكن لشبح أن يفعله في هذه المدينة الكبيرة ليقضي به وقته؟ أوه بالتأكيد لا شيء، لا شيء سوى السير عبثا ورؤية الناس وهم يتحركون كالبهائم.. "

_ " أجل، كل الناس بهائم، وأنت الإنسان الوحيد بينهم !!.. "

ونظر (تاكفا) إلى هشام بعمق للحظة، ثم بلل شفتيه وراح يقول بينما يشابك يديه بين ركبتيه وقد أمال رأسه نحو الأمام قليلا :

ـ " صدقني يا هشام ، إنك تستطيع أن ترى.. لا أقول كل بشر هذا البلد، بل ناس هذه المدينة، ذلك أنني لم أتجول كثيرا.. خارجها و إنك سواء إذا كنت شخصا خفيا تقدر على التجوال هنا وهناك دون أن يلاحظك أحد أو كنت مرئيا يلاحظك أي أحد فسوف تقدر أن ترى.. سوف تقدر أن ترى كم أن ناس هذا المدينة - ما عدا المشردين منهم - سيبدون في تصرفاتهم مشابهين جدا للبهائم ...الكبار ينطحون بعضهم لأسباب تافهة، قد تكون بسبب لعبة الدومينو أو ندرة الحليب في المحلات أو خلاف بين جارين بسبب سلة المهملات المشتركة.. والشباب منهم من يتناول حبوب الدواء مثل العلف صباح مساء، لا أقصد حبوب الدواء التي تشفي أمراضهم بل تلك التي تذوب وتذهب عقولهم، يتراشقون السباب تحت شرفات منازل بعضهم البعض كأنهم ينشدون تهاليل دينية، وأيضا يبقون على أنفسهم في غرفهم حتى وقت متأخر من الصباح، وأما النسوة فلا يفعلن شيئا سوى الأكل والولادة.. والجميع يتجولون في شوارع متسخة قذرة، و إذ كان كل هذا فلابد لهم أن يشبهوا البهائم أكثر مما يشبهون أنفسهم.. "

ـ " كلنا نعرف هذا.. إننا جميعا ولدنا هنا.. ليست مدينة يرغب الناس في الهجرة إليها كما أحسب.. "

ـ " إذن أنت توافقني؟ "

ـ " أنا لست بهيمة.. "

وانتفض (تاز) جالسا القرفصاء، قال بعدها:

ـ " ت..ت .. تاز لا. لا.. لا يمكن أن يكون بهيمة.. "

وسأله هشام:

ـ" لماذا يا (تاز)، لماذا لا يمكن أن تكون بهيمة؟ .. "

ـ " ل.. لا.. ليس لدي فكرة، لكنني م.. م.. م .. متأكد أن الق.. ق.. ق.. قرد أيضا سي.. سيقول هذا، إنه يبكي عندما ير.. ير.. يرمون له الطعام مثل الب.. ب. بهائم، لابد أنه يعرف ب.. بأنهم يقلل.. يقللون من شأنه، لقد رأيته ي.. ي.. يحاول أن يتحدث إلى امرأة شر.. شر ..شريرة.. ر.. ر.. رمت له العلكة عند قد.. قد .. قد.. قدميه وهي ت.. تضحك.. "

ـ " هذا يثبت وجهة نظري " قال هشام بنبرة من كسب القضية.

فغمغم (تاكفا) مستسلما: " حسنا، حسنا أنا أتراجع عن هذه الكلمة، أسحبها.. دعوني فقط أكمل ما بدأته.." ونظر إلى مراد فإذا به يكتم ضحكته، أما هديل كانت تركز سمعها، وكان التوأم مثل منحوتتين في تجانسهما جنب

بعضهما بعيونهما الناضحة، و إذ ذاك و إذ وجد الجمهور تائقا لسماع التتمة فقد هتف يقول بعد تنهديه سريعة أطلقها.

_ " ها، أين؟... عدت أتجول يمنة ويسرة، الشوارع قذرة، أسوار ملونة عليها كتابات سوداء، حركات متعبة ووجوه مكتئبة، وبينما كنت أتمشى وجدت عجوزا مجنونا ذا أسمال بالية يتحدث إلى شيطانه، على هذا الحال قضيت النهار كله، أتجول ليمر الوقت ليس إلا، وربما عدت مرتين أو ثلاثة نحو المستشفى، وربما تأملت الناس في المطاعم وهم يتناولون أفخاذ الدجاج الساخنة، فجلست هناك في الساحة أراقب رجلا ذا هندام مرتب حسن الطلعة يقلب بين يديه صفحات جريدة، أو شابا مهموما يحرق سيجارة أو أماً تجر ابنها الذي وسخ ثيابه مثل كيس قمامة وجدته ثقيلا عليها، أو حتى قطاً مفقوع العين يترصد حمامة تنظف ريشها، وهكذا.. حتى غربت الشمس وسكنت الشوارع، وبقيت جالسا لوحدي هناك في الساحة، كأنه كان لي رفقة، كنت قد غرقت في التفكير في لافتة محل كنت لمحتها في النهار قبل ذلك عندما لاح فجأة صوت مزعج من أحد الأزقة القريبة وطرد تلك الفكرة.. وذهبت إلى هناك مباشر، كان يبدو أن شجارا قد وقع، لكنه كان في أوله، رجلان يتشاجران لوحدهما، كان أحدهما نحيفا جدا وله وجه عتيق بلون التربة، ورجل ذا ذراع

يابسة مشعرة يمدها مثل كلخة ويصرخ بكلام مقطع واللعاب يتطاير من فمه وعيناه تكادان تنفلقان في مكانيهما، فيما يقف الآخر أمامه صامتا مثل الوتد يحدق فيه بغير حركة، وكان ذا بنية جيدة وأكثر منه قوة، له نظرة نعسة، وكانت تقف أمامهما حاوية قمامة خضراء تسيل العصارة من أسفلها، حين راح الرجل النحيف يصيح قائلا:

_ " البارحة كانت المرة الأخيرة التي أحذرك فيها، و إنني الآن أحذرك للمرة الأخيرة ثانيةً، و إنك لا ترغب في أن أحذرك للمرة الأخيرة مرة ثالثةً... إنني أفكر في مصلحتك ليس إلا، وعليك أن تتقي غضبي، هل أنت سامع؟ والآن خذ الحاوية عن باب بيتي وأعدها إلى مكانها.. "

وأما الرجل القوي فقد بدا وكأنه لا يحير لصاحبه، راح يقف صامدا بينما يفرقع عظام رقبته يمنة ويسرة، ثم وفي لحظة، ضرب الحاوية بظاهر يده فانقلبت على الأرض وخرج منها شيء من القمامة وتبعثر عند قدم الرجل النحيف الذي كان غيظه قد اشتد وامتلأ، ثم وبصوت ثخين به برد الليل قال بعينين تشعان صرامة.. أقصد الرجل الذي ضرب الحاوية:

_ " لن تذهب إلى أي مكان آخر.. فلا تصرخ مثل الديك الأملط، إنك بهذا ستضطرني لأن أصفعك على وجهك، وأنت رجل كبير تفوقني سنا، فهيا عد

إلى زوجتك ما دام وجهك لا يزال سليما.. وأحذرك أنك إذا أطلت الوقوف هنا والصياح بهذه الطريقة.. فإنك ربما تعود إليها فلا تعرف خلقتك، فتحسبك شخصا آخر فتراك بعينك المنتفخة وهي تنادي على زوجها مذعورة "

فعاد الرجل النحيف يقول وقد رفع ذراعه أكثر في وجه الرجل القوي بعدما تقدم نحوه بخطوة:

ـ " إنك رجل فخور بنفسك، بل فخور بذراعك هذه... لكنني أعرف جيدا كيف ينبغي أن نسوي هذا الأمر بيننا، لن أضربك، لا، هذا الخيار ليس مطروحا عندي، إنني سوف ... "

وما كاد ينهي جملته حتى هوت كف الرجل القوي سريعا على وجهه وأبعدته عن مكانه بأربع خطوات أو خمسة، ترنح نحو سور بيته كأن جنا صفعه، لكنه سريعا ما استعاد توازنه، وصار ينظر إلى اليد التي صفعته بفم معوج، وتخشبَ مثل شجرة محترقة، التفت إلى باب منزله واختفى بالداخل، ولم تمضِ أربع ثوان حتى كان يخرج من الباب مجددا، ووجد الرجل القوي يهم بالمغادرة فصاح به من الخلف صيحة قوية:

ـ " توقف هناك أيها الخنزير الأبيض الملعون الظالم، توقف حيث أستطيع رؤيتك.. "

وكان وهو يقول هذا قد خرج من بيته حاملا بندقيته ذات الفوهتين بين ذراعيه اليابستين وراح يصوبها في ظهر غريمه:

ـ " إنك لم تدع لي خيارا، هل تحسب أن ضرب الرجال بات أمر سهلا مثل ضرب شجرة؟ .. لا، أنت مخطئ، والآن استدر نحوي ببطء ولا تأت بحركة مفاجئة، هيا، أراقبك جيدا، لقد أخطأت عندما لم تضربني بحيث تنتفخ عيناي مثلما قلت سابقا.. سنرى الآن من الذي لن تتعرف عليه زوجته.. "

ولما كان الرجل القوي واقفا هناك يستمع لما يقوله الرجل النحيف ببلادة.. فقد عمد إلى تنفيذ أمره تنفيذا طيبا، وكنت أراه يستدير ببطء دون أن يأتي بأية حركة مفاجئة، وقف متخاذلا أمام البندقية ثم قال وعيناه النعستان ترتفعان بصعوبة في وجه الرجل النحيف الذي كانت ساقاه ترتعشان قليلا:

ـ " ما الذي تفعله أيها الديك المنتوف بقطعة المعدن هذه، هل تريد أن تطلق علي النار من تلك المسافة.. أراهن على أنك لن تصيبني.. انتظر.. انظر، إنني سوف أساعدك قليلا، سأقترب منك خطوتين لأقرب المسافة بيننا، هكذا، لكن لا تطلق قبل ذلك، أقسم أنك ستهدر البارود عبثا ... "

واقترب منه خطوتين كما قال حقا، بينما عينا الرجل النحيف تراقبانه بحذر.

_ " أترى! أنا هنا.. لكن تأكد من أنك ستقتلني، لأنك إن لم تفعل ذلك فسآخذ منك البندقية وأدخل فوهتها في فمك وأدفعها بعمق وأطلق عليك في الداخل... وأنت تعلم أنني أنفذ ما أقوله.. "

_ " ما الذي تقصده؟ "

_ " ألم أحذرك أنني سأضربك على وجهك ثم فعلت ذلك قبل لحظة؟ أنا رجل يفي بوعوده"

_ " اجل، أنني أرى ذلك.. " قال الرجل النحيف هذا في غفلة منه ثم سريعا ما انتبه فكشر عن أنيابه الصفراء المتسخة وضيق عيناه فوق البندقية وراح يقول بحدة:

_ "ما الذي؟ هل أنت تهزأ بي؟ ها.. قلها، قل إنك تهزأ بي.. قلها وسأشقُ رأسك لسبعين قطعة لا تشبه بعضها بحيث سيحفرون لك حفرة قريبة من هنا ويكنسون دماغك نحوها بالمجرفة لأنهم سيعجزون عن لملمة رأسك.. أقول إن قلوبهم لن تتحمل المنظر، هل تسمعني؟ لكن لابد أنك رجل معتوه لتستفز رجلا يصوب بندقيته نحو رأسك، والآن أعد هذه القمامة إلى مكانها تحت شرفة بيتك مباشرة.. هيا، تأخرت عن زوجتي بما يكفي.. "

وفي تلك اللحظة نفسها التي أنهى فيها الرجل النحيف كلامه، برز من الظلام رجل قصير راح يتقدم نحوهما بخطوات ثقيلة مترنحة، كأنما كان ينتظر دوره للدخول إلى خشبة المسرح، التفت إليه الرجلان وقد نسيا همها وجعلا يتطلعان إليه بعيون ذاهلة وقد تخشبا في مكانيهما، كان القادم شرطيا قصير القامة تغطي عينيه الحمراوان قبعته الزرقاء ويضع يديه في الحزام حول خصره بينما يتفوه بكلمات غير مفهومة كالأبله، وما إن وصل عندهما حتى وقف يشد سرواله ثم قال ببلاهة، وكان فمه وهو يقول هذه الكلمات، أقول كان فمه يتحرك مثل فم كلب أكل سما :

ـ " من الجيد.. " ثم رفع أصبعا لأعلى: " من الجيد أن أرى، بل.. من البديع أن أرى أمامي هنا فتاتين بشعتين تتراشقان الكلام في وقت متأخر، لكنني أخطئ فأقول إنكما بشعتين، إذ لابد أن تكونا جميلتين لمجرد أنكما فتاتين.. لكن هيا، فلترني إحداكما ... إنني لدي بعض المال هنا.. " ودس يده في جيب سرواله فأخرج قطعة نقود معدنية وعاد يقول على الأثر:

ـ " ليست بالشيء الكثير، لكنها تليق بوجهيكما وب **** التي سأدفع لقاء رؤيتها.. " ثم إنه ضحك مثل الحمار وراح يقترب من الرجل الضخم مادا يده إلى صدره، ولما لم يجد الأخير وقتا ليحذر الشرطي بأنه

سوف يصفعه على وجهه إن هو لم يأخذ يده بعيدا، فإنه لم يجد بدا من أن يرفع راحة يده الكبيرة ويهوي بها على وجهه الذي ومن قوة الصفعة، ترنح بعيدا عن مكانه نحو منزل الرجل النحيف فاصطدم رأسه بالجدار وهوى على الأرض مغشيا مثل دمية قطن بقيت في الزاوية، إذا كانت إحدى ركبتيه مثنية وذراعاه مفروشتان عند جنبيه فيما مالت قبعته وغطت وجهه، بقي في الظلام طريحا والرجلان قد وقف منهما النحيف مهدود الخاطر قد اهتزت معنوياته، وأما صاحب الضربة فكان ليس في الدنيا من هو أكثر فخرا منه بذراعه، فهتف الرجل النحيف غاضبا وعيناه لا تزيغان عن جسد الشرطي النائم :

_ " أيها الملعون ما الذي فعلته؟ "

_ " ما الذي فعلته؟ "

والتفت الرجل النحيف إلى الرجل صاحب الذراعين القويتين بفاه فاغر، وقد مالت فوهتي بندقيته نحو الأسفل دون أن يشعر:

_ " أظنك ضربت شرطيا لتوك!! "

_ " ماذا؟ أنا!! لم أفعل.. "

_ " كان عليك أن تتركه يتحرش بك قليلا ولا تفعل ذلك، لابد من أنك قتلته.. "

ـ " قلت لك لم أفعل، ولا تكرر مثل هذا الكلام مرة أخرى.. إنك تتهمني بشيء لم أفعله، و إلا ستجني ثمارا ذلك قبل أن يفطن الشرطي المسكين من نومه.. "

ـ " أخ، أنت تقول أنه مسكين كأنك لم تفعل له شيئا... "

سكت (تاكفا) ناظرا إلى موضع ما بين مراد وهشام حيث كان يفترض (بتاز) أن يكون جالسا فيه يسمع القصة، لكنه كان مقلوبا على جنبه نائما مثل جروة صغيرة، وتبسم (تاكفا) لمنظره تبسما فيه رأفة، و التفت الجميع إليه ففهموا لحظتها إنما ذلك إعلان عن انتهاء الجلسة، فقال من عنده :

ـ " لا أحد منا انتبه إلى أن الوقت قد تأخر، لكن (تاز) يعرف جيدا كيف يقضي حياته، إنه يتصرف دون أن يستشير أحدا.. "

ـ " أجل، إنه كذلك.. " أجابه هشام واقفا.

ـ " المسكين (تاز)، ألن يمرض إذا بقي ينام هكذا؟ " وكانت هديل بقولها هذا قد بدت كأنها الوحيدة التي اكترثت لأمره، ذلك أن رد التوأمين كان تواليا كالتالي:

ـ " تاز لا يمرض أبدا، لقد تناول رطل ثلج مرة فمرضت أنا وحسن لمجرد أننا استمرينا بمشاهدته وهو يفعل ذلك "

ـ " هذا صحيح.." ورد حسن بدوره: " وأنا رأيته يسبح في البحيرة مرات عدة دون أن ينزع ملابسه، ثم يتركها تجف على جسده من تلقاء نفسها، يمكن للبحيرة أن تمرض لكن (تاز) لا يصيبه أي شيء.. "

وانفلت الجميع ضاحكين على كلام حسن، ثم إن الرجلين ودعا الصغار بعد أن وعدوهم بإتمام القصة غدا، واستبق أحدهما درجات السلم فيما أمسك الآخر بيد الصغيرة وتبعه من خلفه.

التفت هشام إلى التوأمين قائلا قبل أن يتوجه إلى مكانه المعتاد ليراقب الظلام في الخارج:

ـ " فليجلب أحدكما إزارا أو بطانية، غطيا (تاز).. لا تتركاه هكذا"

وتنفيذا لأمره.. اختفى حسن خلف الباب سريعا وعاد يحمل إزارا صغيرا بين يديه ألقاه فوق (تاز) وتراجع إلى مكانه بجانب شقيقه وقال وعيناه تعكسان لمعان الجمر عند قدميهما:

ـ " حسين.. "

ـ " اه.. "

ـ " في رأيك ما الذي سيحدث بعدها؟ "

ـ " عن أي شيء تتحدث؟ "

_ " عن القصة التي يرويها (تاكفا)، ما الذي سيحدث للشرطي المسكين، وما الذي سيفعله الرجلان بعد ذل "

_ " ليست مجرد قصة يا حسن، بل حقيقة.. لكن أتريد رأيي؟ "

_" أخبرني"

_ " بشأن الشرطي فلا أدري، لكن أظن أن الرجل صاحب الكف السحرية سيقف شامخا ويصيح في وجه الرجل الضعيف قائلا.. انظر، أنت تتهمني بأنني ضربت الشرطي فقتلته، لكنني سأخبرك بدوري ما الذي حدث هنا.. بل سأذهب لأبعد من ذلك، سوف أصرخ عاليا حتى يخرج الناس من بيوتهم وسأخبرهم أنني خرجت من منزلي قبل لحظة فرأيت.. رأيت الشرطي مقتولا أمام جدار بيت هذا الجار السيء، ورأيته يقف أمام جثته حاملا بندقيته تحت إبطه بدم بارد.. أظنه سيكذب وينكر علاقته بالأمر بهذه الطريقة "

_ "أحقا!! "

_ " أجل.. "

_ " ولكن الناس هنا ليسوا أغبياء كثيرا يا أخي.."

_ " ولماذا تقول هذا؟ "

ـ " ألست تريد أن تقول أن الرجل الذي ضرب الشرطي يريد أن يجعل صاحب البندقية هو القاتل! "

ـ " هذا ما قلته.. "

ـ " جيد يا أخي، لكن هنالك مشكلة واحدة.. "

ـ " حقا!، وما هي؟ "

ـ " أظن أنه يجب أن يكون هنالك ثقب في موضع ما من جسد الشرطي، في صدره أو في وجهه، و إلا فإن قصتك ستكون غير موثوقة ... أعني قصة الرجل، وسيكتشف الناس بسهولة أنه يكذب.. "

ـ " صح إنك على حق، لأول مرة منذ رأيتك.. دعنا ننتظر إذن ما سيقوله (تاكفا) غدا.. أشعر أني سأموت من النعاس، هيا فلنجلب الفراش إلى هنا وننم بجانب (تاز) حتى لا يبرد.. "

في غرفة الكتابة، حيث كانت كتب كثيرة مكدسة على الرفوف المغبرة، وحيث كان الجو باردا خلف النافذة المشرعة والظلام كالرداء يسدها، وحيث كانت رائحة الغرفة تشبه نقيع الرمان البائت، جلس (تاكفا) يدخن النرجيلة ماداً إحدى ساقيه على الأخرى وغارقا في ضبابة بيضاء تتصاعد أمام عينيه النعستين بهدوء بالغ، بينما مراد قد وضع قلمه جانبا وراح يرتب أوراقه فوق

بعضها، وما إن انتهى منها فإنه مال على الكرسي حتى فرقعت عظام ظهره، ثم عاد برأسه وأنشأ يقول كأنما يحدث نفسه:

ـ" في ماذا تفكر"

ـ " أشعر أنه ينبغي علي أن أرحل إلى مكان لا أعرفه.. "

ونظر إليه مراد قليلا ثم غمس وجهه في الورقة التي بين يديه وكتب شيئا عليها، واستتلى (تاكفا) قائلا:

ـ " إلى مكان بعيد جدا " وكانت عيناه ساكنتان في الفراغ وهو يقول ذلك: " حتى أبعد من أول إنسان ابتسم على هذا الكوكب.. "

ورفع مراد رأسه فنظر إلى وجه (تاكفا) لثانيتين ثم عاد إلى الورقة.

ـ " أتدري يا مراد.. يمكنني أن أختصر لك كل كتب الحب التي قرأتها في بضع كلمات باردة.. "

وظل مراد يكتب.

ـ " في بضع كلمات باردة.. فقط.. لا تنتظر أحدا أنت لست عصاه التي يتوكأ عليها.. "

ـ " أجل، إن المرء لا يجد حرجا في الصراخ إذا كان يغرق، إنك لم تكن تفكر بهذه الطريقة.. عليك أن تتريث قليلا حتى تقع عينك على فتاة جميلة

تخطف لبك وسأرى حينها إن كنت ستقول مثل هذا.. " وقال مراد هذا ويداه وعيناه لا تزالان تهتزان فوق الورقة بخفة، إذ كان يكتب كأنما يباغته الوقت في امتحان تخرج.

ـ " لا أظن ذلك... يمكنني أن أعيش بقية حياتي لوحدي، أقسم لك، وماذا علي في ذلك!! لقد قضيت نصف حياتي تقريبا مثل عمود إنارة، ويمكنني أن أقضي النصف الباقي أيضا.. ها أنا، انظر إلي، ضع القلم وأنظر إلي لحظة.. "

وكتب مراد كلمتين أنهى بهما سطرا ثم وضع القلم جانبا وجعل يحدق في صاحبه الذي كان يبدو وكأنه على وشك أن يقول كلاما مهما:

ـ " انظر، لا تنظر إلي بعينيك فقط، انظر إلي بكل شيء فيك، انظر إلي بأذنيك أيضا لأنني سأقول كلاما مهما... " وضيق عينيه بعدها وقرب وجهه: " تبا للكتب، ليس للكتب، للذين يكتبونها. لماذا، لأنهم.. ماذا يحدث عندما يكتبون كل هذه الكتب؟ إنهم يتقيؤون أفكارهم، وأين يتقيئونها؟... أجل ذلك هو، في أدمغتنا، وهذا تماما هو ما نفعله أنا وأنت الآن، إننا نتقيأ هذه القصة، كل هذا اللغط.. إن، أوه يا رأسي.. "

ثم إن مراد أخذ وقته ليرد عليه هكذا:

_ " هل شربت يا (تاكفا) ؟.. "

_ " أنا؟ لا ، أبدا.. لا أدري، لكنني أشعر أن رأسي مبلل من الداخل.. "

وقام مراد يمسكه من ذراعه:

_ " هيا، دعنا نأخذك إلى الأريكة، يمكنك أن تنام قليلا هنا بينما أنهي أنا عملي.. هيا، أجل هكذا.. "

تركه ممددا على الأريكة وعاد إلى مقعده فأخذ القلم ثم ألقى عليه نظرة سريعة وعاد يكتب، وكان مما كتبه تلك الليلة ما يلي.

كانت ليلة أخرى، وكانوا يجلسون القرفصاء حول النار الصغيرة في نفس الغرفة من نفس المبنى المهجور الذي يبدو من بعيد كعلبة كرتون قديمة مبللة، وكان التوأمان يعودان من العمل متأخرين حين التفت الجميع نحوهما، وما إن أخذا مكانيهما في الحلقة واطمئن الجميع حتى أخذ (تاكفا) يحدثهم بباقي الحكاية قائلا:

_ "كنا قد توقفنا في الليلة الماضية حيث قال صاحب البندقية لجاره، أنت تقول أنه مسكين كأنك لم تفعل له شيئا.."

وهز كل من مراد والتوأمين رؤوسهم تأكيدا لذلك:

ـ " حسنا، وما إن قال صاحب البندقية ذلك حتى رد عليه جاره وقد بان عليه أنه أصابه شيء من الخوف والغضب:

ـ " لا تتحدث كثيرا، هيا دعنا نجره بعيدا عن هنا قبل أن يلاحظنا أحدهم فنقع في مشكلة.. "

فرد عليه صاحب البندقية:

ـ " أنا لا دخل لي بهذا، ولا شأن لي بالجر.. إنني سوف أدخل بيتي، وأنت افعل ما يحلو لك"

ـ "أيها الغبي الأخرق، ألا ترى أننا إن تركناه هنا فإن المصيبة ستقع أول ما تقع على رأسك أنت أولا؟ "

ـ " لا، إنني لا أرى أي شيء مما تقوله، فأنت إنما تحاول إخافتي.. بل سأقول إنك ضربته، سأخبر الجميع بهذا، وسأبدأ بإخبار زوجتي أولا، إنني ذاهب"

وضرب الرجل الضخم وجهه بيده:

" أيها ال ... إن الرجل مطروح عند جدار بيتك، فمن سيتهم بقتله؟ هل أنا الذي يقع بيتي على بعد سبعة أمتار كاملة؟، فكر قليلا يا رأس البعير.. "

ولما كان وقع هذه الكلمات على سمع الرجل النحيف شديدا، فإنه عدل عن الذهاب ووقف يفكر قليلا، وكان ارتباك واضح يغطي حركاته حين راح يتمتم بحذر:

_" انظر، أنت لا تحاول خداعي بأي طريقة، أليس كذلك؟ إننا جاران منذ خمسين سنة، وكذلك كان والدينا، وجدينا أيضا، والآن عدني، وإلا فإذا خدعتني فإن زوجتي سوف تقتلني قبل أن تصل الشرطة لإنقاذي... إنها امرأة شديدة لا تحب أن يخدع زوجها "

_ " لا، أقسم أنني لا أفعل.. "

_ " أوه حسنا، هذا مطمئن، والآن هل تظن أننا أصبحنا صديقين بهذا؟ "

_ " لا، إنني لا أظن ذلك، هذا يدعى شراكة "

_ " شراكة؟ "

_ " أجل، شراكة، حتى ننتهي من هذه المشكلة، ثم سوف أبحث عن سبب جديد لضربك.. "

_ " فليكن، المهم أن نحل هذا الأمر دون وقوع مشكلة، والآن أخبرني ما الخطة.. "

_ " أي خطة؟ "

_ " ألم تقل أن لديك خطة؟ "

_ " لم أقل.. "

_ " اللعنة، دعنا نرسم خطة إذن.. "

_ " أنا لا أعرف بشأن الرسم شيئا، لكن أعتقد أنه لا مفر من الجر يا صديقي "

_ " الجر؟ "

_ " أجل.. "

_ " هيا نجره إذن.. "

_ " هيا.. "

_ " لكن إلى أين سنجره؟ "

_ " لا أدري، لقد جئت أنا بفكرة الجر هذه، فجِئ أنت بهذه الفكرة.. "

ونظر الرجل النحيف حوله بعينين مظلمتين ثم ثبت نظره في موضع محدد.

_ " إلى النافورة، هيا نجره نحو النافورة ثم نلقي به هناك ونهرب"

_ " لكن لماذا إلى النافورة؟ "

_ " لا أدري، ربما لأن المنازل تحيط بها، أعني أنها قريبة من جميع المنازل.. لا أدري تحديدا، لكنها تبدو المكان الأنسب.. "

ـ " أنت تعني أن النافورة هي الشيء الوحيد الذي لا تشبه جدار بيتك! "

ـ " أجل ... أعني شيئا هذا، لا، أنت تشوش أفكاري.. لكن دعنا نجره بسرعة أولا... لا يهم إلى أين .. هيا، إن زوجتي ستقتلني.."

قال الرجل النحيف وعلق بندقيته على ظهره وعمد إلى ساق الشرطي فأمسك بها تحت إبطه وكذلك فعل صاحبه بالساق الأخرى وراحا يجرانه نحو النافورة، ولم تمضِ غير دقيقة حتى كانت الساحة خالية، إلا من جسد الشرطي الملقى عند النافورة مثل كيس قمامة.

ـ " تعني أن الرجلان قد هرب كل واحد إلى بيته! "

ـ " أجل، إن الرجلان قد هرب كل واحد منهما إلى بيته، وبقيت أنا هناك أتلفت يمنة ويسرة، ثم لم أجد شيئا أفعله سوى الجلوس على المقعد وتأمل الشرطي في انتظار أن يفطن من صرعته، أو حتى في انتظار أن يغشاني الظلام مجددا، لكن انتظاري كان طويلا، مثل نوم ذلك الشرطي الأحمق، واضح أنه شرب كثيرا تلك الليلة.. وعلى تلك الحال بقيت جالسا أحدق فيه تارة وأعد النجوم تارة أخرى حتى طلع الفجر وابيضت السماء فوقنا، وخرج رجلان إلى الساحة، كان واضحا أنهما متوجهان إلى العمل، بملابسهما البسيطة، كانا يزفران في أيديهما من شدة البرد، منظر الشرطي المطروح كان

مثيرا، وقد وقفا على رأسه يحدقان إليه كما قد يحدقان إلى ثعبان مرت عليه عجلة سيارة، بتلك الشماتة نفسها، قال أحدهما بينما يشابك ذراعيه على صدره:

_ " يبدو مثل شرطي ميت.. "

_ " أجل، حتى يبدو كشرطي ميت تغوط على نفسه.. هل تشم ذلك.. "

_ " مثل رائحة الفلفل الفاسد.. "

_ " بل قل مثل رائحة الغائط البائت.. انتظر قليلا.. "

وجعل يضع مقدمة حذائه المتسخ في فم الشرطي ويحرك بين شفتيه يحاول فتحهما .

_ " ما الذي تفعله ؟ .. "

_ " اصبر.. " واستمر يفعل ذلك لنصف دقيقة، قال بعدها وهو يعيد قدمه إلى مكانها بجانب الأخرى:

_ " لديه تهيج في اللثة.. هذا تأثير الشراب كما أعتقد، لسنا متأكدين من موته.. "

_ " هيا لنذهب إذن.. "

ـ " أجل، لنذهب ... المسكين، من الأفضل له أن يواصل موته على أن يعود إلى مركز الشرطة بذلك الشيء في سرواله.. "

ثم إنهما ابتعدا بعد ذلك وغابا في الزقاق المقابل، ولازال الشرطي غائبا عن الوعي حتى ظننت أن روحه طلعت منذ فترة، لولا أنه سعل فجأة، نظر إلى السماء قليلا ثم عاد يتمدد بلا حركة، مشيت أنا بدوري بعيدا، وكانت لا تبارحني فكرة أنني قضيت الليل كله دون أن يغشاني الظلام ويأخذني بداخله، لأول مرة، وكان الوقت يقارب العاشرة صباحا كما أعتقد، عندما وصلت هناك ووقفت أمام تلك اللافتة التي كنت رأيتها في الليلة الماضية، قبل أن أسمع وأشهد الشجار الذي دار بين ذلك الجارين المثيرين للضحك، فعزمت على أن أعود لتفقدهما، تذكرت هذا فجأة بينما أتجول بغير هدف يمنة ويسرة، كانت لافتة زرقاء تعلو مدخل بناء صغير مرتب، لم يكن مجرد بناء صغير مرت، بل مكتبة، ودلفت عبر الباب المفتوحة ورحت أتجول بين الرفوف المملوءة بالكتب، الكثير من الكتب، ولا أحد يقرأ، لم يكن هنالك أحد غيري، حتى قاعة المطالعة كانت فارغة، لكنني رأيت أحدهم في النهاية، شاب ثلاثيني ذا ملامح صلبة، يرتدي ملابس أنيقة، ويحمل ورقة في يده بينما يعيد ترتيب بعض العناوين في أماكنها على أحد الرفوف العالية، قدرت أنه هو

القائم على المكتب، اقترب منه لأرى ملامحه فوجدتني أتعرف عليه بسهولة، نفس الشاب الذي رأيته في المستشفى، والذي كنت قد تطفلت عليه في منزله بعدما رأيته يتصرف مع ذلك العجوز المريض بتلك الطريقة.. مراد، كان ذلك أنت في النهاية.. "

وهنا نظر إليه مراد يحرك رأسه.

ـ " وفهمت حينها أنما هو حينما يعود إلى شقته في المساء متعبا فإنما هو يعود متعبا من رصف الكتب في أماكنها والبقاء طويلا لوحده.. شعرت فجأة ـ بعد أن اقتربت منه بما يكفي كما أعتقد ـ بشيء ما يحدث في رأسي، كان أشبه بشريط عالق انفلت فجأة وراح يدور في موضعه ليعرض مشاهد متفرقة، كان شعورا غريبا يخالطه الألم والتيه والحيرة، في رأسي، لكنه لم يدم طويلا، إذ وجدت نفسي فجأة أحاول تذكر هذا الوجه الذي يقف أمامي، ذلك أنني كنت قد رأيته يعرض على ذلك الشريط في مناطق مختلفة دون أن أتعرف على أي منها أو أن أستطيع تذكرها، يبقى أنني تيقنت فجأة من أنني أعرف ذلك الشخص معرفة صلبة، ولذلك فقد عزمت على أن ألزمه مثل ظله على أن أصل إلى إجابة، فرُحت أتبعه متناسيا سبب دخولي إلى المكتبة، جلس إلى مكتبه وفتح كتابا كان قد اختاره واسند ظهره إلى ظهر الكرسي

يطالعه، رأيته يقرأ لساعتين دون توقف، كان عنوان الكتاب.. كَلْ.. كَلِي.. لا أذكر تحديدا.. "

_ " كليلة.. كان عنوانه كليلة ودمنة.. "

_ " كليلة ودمنة، ذلك هو.. كليلة ودمنة، يتحدث عن الحيوانات وما إلى ذلك، وحينها فقط تذكرت لما دخلت المكتبة، أعني عندما أغلق مراد الكتاب وقام نحو الرفوف مجددا، وقد كان سببا غبيا على أية حال، عندما رأيت اللافتة المعلقة على المدخل تذكرت شيئا يدعى بالإسقاط النجمي أو الخروج من الجسد، لا أدري من أين جاءتني تلك الفكرة، لكن كلمة _ مكتبة _ ذكرتني بها فجأة، وما دخلت المكتبة إلا في محاولة يائسة عل الصدفة تمدني بشخص أجده يطالع كتابا يتحدث عن أمور مشابهة فأسترق منه معلومات قدر ما أقدر، من شدة اليأس الذي كنت فيه.. كما أنني كنت أعرف أن بعض الأشخاص المجانين قد حاولوا بالفعل أن يخرجوا من أجسادهم عبر تأديتهم بعض الممارسات الغريبة، وإن البعض قد روى وأكد نجاحه في ذلك، ولما لم أكن أتذكر من ماضيّ إلا ما كنت أتذكر، فإنني لم أستبعد فكرة جاءتني في رأسي مفادها أني قد أكون أحدهم، أو أكثرهم جنونا، وفكرت جديا في أنني قد قمت بتلك التجربة وغادرت جسدي بطريقة ما وتركته مطروحا

في مكان لا أقدر على تذكره، وان علي الآن إلا أن أجد الطريقة التي سوف تمكنني من أن أعود إلى جسدي، إن هذه الفكرة نمت في رأسي وتصاعدت حينها كما تتصاعد سحابة دخان نحو الأعلى، ولما لم أكن قد وجدت قبل ذلك فكرة تفسر وجودي على تلك الحالة أفضل من هذه الفكرة فإنه لم يكن هنالك من شيء ليقدر على بترها، حدث كل ذلك وأنا أسير خلف مراد أتبعه نحو الخارج، في وقت قصير جدا.. ألم أقل أني عزمت على مصاحبته مثل ظله؟ وها أنا أفعل.. رحنا نسير سويا إلى شقته، كان عليه أن يمر على ذلك العجوز أولا.. لأصدقكم القول فإنني كنت فرحا بتلك الفكرة فرحا مبهجا، وكنت أتلقف شظاياها مثلما يتلقف طفل صغير قطع الحلوى، كنا بينما ندخل فناء البيت نسمع قرعا في الداخل، العجوز يعد غداءه، وما إن رأى مراد حتى قابله بابتسامة فيها من الاعتذار ما يكفي، قال له:

_ " اه يا بني، يوم الخميس طبعا، نسيت هذا، نسيت أنك تعود من العمل منتصف النهار في هذا اليوم "

فقاطعه مراد وهو يأخذ عنه المقلاة ويضعها على النار فوق الموقد:

_ " دعني أتولى هذا يا عم يوسف، سأكسر أربع بيضات، هل تكفي.. "

ـ " تكفي يا بني، إنها تكفي.. " وجلس العجوز على كرسي ذي ظهر عال ووجه ركبتيه خارج الطاولة واضعا إحدى ذراعيه عليها:

ـ " أيظهر على صاحبك أية بشارة؟ "

ـ " لا يا عم يوسف، أو ربما.. قليلا.. قليلا فقط... "

وقام العجوز وراح يمشي نحو الثلاجة:

ـ " لا وقليلا ليستا نفس الشيء يا مراد، عليك أن تختار بينهما.. أليس ذلك الشاب هو صديقك الوحيد؟ ماذا كان اسمه؟ "

ـ " تاكفاريناس .. "

ـ " تاكفاريناس.. أجل.. "

ـ " لماذا، هل نسيت اسمه؟ "

وكان العجوز قد وقف يفكر أمام الثلاجة المفتوحة.. أخرج العجوز زيتونا وجبنا وأعاد الباب إلى مكانها :

ـ " هل يمكن أن تأخذني لرؤيته؟ "

وهنا رأيت وجه مراد يتهلل من الدهشة، ورد عليه قائلا:

ـ " اسألني إن كان بإمكاني أن لا آخذك لرؤيته.. "

ـ " إن ذاكرتي تشيخ يا ولدي، لا تنضج مثل ذاكرتك.. قد أنسى كيف أعود إلى هذا البيت في أي لحظة، وقد تدخل يوما فأجدك غريبا علي لا أعرفك.. " وإن العجوز قال ذلك ثم صفع الباب بقوة فهدأ في مكانه، وعاد يحمل الجبن والزيتون فوضعهما على المائدة وجلس ينتظر البيض أن يسلق.

بعد مرور ربع ساعة، وعندما أوشك الاثنان على إنهاء طعامهما، أفرغ مراد للعجوز ماء ليشربه ثم وضع لقمة في فمه وراح يمضغها قائلا:

ـ " لا، ليس بعد.. من الصعب جدا عليهم أن يفعلوا هذا، فلا يوجد شاهد واضح، سوى امرأة قالت بأنها رأت شبح رجل ضخم.. وأفراد الشرطة هنا لا يمسكون بمروجي الحبوب الذين يتكؤون قبالتهم على الأسوار في الشارع، ناهيك عن أن يمسكوا بـ.. "

ـ " صديقك هذا.. ألا تتوقعون أن أحدهم حاول الانتقام منه بسبب عمله؟ "

ـ " هِممم.. لا أظن، العصابة.. المروجون!! لا، لن يصل بها الأمر لمحاولة قتل شرطي لمجرد أنه أمسك بأحد أعضائها وزج به في السجن.. "

ـ " المسكين، كان الشرطي الوحيد الذي يقوم بعمله في هذه المدينة.. "

ـ " بالفعل.. "

_ " وقد حاولوا قتله، لقد كانت سقطة مميتة.. "

_ " سقطة مميتة.. "

حسنا، بعد هذا غادر العجوز بيته برفقة مراد متوجهين لزيارة هذا الشرطي المسكين الذي كانا يدعوانه (تاكفا)، ولما كنت أنا قد زرته سابقا فإني لم أرغب في تتبعها لأبعد من مدخل المستشفى، بقيت واقفا هناك في انتظارهما لنصف ساعة، عندما ظهر الحكيم جمال يدخل بسيارته إلى الموقف فجأة، أسرعت نحوه، أو نحوهما، لم يكن لوحده، كان برفقة ذلك الرجل، كالعادة.. رجل المراحيض نفسه... كانا يتشاجران مجددا، والحكيم يصيح في وجه الرجل:

_ " لا، لا تتهرب من مسؤولياتك، أنت تحاول الانسلال من هذا العمل، لكننا بدأناه ومعا وسننهيه معا... لن أسمح لك بالتراجع مهما كان الخطر، اسمع هذا مني، أقول لو أنني سمعت منك مثل هذه الأعذار مجددا فإنني سوف أجعلك تساهم في هذا العمل بطريقة مختلفة، طريقة أكثر فائدة.. وأعرف أنك تفهمني.. "

و إن وجه الرجل قد تبدل بعد هذا الكلام فجأة، ومال إلى السواد قليلا، فنزع حزام الأمان من على صدره وراح يرد عليه بتعقل:

ـ " انظر يا سيد جمال، وعدتك بأنني سأقدم خدماتي في سبيل تلك النتيجة التي نطمح إليها في حدود ما أستطيع فقط، أي في مجال عملي، وقد فعلت ذلك مرات عدة بحيث لا تقدر على تذكرها.. مخاطرا بسمعتي، بلقمتي، بكل شيء أملكه! "

ـ " إن ما تريد الحصول عليه يقتضي كل هذا.. "

ـ " أنك لا تفهمني يا سيد جمال، بتاتا، لا تفهمني، إن عملي يقتضي علي أن أرتدي بذلة سوداء نظيفة، لا أن أغدر بالناس وأغدو مجرما، أنا لا شأن لي بضرب ال.. "

لكن الدكتور قاطعه وسد له فتحة فمه بيده:

ـ " اصمت يا غبي، اصمت.. هذا يكفي، اغضب بالقدر الذي تريده، لكن تذكر أنك معي في هذا، أنت رهن إشارتي، و إذا أخبرتك أن تتبول في سروالك الآن فستفعل.. لا أكثر.. " و إنه قال هذا بصرامة بالغة، بشفتين مضمومتان وعينان واسعتان جدا، ومخيفتين مثل عيني بومة، وهو ينظر في صاحبه، ونزل بعدها تاركا صاحبه يلطم صدره بحسرة، أما وقد غاب في الداخل فإن صاحبه راح ينحب وينشج:

_ " اللعنة علي لأنني عرفتك، اللعنة علي لأنني عرفتك.. " ونزل بعدها وغادر الموقف، واستدرت أنا فلمحت الزائرين يعودان نحوي، تحديدا نحو سيارة ال 505 المهترئة.

مع حلول الليل، وفي ساعة أحسبها التاسعة، كان ثمة مشرد يطوف حول النافورة يتمتم بكلام مبهم، كان إذا أتم دورتين فإنه يجلس على حافة النافورة فيعد أصابع يده ثم يأخذ يضحك حتى يكاد يموت من الضحك، و إذا مر أحد بجانبه فإنه يخبئ يديه في صدره ويحدق فيه بنظرة مخيفة، كأنما يخاف أن يخطف أصابعه، كان قد مر علي منذ جلست هناك في المكان الذي اعتدته نصف ساعة أشاهد العرض المجاني لذلك الأهبل، عندما واتتني تلك الفكرة، كومضة، كشرارة، كشيء، لا أدري.. كشيء اشتعل من العدم والتهب في الرأس.

مراد، حفظت اسمه لأنني سمعت العجوز يناديه به، كانت الفكرة كالآتي.. أليس لمراد صديق وحيد يرقد في المشفى وهو في غيبوبة منذ مدة، وأولم يقل العجوز أنه قد سقط سقطة مميتة ثم أمنه مراد على ذلك؟ إيه، و كنت عندما أقف قرب باب تلك الغرفة أشعر بأحاسيس غريبة، بأن شيئا ما يجذبني نحوها، و عندما نظرت إلى مراد عن قرب في المكتبة، شعرت بأني أعرفه،

ورأيت وجهه عدة مرات في الشريط الذي مر أمام عيناي فجأة؟ إن كل ذلك طاش في رأسي فجأة، فلم أفكر كثيرا، وانطلقت أركض في جوف الليل كالسهم البارد، ذلك أنني كنت أبحث عن أصغر إجابة، وعن أصغر دليل يمكن أن يقودني لمعرفة من أكون وما الذي يحدث لي، هذا ما لمع في ذهني.. أقول أنني فكرت في أن ذلك الجسد المطروح في المشفى، إنما هو جسدي.. لا أكثر.. إذ ما الذي يمنع من أن أكون قد تعرضت لحادث أرقدني على الفراش، وطرد شيئا من روحي خارج جسدي هكذا، بطريقة ما، بأي طريقة كانت، لم يكن يهمني، ما الذي يمنع من ذلك؟ كنت أسأل نفسي بينما كنت أركض.. سمعت عن أناس قالوا أنهم كانوا يستطيعون رؤية الأطباء عندما كانوا يجرون لهم عمليات جراحية، هكذا من أعلى، قالوا أن أرواحهم كانت تحلق مثل الطيور فوق رؤوس الأطباء لفترة، وأنهم كانوا يستطيعون سماع كلامهم، ومن يدري .. فلعل حالتي متطورة، بشكل ما، إنني ما دمت لم أجد خيارا جيدا فإنني سأتبع هذا الخيار السيء بكل الأفكار السيئة التي تدعمه، قلت.. كان المهم بالنسبة لي هو ألا أبقى في الوسط هكذا، بلا جانب، أوليس إن وجدت ذيل الأفعى فسوف تجد رأسها؟ ذلك ما ظننته وصدقته عندما واتتني هذه الفكرة التي سقطت على رأسي كما يسقط حافر

الحصان على رأس نملة، لقد كسرت حيرتي.. صدقت أنني وجدت ذيل الأفعى، ولم يكن بمقدوري أن أظن أو أن أصدق بشيء غير هذا.

انطلقت أركض في اتجاه واحد، لم أكن أبطئ لأغير اتجاهي عندما يعترض طريقي جدار ما، أو سور أحدهم، سيارة مركونة، أو حاوية قمامة، كنت أركض مباشرة نحو المستشفى، مخترقا كل شيء يقف في طريق، وقد دخلت العديد من البيوت وخرجت منها دون أن أترك أثرا، أو يراني أحد، أو أرى أحدا، حتى من كنت أقابلهم في الطريق لم أكن ألتفت إلى وجوههم، شيء واحد كان يملأ فكري.. المستشفى، ثم المستشفى.. عندما وصلت إلى هناك أذكر أنني توقفت عن المدخل أنظر لأعلى، لم يصبني أي تعب، من إيجابيات أن تكون شبحا، توقفت أنظر لإحدى النوافذ في الأعلى، ودلفت إلى الداخل ، كان في ردهة الاستقبال ثلاثة أشخاص أو أربعة، لا أذكر تحديدا، توجهت إلى درجات السلم مباشرة، وعندما وقفت في ذلك الرواق فقد كان ثمة ما يحدث في قلبي، عاد ينتابني شعور بأن شيئا ما يجذبني إلى تلك الغرفة، وأدركت حينها أنه لم يعد بمقدوري تجاهله أكثر من ذلك، كان الرواق شبه مظلم لأن المصابيح كانت تتذبذب، وهذا كان يشبه تماما ما يحدث في أفلام الرعب المخيفة عندما يحاولون إخبارك أن شبحا يتجول بقرب الممثل، هكذا ترتبك المصابيح

وتصبح غير ثابتة، لكنني ظننت أن ذلك بسبب عطل في القاطع، رحت اقترب شيئا فشيئا، اخترقت الباب مندفعا إلى الداخل، وبهدوء بالغ جلست على الكرسي قرب المريض ورحت أتأمله... كان الأمر من الغرابة بحيث لا يمكن وصفه، لا أدري... كنت أستطيع أن أجزم أن ذلك جسدي إن سألني أحدهم، مع أنني لم أكن متأكدا من ذلك، وعندما مددت يدي لأتلمس ذلك الوجه، فجأة، بووم.. حدث مجددا، غبت عن الوعي مرة أخرى، تلاشيت في الظلام واختفيت، وكانت المرة المقبلة التي سأفيق فيها، كانت مختلفة، ذلك أنني أفقت ولم أكن شبحا، لم أفق كليا إنما أفاق سمعي، كنت أستطيع سماع الطبيب وهو يتحدث إلى الممرضة، وكذلك سمعت صوت مراد مرتين أو ثلاثة، وهكذا... كنت أعرف أني عدت إلى جسدي، كان سمعي يفيق بين وقت وآخر، لكن في إحدى المرات فتحت عيني بمقدار فتحة أبرة ثم أغلقتها، ولم يتعطل سمعي بعد ذلك، كنت أستطيع سماع الخطوات في كل مرة، ثم بدأت أشعر بيد الممرضة عندما تفرغ حقنتها في ذراعي، وفي إحدى المرات بعدما أفقت من النوم مباشرة كنت أستطيع سماع رنين الجهاز عند رأسي، ثم سماع الطبيب وهو يخبر مراد بأنه من الممكن أن أستيقظ في أي لحظة، تماما كما أنه من الممكن أن لا أستيقظ أبدا، ذلك يعتمد على مشيئة الله وحده...

ومضت أيام أخرى كما أعتقد، حتى جاء ذلك اليوم، كان الوقت فجرا، وأنا فتحت عيناي فجأة، ولما كان وجهي نحو سقف الغرفة فإن ضوء المصباح تساقط في عيني مباشرة، ووجدت نفسي أشعر بعطش قاتل، لكن الضوء أشغلني، في البداية كان يبدو مثل نجمة تلمع في فضاء هائل، ثم راح يكبر شيئا فشيئا، كان المصباح من ذلك النوع الطويل الذي لا تمل من النظر إليه أبدا، أذكر أنني بقيت أحدق فيه لوقت طويل جدا، كان الأمر أشبه بأن يرفع أحدهم حجارة القبر عنك فترى السحاب الأبيض يتحرك هناك في الأعلى، صدقوني عندما أقول لكم أنني لم أمل من ذلك المنظر أبدا، وهكذا... وسوف أختصر الباقي في كلمات قليلة ... ظللت أحدق في السقف متجمدا حتى طلعت الشمس وكثرت الخطوات في الرواق خلف باب الغرفة، ثم ظهرت الممرضة، كانت فرحتها عظيمة، تماثل دهشتها، ثم رأيتها تركض لتخبر الطبيب بذلك، وفي المساء جاء مراد أيضا، عانقني بشدة وقبل جبيني، حتى أنه بكى قليلا، لكنني لم أستطع التحدث إليه أبدا لأن أقصى ما كنت أقدر على فعله كان تحريك عيناي وبعضا من أصابع يدي، والتنفس أيضا، وفي اليوم التالي جاء ذلك العجوز الأعرج، العم يوسف.. "

وهنا ضحك (تاكفا) وعيناه تتلألآن دمعا:

ـ" المسكين، ارتدى أفضل الملابس التي يملكها، جاكيت رمادية وبنطلون أزرق حالك، كأنه يحظر جنازة... المهم، مرت الأيام ثقيلة كأنها صخور ضخمة تدفع على صدري، حتى جاء اليوم الذي أخرجت فيه ساقاي من السرير ووضعتهما على أرضية الغرفة، كان يوما عدت فيه من العالم الآخر، لكن بذاكرة ناقصة... ولما كنت قد اعتدت على زيارات مراد المتكررة، فإنه ظل يحدثني عن نفسي ويذكرني بأشياء فقدتها، في بعض الأحيان كنت أخبره بأن رأسي يؤلمني فكان يصمت بعدها ويقول بأنه سيعود في اليوم التالي، وكان يعود حقا، وبعد مرور بضعة أسابيع فإنه لم يعد بإمكاني أن لا أصدقه عندما يخبرني أنه صديقي، وأن اسمي (تاكفاريناس) وأنني من مدينة أخرى، وأن ليس لي أم ولا أب ولا أخ ولا زوجة.. وأنني شرطي سابق.. أعرف كم كان صعبا عليه أن يخبرني بذلك، لكنه وجد الطريقة المناسبة، كان في كل يوم يخبرني بأشياء جديدة، فأحفظها وألصقها بأشيائي الأخرى حتى استعدت ما يكفي من ذاكرتي "

صمت (تاكفا) فجأة، بينما يحدق فيه الآخرون بانتباه وصمت، ثم يقول بعدها لما تذكر ما أراد قوله:

ـ " في ذلك اليوم الذي نزلنا فيه إلى الحديقة وجلسنا على المقعد نحدق إلى إكليل الجبل، سألني مراد إن كنت قد تذكرت أي شيء مما حدث، فأخبرته أن لا، وأنني لم أكن أثناء غيبوبتي التي كانوا يرونها، لم أكن غائبا عن الوعي بقدر ما كانوا يتخيلونه، إنما كنت واعيا بشكل بارع، وموجود، وأنني رأيت الكثير من الأشياء الغريبة والتي أرغب في الحديث عنها، وعندما أعطيته ملخصا عما حدث معي، فقد طلب مني أن أتريث قليلا، لأن لديه أصدقاء سيرغبون في سماع قصتي، وهم يعرفون المدينة جيدا، وقد يساعدونني في معرفة ما جرى إن أنا قصصت عليهم ما رأيته، وانتظرنا بعد ذلك حتى شفيت تماما واستعدت عافيتي ، وها نحن هنا .. أنتم الأصدقاء الذين حدثني عنكم.. "

ـ " أجل، وها نحن هنا ..." تدخل مراد يهتف:" حمدا لله على سلامتك، والآن هل لدى أحدكم أية أسئلة؟ "

ونظر في عيون الصغار فلم يكن منهم من رفع يده، يبقى أن هديل حركت رأسها يمنة ويسرة، وكذلك فعل التوأم، وأما (تاز) فكان نائما على ظهره، فيما لم يرفع هشام ناظريه عن الجمرات الملتهبة.

_ " جيد.. إليكم الآن ما سنفعله، سوف نتوحد جميعا للبحث عن جد هديل، وسوف نتعب في ذلك، هذا أولا، ثانيا.. إننا سوف نعمل على حل لغز الحكيم جمال وصاحبه، بما أننا متأكدون من أنهما يخفيان شيئا يخافان أن يطلع الناس عليه، وشيء آخر ... من الذي حاول التخلص من (تاكفا) عبر تلك الحادثة، سنعمل على حل هذا أيضا... "

هديل نطقت فجأة:

_ " هل حاولوا قتلك يا عم (تاكفا)؟ "

قالت ذلك بصوت رقيق جدا، ثخين.. وبعينين تشبهان عيني أرنبة جميلة .

_ " ذلك ما حدث يا صغيرتي.. " رد (تاكفا) باسما: " هل سوف تساعدينني في البحث عنهم؟ "قالها (تاكفا) مازحا، وعلى حسن نية، فكان أن ردت عليه هديل وهي تضم شفتيها الصغيرتين وقد تملكها حزن بالغ:

_ " أتمنى ذلك يا سيد (تاكفا)، لكنني أبحث عن جدي أيضا.. ولا أعرف أين أجده.. "

ـ " هل فقدت جدك يا صغيرتي؟ أين.. " وكان (تاكفا) قد قال هذا ناسيا ما قاله مراد عن جد هديل قبل ذلك، و إنه لم يكد يسألها عن جدها حتى لمح مراد وهو يشير إليه كي يتوقف، وتدارك الأمر بسرعة:

ـ " أعدك أننا سوف نبحث عن جدك يا هديل، وسوف نتعاون جميعنا على هذا.. "

فقالت هديل وهي تخبئ وجهها، وكانت عبرات دافئة تسيل على خدها:

ـ " أتمنى ذلك يا عم (تاكفا)، اشتقت إليه كثيرا.. أتمنى أن يكون بخير.. "

وهنا سارع مراد يلفها بذراعه، وضمها إليه حتى هدأت شهقاتها، وكان التوأمان في تلك اللحظة يتجادلان بينهما، كان يضع أحدهما فمه عند أذن الآخر يخبره:

ـ " هل تعرف ما الذي يعنيه هذا؟ "

ـ " بالطبع لا، لكنني سأعرف إن أخبرتني.."

ـ: " نحن سوف نعمل كمحققين يا أخي.. "

ـ " لم أفهم.. "

ـ " أترى رجال الشرطة؟ "

_ " ماذا بهم.. "

_ " هنالك نوع آخر من رجال الشرطة.. "

_ " كيف هذا.. من؟ "

_ " لأكون صريحا معك فأنا لا أعرف الكثير لأقوله، لكن أعرف أنه لا يمكن رؤيتهم.. "

_ " حقا!! "

_ " لأنهم من النوع الراقي، ونحن سوف نعمل مثلهم، سوف نصبح رجال شرطة من النوع الراقي... "

_ " وكيف تعرف هذا يا حسين؟ "

_ " أعرف لأنني في إحدى المرات سمعت السيد (خوني) يتحدث عنهم، كان يقول أنه رآهم يتجسسون عليه من وقت لآخر.. "

_ " ألم تقل أنه لا يمكن رؤيتهم؟ "

_ " أجل، قلت هذا، لكن السيد (خوني) يستطيع رؤيتهم لأنه يملك الكثير من النقود يا أخي، الذين يملكون الكثير من النقود هم فقط من يستطيعون رؤيتهم.. "

ـ " حسنا، سنصبح رجال شرطة من النوع الراقي الذين لا يمكن للفقراء مثلنا أن يروهم، لكن لماذا نفعل ذلك يا أخي؟ "

ـ " ما الذي يفترض بنا أن نفعله عندما نصبح رجال شرطة من النوع الراقي؟ أنت تحاول أن تسألني هذا!! في الحقيقة لا أدري ذلك بعد، حسب المهمات التي سوف توجه إلينا، سوف ننتظر ما يقوله مراد أولا.. "

كان هشام يسمع حديثهما، لكنه لم يقل شيئا، لقد كان مشغولا بالتفكير في أشياء أخرى، ربما أشياء تتعلق بالعمل.

***

عند فتحة الجدار الكبيرة، قال مراد ناظرا في وجه (تاكفا) عن جانب، وكان (تاكفا) منشغلا بالتحديق في أشجار الكاليتوس المتمايلة، قال مراد بصوت منخفض، وعلى ذلك النسق جرى حوارهما:

ـ " تتساءل بشأن هديل، أليس كذلك؟ "

حرك (تاكفا) رأسه.. ومضغ مراد شفتيه، قال بعدها:

ـ " حسنا، جاء إلي هشام بها منذ أربعة أشهر.. " وألقى نحوها نظرة خاطفة: " قال أنه وجدها تبكي لوحدها في زقاق مظلم، كانت جائعة وباردة، وتسعل، الوقت ليلا ، أخبرتني بعد ذلك أن جدها قد أوصلها إلى مدرستها في الصباح الباكر، لكنه لم يعد لاصطحابها في المساء ككل مرة.. انتظرته طويلا ولم يعد، وحتى عندما عادت إلى البيت وحدها فإنه لم يكن موجودا، وكان الباب مغلقة... "

ـ " هي قالت هذا؟ "

ـ " هي قالت هذا.. لم تعرف أين تذهب.. طلبت منها أن تبيت عندي تلك الليلة، ومنذ ذلك اليوم لم ترَ جدها.. "

ـ " هل ذهبت إلى الشرطة؟ "

ـ " ذهبت، وأخبروني أنهم سيبذلون قصارى جهدهم، لكنهم لم يبحثوا عنه بعد ذلك أبدا.. يبقى أن الطفلة اعتادت على البقاء معي، تماما كما اعتادت على سماعي وأنا أخبرها أن جدها لابد أنه سوف يعود يوما ما، كل ليلة.. "

وصمتنا قليلا.

ـ " كم عمرها؟ "

ـ " تسع سنوات لا أكثر.. "

ثم إنهما لاذا للصمت بعد ذلك مرة أخرى، تأمل خلالها (تاكفا) الصغار بنظرات فيها من الشفقة:

_ " ذلك الولد.. "

ورد مراد:

_ " من تقصد.. آه، هشام، ما به؟ "

_ " يختلف عنهم.. "

_ " كثيرا.. هو قائدهم، أو قل هو من يعتني بهم منذ.. "

_ " منذ ماذا؟ "

_ " منذ لم يعد هنالك من يعتني به! .."

_ " يعني.. "

وأطلق مراد تنهيدة طويلة، ضخ فيها شيئا من هواء الليل البارد وزفره ثانية، و اتكأ على الجدار بظهره بعد ذلك، شابك ذراعيه عند صدره:

_ " إن مشكلته ليست معك أنت عندما يتحدث إليك هكذا، هو لا يحب أفراد الشرطة.. "

_ " ألم أكن شرطيا ؟!! .. "

ـ " قلت أن مشكلته ليست معك، كل ما في الأمر أنه لا يثق فيك بعد، وسوف ترى كيف سيتغير عندما تتعرفان على بعضكما بما يكفي، صدقني عندما أقول لك أنه أجمل طفل قد تقابله.. "

ـ " أخبرني إذن ما قصته.. "

ـ " سأخبرك.. لكن عدني ألا تتحدث في هذا الأمر قبل أن آذن، لأنه لا يحب سماع هذا الحديث يدور على لسان أي أحد.. أي أحد، وصدقني يا (تاكفا) عندما أقول أي أحد، لقد كاد يكسر فك أحدهم لما سمعه يذكر هذا الأمر مرة، كان رجلا بطولك تقريبا، ومع ذلك فقد كاد يكسر فكه.. فهمتني! والآن دعني أخبرك عن قصته.. والده في السجن حاليا، ولذلك تراه يتذمر من الجميع هكذا، هو يفرق بين أن يستحق المرء السجن أو لا يستحقه، بين أن يستحقه لشهرين فقط أو لست سنوات كاملة.. يقول أن ذنب والده لم يكن كبيرا، ليس بقدر الآخرين حتما، أولئك الذين لا يخرجون من جحورهم إلا ليلا، أولئك الذين ينخرون المدينة بالمخدرات بكل أنواعها، وحتى أولئك الذين يتسكعون في الشوارع وجيوبهم محشوة بالأدوية، أولئك الأقل رتبة.. في هذا السلم العفن، وهم يفعلون ذلك جهارا نهارا ولا أحد يحاسبهم، حتى أن أفراد الشرطة أنفسهم يشترون من عندهم، لا أقول كل أفراد الشرطة، لكن

الذين لا يتناولونها هم بدورهم لا يستعملون الأصفاد التي أعطيت لهم، إلا إذا كان الرجل خارج أفراد العصابة"

_ " أفراد العصابة!! "

_ " أفراد العصابة، أجل يا (تاكفا)، هذا ما قلته... تعرف.. مروجي الأدوية وغيرها.. كنت أقول أنه حتى الأفراد الفاعلين لا يقدمون الكثير لهذه المدينة، ولا يمسكون بالشخص إلا إذا كان خارج إطار العصابة.. "

_ " انتظر، هل تقول أن والد هشام لم يكن ضمن هذه العصابة؟ "

_ " لا.. "

_ " ما اسم هذا الرجل، أعني والد هشام.. "

_ " اسمه جلال، لماذا؟ "

_ " لا شيء، لكن قل لي، هل كان لي دور في ذلك؟ "

_ " ماذا تقصد، هل أنك من اعتقلته؟ لا، لا أبدا، كان ذلك قبل وصولك إلى المدينة بفترة قصيرة.."

_ " وكم هي مدة حكمه؟ "

_ " ستة.. "

_ " ستة!! "

_ " والله ستة، أجل يا (تاكفا)، وكيف لهشام ألا يغضب، والده لم يكن ضمن الشبكة، كان بلا عمل، وكان لديه ابن في العاشرة ينبغي عليه أن يطعمه، وعندما حصل على بعض الأقراص وحاول تدويرها بفائدة، فإن أحد أفراد الشرطة وجد لنفسه سببا مقنعا لينزع الأصفاد من على خصره.. هذا ما يفعله أفراد الشرطة في هذه المدينة، يسرعون لالتقاط البسطاء إن أخطؤوا، لكنهم يصابون بالعمى إن تعلق الأمر بفرد من أفراد الشبكة خوفا على حياتهم، أو عملهم، أو أولادهم ... أو أي شيء يملكونه، وهذا هو شعارهم، ليس مهما من تكون، المهم هو في أي جهة أنت، فإما أن تكون معنا أو ضدنا.. لا أكثر، وهذا هو سبب غضب هشام من كل من هم حوله.."

_ " هذا كثيرا عليه حقا.. "

_ " كثير جدا.. " وضحك مراد بعدها ضحكة خفيفة، أردف يقول بعدها بجدية: " لكنه عرف كيف يتعامل مع هذا، ذهب للعمل عند السيد (خوني).. لا تسألني عن ذلك، سأخبرك عنه لاحقا.. خرج من عنده ومعه ثلاثة أصدقاء ليس لديهم مانع في أن يجوعوا لأجله، يعروا لأجله، أو حتى يجرحوا لأجله.. لكنهم وجدوه من يجوع لأجلهم، يعرى لأجلهم ويجرح لأجلهم، لقد وجدوه مثل والدهم، سوف يعطيهم طعامه إن شعر أنه لم يكفهم طعامهم ويقول أنه

يشعر بالشبع، أو أنه تناول شيئا، سوف يعطيهم غطاءه.. وكذلك سوف يتعارك لأجلهم، سوف يطلب منهم أن يغادروا ساحة النزال وسوف يلاقيهم بعد ذلك في مخبئهم وآثار الكدمات على وجهه.. أقسم لك أنني لم أرَ طفلا مثله، هو فريد من نوعه.. "

ـ " إذا كان صحيحا ما تقوله، فليس لدي شك في أنه فريد من نوعه.. " و إن (تاكفا) قال هذا وعيناه متسمرتان في هشام يتأمله، وقد كان يضع يده على ذقنه يهرشها:

ـ " فقط أخبرني كيف تعرفت عليهم.. أريد أن أعرف هذا.. "

ونظر مراد إليهم طويلا ، كان تاز يستيقظ من نومه:

ـ " في محل الصيانة.. جاءوا يوما إلى العم يوسف.. سألوه عن عمل.. ولم يستطع ردهم.. أخبرتنا أنك رأيتهم يضعون الطعام أمام باب منزله.. مع أنهم يعملون عنده ويعطيهم أجرهم.. لكنهم يردون إليه ماله دون إحراجه.. أعماله تتناقص.. لم يعد يقدر على العمل مثل السابق.. وهم يكسبون من أعمال أخرى.. انظر إليهم جيدا، يبدون منسجمين جدا.. حسن وحسين مرحين جدا، لن تمل من سماع حديثهما.. " و إن مراد كان يقول ذلك متبسما: " ستراهما يتشاجران كل يوم تقريبا، لكنها طريقتهما التي يتحدثان بها، هما ذكيان أيضا

بقدر ما يبدوان لك غبيان من اللحظة الأولى، كما أنهما ينجزان عملهما بدقة، بحيث يدفعانك لتعطيهما أكثر من أجرهما.. "

_ " لم أفهم! "

_ " هشام و (تاز) والتوأم يعملون معا، عندما كنت خارج جسدك ألم ترى أطفالا يركضون هنا وهناك من وقت لآخر؟ أنت لم تذكر هذا، لكني أعرف أنك قابلتهم.. "

_ " بلى، رأيتهم.. "

_ " بعضهم أطفال السيد (خوني)، سأعرفك عليه غدا.. ألم تقل أنك لاحظت كيف أن سكان المدينة يحبون الركون إلى الراحة وبخلاء جدا !!، إذن في رأيك من الذي ينجز كل تلك الأعمال العالقة؟.. هم الأطفال لا غيرهم، أبناء الفقراء.. واليتامى.. طبعا مقابل دنانير قليلة.. حسن وحسين ماهرين جدا بالأعمال التي تتعلق بالطلاء وتصليح الأشياء المكسورة، هشام ماهر في كل شيء تقريبا، لكن (تاز).. انظر إليه جيدا، انتظر حتى يرمش بعينه... ها، الآن راقبه جيدا، هو لن يرمش بعينيه مرة أخرى قبل مرور دقيقتين تقريبا.. "

ومرت دقيقتان عدهما مراد على ساعة يده، ولم يكن (تاز) قد رمش بعينيه اللتين كانت تشع فيهما الجمرات ولو لمرة واحدة، لكن بعد مرور ثانيتين أخيرتين فعل ذلك، لقد أغلق عينيه طويلا.

ـ " أيبدو لك ما فعله طبيعيا؟ "

ـ " لا، طبعا لا ... هذا غريب حقا، بل يفترض به ألا يقدر على فعلها.. "

ـ " يلقبونه بابن الكلبة.. لأنه كانت تنام كلبة بجانبه عندما وجوده لأول مرة أمام باب الميتم، كان عمره لم يتجاوز الأربعة أيام أو خمسة.. لم يكن يصرخ، كان مجرد طفل وسيم يحمل ندبة حمراء فوق عينه، ساق الكلبة كان به شيء يشبه هذا، ولهذا يقولون أن الكلبة أرضعته ونامت بجانبه، وأنها ظلت تعود لتنام عند باب الميتم لأسبوع كامل ثم اختفت بعد ذلك.. وعندما يرغبون في الضحك عليه، يقولون أنها هربت لأنها يئست من استعادة ابنها.. "

ـ " هل يعايرونه الأطفال هكذا؟ "

ـ " أطفال السيد خوني، أحدهم يسبب لهم الكثير من المشاكل، وعادة ما يدخلون معه في مشاحنات عندما يلتقون في العمل.. على أية حال، (تاز) لا يكترث لكلامهم، أو ذلك ما يظهره لهم حتى لا يبدو ضعيفا أمامهم،

لكنني لا أصدق ذلك، أنا متأكد من أن كلامهم يسبب له ألما لا يحتمل، تخيل أنك لم ترَ والديك لحظة واحدة ثم تجد الناس ينادونك بابن الكلبة.. كيف يكون شعورك حيال ذلك؟ حتى لو كنت طفلا صغيرا!! لكن (تاز) يستمر بالابتسام دوما دون توقف، فقط أظهر له أنك لن تؤذيه أبدا وسوف يصبح ألطف طفل في العالم.. ثم قد يبدو لك شخصا ساذجا من الخارج، نظرا لتصرفاته الغريبة ونظراته، لكنه ذكي جدا.. هو من ذلك النوع من الأطفال الذين يفضلون إبداء آرائهم فقط عندما يعتقد أن الآخرين بحاجة إليها، و إلا فإنه لا يتحدث كثيرا، ومن رأى ليس كمن سمع، فسوف تخالطهم وتتعرف عليهم أكثر.. تأخر الوقت يا صديقي... دعنا نعد هيا... "

_ " كم هي الساعة؟ "

ونظر مراد إلى معصمه:

_" الحادية عشر وعشرون دقيقة "

_ " أتعلم.. فعلت شيئا لا أدري حقا كيف فعلته.. "

_ " ما قصدك؟ "

_ " هديل.. "

ونظر مراد إليها، وأردف (تاكفا) يقول بندم:

_ " وعدتها بأننا سوف نعثر على جدها.. وليست لدي أي فكرة عن كيف سنفعل هذا.. "

_ " عن هذا الأمر، لا أدري ما أقول حقا، لكنني بدوري وعدتها.. يبقى أننا سنعمل على إيجاده معا، هذا إن كان لا يزال حيا.. "

_ " ماذا تقصد؟ "

_ " لا أقصد أي شيء يا (تاكفا)، ما أقوله أن الأجداد إذا كانوا يتنفسون فإنهم لا يتخلون عن أحفادهم بهذه السهولة عادة.. خاصة إذا كانوا أيتاما، هذا ما أقوله.. هل نذهب؟"

هذا ولم تمضِ دقيقتان حتى كان مراد و (تاكفا) وهديل يختفون تحت جنح الظلام وسط أشجار الكاليتوس العالية، كان هشام يراقبهم من الفتحة، وحيث كانت السماء مرصعة بالنجوم اللامعة، فإنه رفع بصره إليها، تأملها عميقا بما يكفي لأن تشبع عيناه من جمالها، ثم عاد أدراجه نحو حفنة الجمرات يجلس مع أصحابه، فقال حسين بهمة:

_ " العم رشيد يدعونا إلى بيته.. "

غمغم هشام من عنده:

_ " لن نذهب إليه.. على الأقل ليس كلنا.. "

ورد حسين مستفسرا:

" حقا!! لكن لماذا؟ "

_ " لأن.. لدينا عمل آخر، اذهبا أنتما، سيبيع أثاثه مجددا أليس كذلك؟ "

_ " أجل، يريد منا أن ننقل له سرير نومه إلى غرفة الضيوف لأنها واسعة، يقول أنه لم يعد هناك من داع لكل تلك الأرائك الثمينة، فهو يعيش لوحده في البيت منذ أشهر.. "

_ " حسنا، اهتما أنتما بهذا، أنا و (تاز) لدينا عمل آخر.. العمة خديجة"

وألح حسن قائلا، وفي عينيه دهشة:

" أرجوك يا هشام، أريد أن آتي معكما أنا أيضا.. "

_ " لا يا حسن، من الأفضل أن يرافقني (تاز).. أنت تعلم أن الأمر خطير جدا، و (تاز) وحده من يستطيع أن يقدم لي المساعدة اللازمة.. "

وطأطأ حسن رأسه أسفا وحسرة، وإذ بشقيقه يبدي رأيه في الأمر أيضا:

" هذا كل ما تستحقه.. " وكان قال ذلك مازحا وبضحكة، فنكزه حسن في كتفه والحزن باد على وجهه، (تاز) غرق في الضحك والبهجة، فكأنما هو طفل صغير يداعبه والده، ونظر هشام إليهم فغلبته البسمة هو الاخر، وإن كان يندر أن يضحك.

صباح اليوم التالي، عندما كانت الشمس تشرق رويدا وتدفئ أوراق الغابة، والهواء الرشيق يرفع ريش الطيور وهي تعوم في السماء، كانت أبواب المنازل تفتح، والنوافذ تشرع، والنساء تنشر الأفرشة على الشرفات، والناس يتدفقون في الأزقة، كبذور القرنفل حين يأخذها السيل، كل شخص كان يلتصق بمكان ما، فيما يواصل الباقون انحدارهم إلى وجهات مختلفة، واستمرت الشمس تطلع أكثر، حتى إذا كان الوقت قرابة الثامنة، وقف مراد أمام باب المكتبة فأدخل المفتاح في موضعه ودفع بشقها إلى الداخل وتبعه (تاكفا) من خلفه، وخلال الساعة التالية، تعاونا في ترتيب الكتب التي وصلت حديثا وتنظيف القديمة منها، بينما يتبادلان أطراف الحديث من خلف الرفوف دون توقف، يستذكران أيامهما، حتى إذا انتهيا من ذلك جلسا إلى المكتب، رفع مراد كتابا من عليه وراح يتفحص صفحاته بينما وضع (تاكفا) ساقا فوق الأخرى وأمال رأسه وغاص يفكر، وفي لحظة ما كان أحدهم يفتح الباب ويدلف إلى الداخل، فتاة شابة، ترتدي تنورة مطرزة بأزهار البنفسج، وتربط شعرها خلف رأسها كحبة طماطم، كانت مشيتها لينة، هادئة، ورشيقة، حتى أن ظلها كان يتمايل معها لكنه لم يبقَ طويلا معها، بل إنه سريعا ما اختفى، ذلك لأن الشمس لا تنكسر لأحد، حتى لأكثر النساء فتونا.

وقفت الفتاة أمام رف تطالع الكتب بعينيها وهي تجمع يديها خلف ظهرها، وكان مراد يراقبها من خلف الكتاب الذي بين يديه بين لحظة وأخرى، كان يعرفها جيدا، وكانت هي لا تأبه لأمره، إلا بالقدر الذي قد تنتبه به إلى كتاب كتب عنوانه باللغة الهندية، وكان (تاكفا) قد نظر إليها طويلا، و إنه أوشك أن يقول شيئا عندما رآها تتحرك من مكانها فجأة، كانت قد اختارت كتابا وراحت تتوجه به نحوهما، وقفت ورفعت الكتاب في وجه مراد دون أن تقول شيئا، إنما أرته عنوان الكتاب ولم تقم بشيء أبعد من ذلك، وظل (تاكفا) يطالعها بدهشة، بينما يدون مراد عنوان الكتاب على الدفتر المخصص لذلك، ونطقت الفتاة فجأة :

_ " حياة.. " نطقت باسمها، قالت ذلك بثقة بالغة وبطريقة مثالية، مستعينة بأكثر ملامح وجهها برودة، ولم يرد مراد إنما أشار لها مستعينا برأسه ليخبرها بأن الأمر قد تم فعلا، لقد حرك رأسه لأسفل وأعلى، أي أنه يحفظ اسمها بشكل جيد، ولذلك فقد استدارت في دلال ومضت دون أن تضيف شيئا، فانطلق (تاكفا) يقول بعدها، وكان يقول ذلك وكأن أحدهم قد أفرغ دلوا مملوء بالدهشة على وجهه:

_ " كأني أعرفها! "

ورد مراد وهو يطوي الدفتر ويبعده إلى الزاوية:

_ " بالفعل أنت تعرفها.. حياة، صاحبة المطعم... "

_ " لا، لا أقصد هذا.. " قال (تاكفا) ثم التفت نحو مراد بكامل جسمه:

_" مراد.. "

_ " نعم.. " و إن مراد شعر بالهلع من نظرات (تاكفا).

_ " أنت، أنت ألم تكن ... "

_ " كنت ماذا؟ "

_ " ألم تكن متزوجا!! "

وحينها فقط .. الله وحده يدري كيف خبط قلب مراد من الداخل، كيف اصطك وتدنى.. حتى أن (تاكفا) لاحظ أن شفتيه ارتعشتا وأن عينيه تبدلتا تبدلا سريعا، وارتسمت سيماء الشجن على محياه، وطأطأ رأسه لأسفل لفترة، ولما رفعه بعد ذلك فإنه:

_ " كنت يا (تاكفا).. كنت " ... قال والدمع ينحبس في عينيه ألما.

_ " كنت، ما الذي تعنيه ب .. كنت.. قل يا مراد، ما الذي تعنيه.. هيا، قل شيئا.. "

_ " أعني أنني كنت متزوجا فيما مضى، لكن الآن لم أعد كذلك"

ونظر (تاكفا) إليه مطولا دون أن يفقه شيئا، ثم قال بعد ذلك:

_ " ما الذي حدث لزوجتك يا مراد، ماذا؟ هل تطلقتما!! "

_ " لم نجد الفرصة لذلك.. "

_ " مراااد.. " صاح (تاكفا) غاضبا.

_ " لقد ماتت.. "

_ " ماذا؟ "

_ " ماتت.. هذا ما قلته.. ماتت "

وما إن سمع (تاكفا) ذلك مرة أخرى، حتى قام يخبط على رأسه بفاه فاغر:

_ " يا إلهي يا لي من غبي، يا لي من غبي، ما أغباني... بقيت عندك في الشقة ولم أنتبه للأمر.. يا لي من.. كيف نسيت هذا.. أرجوك يا مراد، سامحني على هذا، إنني، إنني.. أرجوك سامحني. أقسم أنني.. " ثم إن عينيه دمعتا، ولم يجد بدا من أن يقفز نحو صاحبه ليعانقه، و إن المرء لو وقف هناك بينهما وقفة صغيرة، صغيرة فقط، إذن لرأى كيف لرجلين ناضجين أن يبكيا لفقد امرأة، ومضى (تاكفا) يقول من خلف كتف مراد الذي كان يزم شفتيه بحزن خانق:

ـ " لم أستطع أن أتذكر إلا الآن يا مراد، عندما رأيت هذه الفتاة فجأة، أرجوك اعذرني.. ليرحمها الله، ليرحمها الله يا أخي.. "

ـ " لا عليك يا (تاكفاريناس) هذا أمر الله، ولا مرد لأمره.. "

ثم إنهما تباعدا وعاد كل منهما نحو مجلسه وهو يمسح ما تحجر في عينيه دمع حارق.

ـ " لكن كيف، أخبرني .. "

وجمع مراد يديه إلى بعضهما في الهواء ثم أنزلهما بهدوء على سطح المكتب:

ـ " ماذا أقول لك يا (تاكفا)، أنت تعيد فتح أوجاعي ... لقد ماتت يا (تاكفا)، ماتت المرأة التي أحبها، ففي ماذا يهم كيف حدث ذلك!! "

ـ " والطفل؟ أتذكر أنها كانت حامل.. "

ـ " لم ينج هو الآخر، في الحقيقة ماتت لهذا السبب.. لم تستطع تحمل الألم.. "

ـ " اللعنة على ذلك المشفى.. "

ـ " وما دخل المشفى بذلك.. قلت لك أنه أمر الله، وأن لا مرد لأمره، لا تفكر بهذه الطريقة.. والآن دعنا نخرج من هنا، لا أحد سيأتي بعدها.. "

وما إن وضعا أقدامهما خارج المكتبة حتى وقعت عيونهما على سيارة جميلة كانت تقطع الشارع نحو الجهة الأخرى.

ـ " أردت أن ترى السيد (خوني)! ها هو أمامك يقود آلته.. "

ـ " تيقوان.." قال (تاكفا) وتتبعت عيناه السيارة حتى اختفت، وكان قد رأى بداخلها كتفين ممتلئين تبرز منهما رقبة حمراء غليظة يعلوها رأس كبير فيه عينان تعلوهما حواجب عريضة وشفتان كبيرتان وذقن متدلي مثل ثدي الماعز، وعاد يقول بينما راحا يتمشيان بعيدا عن ذلك الموضع:

ـ " إذن هذا الذي كان يعمل عنده هشام وأصحابه في السابق، هذا الذي يستغل الأطفال لجمع ثروته؟ "

ـ " هذا هو.."

في الجهة الأخرى، وعند حدود المدينة تقريبا، كانت هنالك حصى صغيرة على طريق ضيقة، الكثير من الحصى الصغيرة على طريق ضيقة، وكان هشام و (تاز) يمشان عليها، بينما خطواتهما تترك أثرا عليها، بسبب خرطوم الماء الممتد على طول السياج الخشبي و كان يرشح من أماكن عدة ويسقي الطريق و الحشائش التي نمت على جانبيها وصولا إلى باب البيت الصغير القابع هناك على بعد بضعة أمتار فقط .

كان يمشيان صامتين، هشام يختار خطواته بعناية، (تاز) خلفه ساهما كأن دماغه لم يكن في رأسه، وعندما توقف فجأة، لأنه رأى شيئا أثار اهتمامه، حتى أنه وقف ينظر إليه بفم مغلق، وكان هشام قد سبقه بخطوات عدة حينما افتقده والتفت نحوه:

_ " هاي (تاز) .. ما الذي توقفت لأجله.. "

_ " أفعى.. "

_ " ماذا؟ "

_ " أفعى.. "

_ " اتركها وشأنها.. "

_ " ظننت أننا س.. سن.. سنحتاج إليها.. "

_ " سنعود إليها لاحقا.. "

وبذلك فقد ترك (تاز) الأفعى وشأنها فانسلت بين العشب بعيدا وعاد هو يتبع صديقه ركضا.

كان بيتا صغيرا يركن في زاوية المدينة، يغطيه قرميد أحمر باهت، وعلى جواره يقف كوخ أصغر وزريبة محاطة بأسيجة خشبية، وكانت ترعى بداخل الزريبة، بقرتان بنيتان وثور أسود.. في نعاس شديد راحت البقرتان تمضغان

التبن وهما تحدقان في الزائرين القادمين نحوهما، فيما الثور يلتقط التبن من بين حافريه ويصعدا بها فيحرك رأسه يمنة ويسرة ليطرد الذباب الذي كان يتجمع فوق رأسه.. عندما اقترب هشام و (تاز) من الزريبة كفاية فإن امرأة تلف شعرها بخمار صغير رفعت رأسها من مكان ما من خلف البقرتين وأطلت نحوهما، أنزلت الدلو الذي كان بيدها عند قدميها ومشت نحو البوابة الحديدية وهي تنفض يديها على مريول ينزل على صدرها:

_ " أهلا، أهلا بكما، يا صغيري الجميلين.. تعالا إلى هنا لأقبلكما.. "

وكان هشام حينما رآها تتقدم نحوهما على تلك الشاكلة وهي ترغي ببهجة وتمد ذراعيها القويتين، كان قد دفع ب (تاز) أمامه قائلا:

_ " تقدم أنت أولا.. "

ثم شاهد المرأة وهي تلف (تاز) وتقبله فتعجن وجنتيه بشفتيها ثم ترفعه إلى صدرها المتدلي، تعانقه قليلا ثم تنزله حتى تلامس قدماه الأرض وتتركه بوجه متألم دون أن يقول شيئا، ولما كانت المرأة سعيدة جدا برؤية هشام خاصة، وكان هجومها الأول على (تاز) لم يكفها، فإنها اندفعت نحوه.. ولم يجد بدا من أن يبدي محاولته اليائسة في التملص حين راح يترجاها يائسا بينما ترفعه إلى صدرها:

ـ " انتظري يا عمة خديجة.. أرجوك انتظري، أنا مصاب بالجدري، وسوف تمرضين إذا لمستني.. أرجوك، انتظري قليلا.. لا.. "

لكن العمة خديجة كانت لا تفقه في أمور المرض هذه شيئا، ولا في أمور العدوى، وراحت تقبله وتحتضنه ما شاءت أن تفعل، وبذلك فلم يسلم هشام مما حدث لـ (تاز) الذي كان يقف تحتهما يحدق في صخرة صغيرة على جانب سياج الزريبة وسط الحشائش الخضراء المرتفعة، ولما انتهت العمة من فعلتها فإنها وضعت هشام على الأرض وهو يستعيد أنفاسه بصعوبة، وراحت تقول بينما تضع يديها على جانبي خصرها الممتلئ:

ـ " والآن بعدما انتهيت منكما، هيا اتبعاني .. فسارة في انتظاركما .. " قالت.

وبينما يمشيان خلفها يتبعانها، تحدث (تاز) إلى هشام بصوت خافت:

ـ " هشام.. "

ـ " أجل.. "

ـ " ت..تلك الصخرة.. " والتفت يشير إليها بذراعه

ـ " ما بها؟ "

ـ " أظن أنني ر. رأيت.. ت. ت. تلك الأفعى تخ.. تختبئ تحتها "

_ " لا، أنت لم ترها "

_ " لكن ك. ك. كيف تعرف ه.. هذا؟ "

_ " لا أعرف.. قلت لك سنمسك بها لاحقا، فلا تتعجل.. "

وألقى (تاز) نظرة أخيرة نحو الصخرة ثم عاد ينظر أمامه.

كانت سارة هذه بقرة صغيرة سوداء تربض على قوائمها الأربعة في الزاوية عندما تحركت صفحة الباب الخشبية وانسل ضوء النهار ليضيء جدران الكوخ حولها.

نظر هشام إليها قليلا ثم اقترب منها وأثنى ركبتيه أمام وجهها وجعل ينظر في عينيها مباشرة، فقالت العمة خديجة من خلفه:

_ " لا أدري ما بها، لكنها لم تأكل شيئا منذ البارحة.. "

ونظر هشام الى كومة التبن بجانبه وكانت لاتزال كما وضعتها المرأة، لم تنقص منها قشة واحدة:

_ " ظننتك طلبتنا لتلقيح البقرة.. "

قال وهو يمرر راحته على جبينها من أسفل لأعلى في حركات متتالية، فكانت تغمض عينيها بتثاقل ثم تأخذ يخور بصوت ضعيف واللعاب يسيل من بين شدقيها دون توقف.

ـ " لا يا صغيري.. " قالت العمة: " أريد فقط أن أعرف لمَ توقفت عن مضغ التبن هكذا فجأة ... هل ستخبرانني بهذا؟ "

وكانت تقول ذلك وهي تجمع يديها تحت صدرها بينما تتابع حركات (تاز) وهو يلتف حول الثور يتأمله بعينيه الساحرتين من كل جانب:

ـ " هشام! أخبرني، لماذا يلتف (تاز) حول الثور هكذا؟ "

و إنها طرحت سؤالها هذا لأنه لم يكن من الممكن أن لا تطرحه، إذ لو رأى الرائي كيف راح (تاز) يحوم حول سارة يتلمس جسدها بأصابعه الرقيقة مثل هندي أحمر، إذن لكان من غير الممكن له أن لا يقول مقولتها، وهكذا راح هشام يسأل (تاز) بدوره:

ـ " تاز، لماذا تلتف حول البقرة هكذا؟ "

ـ " أظن أني أعرف ما أص. أص.. أصابها.. "

ووقف هشام منتصبا وجعل يحدق في موضع من ساقها بينما كان (تاز) يبحث بأصابعها كأنما يطارد قملة، ثم قال وهو يقرب وجهه ويدقق في الموضع:

ـ " ه. ه. هنا.. "

ـ " هل هما ثقبان فقط.. "

_ " تعال وت. ت. تأكد بنفسك.. "

وانحنى هشام بجانب (تاز) يتأمل ساق البقرة الصغيرة عن قرب أكثر، حتى إذا بان له الأمر جيدا وانحلت عقدته وأوشك أن يلتفت إلى العمة ليخبرها عما حدث لبقرتها، فإذ بها تصيح من خلفهما صيحة وقفت لها سارة على قائمتيها الأربعة، وكان وقوفها هذا من الهمجية بحيث احتك رأسها بصدر هشام الذي تلقى ضربة وجد نفسه على إثرها يندفع فجأة عن مكانه بعيدا لثلاثة أمتار كاملة، وأما (تاز) فقد كان رأى حافر البقرة وهو ينزل أمام أنفه لينغرس عند قدميه على أرضية الكوخ الرطبة دون أن يصيب وجهها الصغير الأبيض، أما العمة فكانت في وضع لا تحسد عليه أبدا، إذ أن رؤيتها لشيء أفزعها كل ذلك الفزع، ثم رؤيتها للصغير وهو يقذف على تلك الشاكلة، لهو أمر قد أكسبها شعورا لا تقل شناعته عن شناعة المخاض حتما، و إذ كانت ساقاها قد تيبستا في مكانيهما لأن دماغها المهترئ ناله عطب فجائي أصابها بالشلل للحظة، و أول شيء تحرك فيها كان لسانها، فراحت تنوح بينما تنظر إلى الصغيرين دون أن تقدر على الاقتراب منهما:

_ " احمل صديقك وتعال به إلى هنا، هيا (تاز)، هل هو بخير؟ أسرع إلى صديقك هيا ... لا تنتظرا أن آتي لمساعدتكما، أنا لن آتي أبدا، فهنالك أفعى

خلفكما تنظر إلي مباشرة.. أرجوكما اهربا من هناك حالا.. " ثم هربت تركض خارج الكوخ وهي تلوح بيديها مثل جناحين على ظهر دجاجة مذبوحة، وقفت خلف إطار الباب وجعلت تطل برأسها، وكان (تاز) يقف خلف هشام يترصد الأفعى الخائفة وهي تحاول أن تخفي ذيلها تحت التبن المتناثر خلف دلو معدني مملوء بالماء حتى المنتصف:

ـ " هل أنت بخير؟ "

ـ " دعك مني... أمسك بالأفعى، واحذر أن تلدغك.. " وكان هشام قال ذلك بصوت ضعيف متألم بينما يحاول الوقوف على رجليه يرتكز على يد واحدة.

وقف (تاز) بعد ذلك خارج الكوخ وكان يحمل الأفعى في يده يمسكها من رأسها غير مكترث لما تبقى منها، تماما مثلما قد يمسك أحدنا قطعة نقود ورقية من منتصفها فيما يحدق إلى البائع، كان هو يحدق إلى العمة وهي تفحص كتف هشام بعد أن نزعت قميصه. وكان (تاز) أمسك الأفعى باستعمال لوح خشبي عثر عليه في الزاوية فحمله وثبته فوق رأسها ثم وضع يده حول رقبتها ورفعها من بين كومة التبن عاليا ثم خرج بها نحوهما، قالت العمة وهي تتأمل ظهر الصغير المتألم:

ـ " لابد أنها تؤلمك، أليس كذلك يا صغيري؟ تعالَ معي إلى الداخل لأضع لك زيتا دافئا حتى يهدأ الألم.. "

رد هشام وهو يبتعد عنها ويهم بلبس قميصه بعد ذلك:

ـ " ليس بي شيء يا عمة، فأنا بخير كما ترين.. "

ـ " آه.. أنت أدرى يا صغيري، أنت أدرى. لكنني لم أحظً بفرصة أن أكون أماً، ولذلك تراني أقلق عليك هكذا، و إلا.. " وطفرت في عينها دمعة أوشكت أن تسقط أرضا: " و إلا.. أوه، لا تكترث لما أقوله يا صغيري، إنني أعيش لوحدي منذ أربعين عاما، ولذلك تراني لا أعرف ما أقوله عندما أرى الأطفال يتألمون أمامي.. لكن... " ونظرت إلى (تاز) مرتعبة: " لكن أطلب من صديقك أن يبقى بعيدا هكذا.. إنها مسافة جيدة، وينبغي أن يحافظ عليها.. "

وأبعد (تاز) وجه الأفعى خلف ظهره وتسمر في مكانه ينظر إليها، فقام هشام من على برميل صغير كان يجلس عليه وهم بالمغادرة:

ـ " سوف تكون سارة بخير يا عمة، ليست أفعى بالغة السمية، فهنالك العديد من الثقوب في ساقها.. وهذا أمر جيد، لأن الأفعى التي ترغب في أن

تقتل بقرتك لا تترك الكثير من الثقوب، بل تترك اثنين فقط.. لذا لا تقلقي، فقط أطعميها بعض القطيفة، وستقف كالثور غدا "

_ " آووه، بالفعل إني أشكركما يا ولداي، فقد ظننت أنها ستموت حتما عندما توقفت عن الأكل فجأة.. " وكانت المرأة تقول ذلك وهي تتلفت من لحظة لأخرى نحو (تاز) الذي كان يقف على بعد عشرة أمتار منها.

_ " الأبقار لا تموت بهذه السهولة، هل رأيت بقرة تموت قبل أن يقوموا بذبحها؟ "

_ " لا يا صغيري، ولم أرهم يذبحونها أيضا.. "

_ " إذن فبالنسبة لك أنت، فالبقر لا تموت أبدا، لذا لا تتحدثي عن أشياء لم تريها.. "

_ " أووه.. بالفعل يا بني، لابد أنني فهمت ما تريد قوله.. أنت تقول أنه لا ينبغي علينا أن نتحدث عن أشياء لا نراها، لأنها لا تحدث، حتى لو كانت تحدث على الجهة الأخرى.. "

_ " أظنني قلت شيئا كهذا.. "

_ " لابد من أن تكون قد قلته.. "

ـ " جيد، جيد يا عمة ... والآن إننا على عجلة من أمرنا، هل ستدفعين لنا ثمن العمل؟ "

ـ " أووه، بالطبع سأفعل.. " ودست يدها في صدرها، بحثت قليلا ثم قالت:

ـ " هذا حقكما، وهذه لأجلك، إنك تستحقها.. "

واستلم هشام النقود عنها ومضى يعبر البوابة نحو الخارج، وكذلك تبعه (تاز) من خلفه وجسم الأفعى يتدلى من يده يجانب ساقه نحو الأسفل، وأما العمة خديجة فكانت قد وثبت نحو بقرتيها واختبأت خلفهما مخافة أن تقفز الأفعى نحوها وتغرس أسنانها الحادة في أنفها، لكنها سرعان ما انتبهت لنفسها وراحت تضرب وجهها براحتيها:

ـ " يا لي من امرأة كبيرة السن عزباء وغبية، ألم يقل ذلك الفتى أنه لا ينبغي علينا أن نفكر في أشياء لم نرها تحدث أمام أعيننا.. إذن متى رأيت أنا أفعى تقفز نحو أنف أحدهم! يا لي من امرأة عزباء غبية بالفطرة، لكنها عواقب العزوبة، تجعل المرء يفكر في أشياء مخيفة.. أنا أعرف هذا، حتى لو كان لدي سبعين طفلا فأنا أعرف أنني سأكون أغبى امرأة لديها سبعون طفلا " قالت تحدث نفسها والتفتت إلى البقرة تمسح على رقبتها وتقبل وجهها:

" أليس كذلك يا صغيري.. "

وكان هشام و (تاز) بعدما ابتعدا عن بيت العمة كفاية، لا يسمعان سوى صوت رغاء البقرتين يعلو من خلفهما فوق ضوضاء المدينة، وقال هشام بعد أن ألقى على الأفعى نظرة خاطفة :

ـ " ألم أقل لك أننا سنمسك بها في وقت لاحق! "

فرد (تاز) دون أن تكون في وجهه أي تعابير من أي نوع كانت، إنما راح يتأمل طول الأفعى بوجه بارد:

ـ " س. س. ستجلب لنا الك.. ك.. كثير من النقود، أليس. س. س. كذلك.."

ـ " أجل يا (تاز)... ستفعل، حينما يحين دورها.. " وكان (تاز) لو نظر إلى هشام حين كان يجيبه، إذن لرأى كيف أنه كان يغمض إحدى عينيه من شدة الألم، ويمسك كتفه بيده الأخرى، لكن (تاز) لم يكن في حال تسمح له بتأمل الآخرين حوله، إنما منشغلا بمراقبة الأفعى حتى لا تنسل من يده وتهرب بعيدا، وكذلك كان هشام بارعا في إخفاء أوجاعه عن أصدقائه بما لا يمكن لهم ملاحظته إلا لو لم يكن بالإمكان غير ذلك، وعلى هذا الحال مضيا يقطعان شارعا واسعا ليختفيا بداخل زقاق ضيق ويتوجها صوب البناء مباشرة.

بعد نصف ساعة، انتهى تجوال مراد و(تاكفا) عند مبنى كبير يقع وسط المدينة.. كان للمبنى مدخلان قريبان وكان يقف على جانب أحدهما كل من حسن وحسين وهما يصيحان بأعلى صوتهما خلف أثاث منزلي يحاولان بيعه، وكان الأثاث عبارة عن أريكتين جميلتين مغلفتين بجلد أخضر وطاولة خشبية لايزال الورنيش يلمع عليها، وقال مراد يسألهما:

_ " من أين جئتما بكل هذا؟ "

فرد حسين قائلا:

_ " من عند العم رشيد.. "

_ " حقا!! "

_ " أجل، طلب منا أن نساعده على التخلص منها، مقابل أن نحصل على نسبة صغيرة إن تمكنا من بيعها.. "

_ " آه، لقد فهت، أعانكما الله.. لكن أين هما هشام و (تاز)، هل لديهما عمل آخر؟ "

ورد حسن هذه المرة:

_ " ذهبا عند العمة خديجة.. "

_ " هل لكي يلقحا البقرة مجددا.. "

_ " أجل.. "

_ " أوه سوف يقتلانها قبل أن تحمل، تلك المرأة مجنونة.. "

_ " لكنها تدفع لهما نقودا.. "

وضحك مراد و (تاكفا) وحسين بدوره أيضا، ثم تمنيا للصغيرين حظا طيبا في بيع الأثاث ومضيا في طريقهما بعد ذلك، و سأل (تاكفا) مراد عن الأمر فأجابه قائلا:

_ " تلك امرأة تسكن في طرف المدينة، لوحدها.. ولديها قطيع صغير تقوم عليه مقام الرجل، وقطعة أرض تقوم بغرسها، المشكلة أن إحدى البقرتين عاقر، لا يمكن أن تحمل، لكن المرأة مصرة على تلقيحها كل أسبوع تقريبا، وهشام يعرف أن تلك البقرة لن تلد أبدا.. لكنه وكما قال حسن: "ما الذي سيمنعه من الذهاب في كل مرة إن كانت المرأة ستدفع له نقودا!! "

فرد (تاكفا) وهو يضحك:

_ " أجل، معه حق في ذلك.. "

ثم إنهما تمشيا قليلا وتوقفا بعد ذلك مرة أخرى لما التقيا هشام و تاز خلف زاوية الشارع فجأة، فقال مراد عندها:

_ " ها أنتما هنا.. "

ورد هشام بعده:

_ " وهل كنتما تبحثان عنا؟ "

_ " لا، إنما سألنا التوأمين عنكما فقالا إنكما ذهبتما لتلقيح البقرة.. "

_ " نحن نعود من المبنى.. "

_ " إذن فقد أنهيتما العمل باكرا! كما أحسب "

_ " لم يكن يتطلب وقتا.. "

وهنا ألقى (تاز) على هشام نظرة سريعة وعاد يقف كما كان قبل ذلك، عاد يقف بوجه صامت، و بذراع ممدودة، وأخرى داخل جيب سرواله.. كرجل كبير بالغ.

وكان (تاكفا) سأل عن الوقت بعد ذلك، أجابه مراد:

_ " الثانية عشر وعشر دقائق.. "

_ " هل نتناول شيئا؟ إني أتضور جوعا.. "

_ " وأنا أيضا.. "

وردد (تاز) من خلفه:

_ " لي.. ليس أكثر مني.. "

فنظر إليه هشام بنظرة لائم، لكنه رفع بصره إلى الرجلان بعد ذلك فوجدهما يشهقان من الضحك، فلم يجد بدا من أن يبتسم بدوره، وعلى ذلك دعاهما (تاكفا) إلى مطعم قريب كان لا يبعد عنهما لأكثر من عشرين مترا، إلا أن مراد أبى إلا أن يطيل بهم الطريق إلى أربعين مترا أخرى، فلم يغالبه أحد على ذلك فمشوا وهم يتبادلون الحديث حتى وقفوا على مدخل يقف وسط جدار صغير به نافذة مربعة. وكان يقف على جانب المدخل فرن به اثنتي عشرة دجاجة تدور حول نفسها في شكل أسراب حتى يحمر لونها، ويسد المدخل شرائط بها حلي خشبية تنزل من أعلى لأسفل وتصدر صوتا عندما يصطدم بها من يدخل ويخرج، أبعد مراد الشرائط بيديه وتبعه الآخران من خلفه فعادت الشرائط من خلفهم تسد المدخل كما الأول، (تاز) كان قد وقف يتأمل الدجاجات الميتة ساهما وقد تجمع اللعاب في فمه، وافتقدهم فأسرع يتبعهم إلى الداخل، وما كادوا يختارون طاولة ليجلسوا عليها حتى وقفت أمامهم حياة.

انها نادلة جميلة تعقد شعرها خلف رأسها و ترتدي تنورة مطرزة بأزهار البنفسج وينزل على صدرها مرول أبيض طويل حتى ركبتيها، وهي نفسها فتاة المكتبة، ونظر إليها (تاكفا) فوجدها توجه كلامها إلى مراد بلامبالاة بالغة،

و إذ كان مراد لا يمثل لها قبل ذلك سوى اليد التي تسجل اسمها على دفتر الجرد في المكتبة، فها هو الآن لا يمثل لها سوى زبون جائع يجب إطعامه دون قول أي كلمة ليست ضرورية في سبيل القيام بذلك .

كذلك كانت قاعة المطعم خالية إلا منهم ومن عجوز أشيب الشعر كان يقف خلف صندوق خشبي يرتفع حتى خصره وهو يعد حزمة نقود في يده بينما يلقي على الفتاة وزبائنها نظرات سريعة بين لحظة وأخرى، كان (تاز) يتأمله بشغف، كان يتأمل حزمة النقود تحديدا، فيما هشام يحدق في الطاولة شاردا، وكان بين الفينة والفينة يرفع يده إلى كتفه الأخرى دون أن ينتبه أحد لأمره، وسألت الفتاة، و إن كانت لا تبعد عينيها الجميلتين عن مراد في تلك اللحظة:

_ " ماهي طلباتكم؟ "

_ " أليس لديكم قائمة؟ " رد مراد هكذا، فنظرت إليه حياة بعمق أكثر، لفترة، ثم قالت:

_ " أنت بالخصوص، قد أتيت إلى هذا المطعم عدة مرات يفوق عدد شعرات رأسك، فلا بد أنك تعرف جيدا ما الذي يوجد في المطبخ.. وما الذي لا يوجد "

ورد مراد بدوره:

ـ " اعذريني يا سيدتي.. "

ـ " أنا لست سيدة.. "

وهنا نحنح العجوز من مكانه نحنحة عظيمة، كأن جندبا علق بحلقه، فنظرت إليه الفتاة وعادت فتنهدت، أغمضت عينيها وقالت وهي تكبح جماح نفسها:

ـ " اعذرني يا سيدي.. لكن ميزانيتنا ضعيفة، لا يمكننا طبع القوائم، لدينا شوربة وسلطة و..."

وقاطعها مراد:

ـ " نريد دجاجة وطبقي بطاطس مقلية، من فضلك.. يا آنسة.. لو تكرمت.."

ولم يكد مراد يقول هذا حتى راحت الفتاة تعض شفتيها، نظرت إليه قليلا ثم استدارت ومضت نحو المطبخ، وكان مراد قد التفت إلى (تاكفا) فوجده يكتم ضحكة لو أفرج عنها إذن لطردهم صاحب المطعم حالا، وذلك لكونه فهم جيدا لمَ أحضرهم مراد إلى ذلك المطعم دون الآخر، فسأله بعدما تمالك نفسه:

ـ:" من يكون العجوز؟ "

_ " والدها، لماذا؟ "

_ " لا، لا شيء، سألت فقط.. " كذلك رد (تاكفا) وعاد يتهالك على المقعد.

عندما أنهى الرفاق طعامهم، توجهوا نحو التوأمين مباشرة.. وجدوهما يجلسان على أريكة صغيرة وكانت هي كل ما تبقى من بضاعتهما، ناولهما (تاز) رغيفي خبز محشوان بلحم الدجاج من الداخل ثم عاد خطوتين وشاهد مع الثلاثة الآخرين فرحتهما بالطعام الذي جاءهما به (تاز)، وبينما يتناولان غداءهما بنهم، نظر (تاكفا) إلى البناء خلفهما، وكان كما رآه سابقا، مجرد مركز تجاري شبه مهجور مليء بالبؤس والقدم، واجهته الصفراء اللون مليئة بالقشور وبآثار تدفق مياه الأمطار من الأعلى، كما كانت نوافذه مغلقة وتكسوها شبابيك معدنية صدئة، وقال موجها كلامه إلى مراد بعد ذلك:

_ " ألم يكن يوجد مقهى في الداخل؟ "

_ " بلى.. هل نشرب قهوة؟ "

_ " أود بشدة.. "

ولما هما بالتحرك نحو المدخل صاح التوأم وبصوت واحد:

_ " سنأتي معكما.. "

توقفا ونظرا إليهما بحيرة، قال (تاكفا):

ـ " بالطبع، تعالَ معنا.. لكن لماذا هل تريدان شراء شيء ما؟"

ـ " لا يا سيد (تاكفا).. القرد.. "

ـ " ماذا؟ " قال (تاكفا) مضيقا عينيه لما سمعه.

فرد حسين وهو يضع ما تبقى من طعامه فوق الأريكة حيث كان يجلس، و قال بينما يمسح فمه بظهر يده:

ـ " نريد أن نرى القرد يا سيد (تاكفا) "

ولما لم يفهم (تاكفا) شيئا مما قاله الولد، فإنه نظر بعد ذلك إلى مراد والذي قال عنها حينئذ:

ـ " تريدان أن تريا القرد إذن! "

ـ " أجل، لأن ذلك الرجل لا يسمح لنا برؤيته عندما نكون وحدنا.. إنه يطردنا باستمرار عندما يرانا.."

التفت مراد و (تاكفا) إلى بعضيهما:

ـ " لكن من سيبقى مع الأريكة إن تركتماها؟ " قال مراد ناظرا في عيونهما القافزة، ونطق هشام من خلفه:

ـ " أنا سأبقى، اذهبا أنتما.. "

وردد (تاز) بعده: " أريد أن أرى القرد أيضا.. " فلم يكن بعد ذلك سوى أنهم دخلوا المبنى جميعا عدا هشام الذي وقف خلف الأريكة يتحسس كتفه من الألم.

داخل المبنى، كان ثمة ثلاثة طوابق مطرزة بحوانيت أغلبها مغلقة، تسكن على جوانبها.. إلا حانوتين أو ثلاثة في كل طابق، وكان يوصل بين الطوابق سلم ذو درجات رخامية تغير لونها من كثرة الأوساخ المتراكمة، وكان في الطابق السفلي مقهى واسع مفروش بالطاولات والكراسي، وحانوت لبيع التبغ والعطور ، ومطعم صغير للوجبات السريعة، وقلة من الناس يتجولون بالداخل، لكنك لن ترى مكانا نظيفا أينما نظرت حولك، فقط بقايا السجائر وأكواب القهوة الكرتونية والكثير من تلك الأشياء التي يلقي بها الناس دون اكتراث أينما وجدوا ليمر بها الآخرون خلفهم ويدوسونها بأقدامهم، دخل مراد المقهى ليطلب قهوته فيما راح الآخرون يصعدون نحو الطابق الثاني، ووقفوا يطالعون قردا بني اللون كان مسجونا بداخل قفص حديدي مغلق بقفل صغير أصفر، كان القرد مكتئبا يفرك بطنه بأصابع يده الأربعة، مطأطأ الرأس كأنما يفكر في مصيبة قام بفعلها، ثم رفع رأسه بعد ذلك فوقعت عيناه اللؤلؤتان على (تاز) أولا، بنظرات متواصلة ، واقترب منه (تاز) حتى كاد

يلمس القفص بوجهه، وكذلك وضع القرد يديه على موضعين في القفص وجعل يحرك شفتيه حتى ظهرت أنيابه الصفراء كأنما يريد أن يقول شيئا، وتأملا بعضهما طويلا ، كأنهما كانا متلهفين للقاء كهذا، كان أحدهما طفلا جميلا له يدان لطيفتان ووجه ملائكي وشعر أشقر رطب يغطي رأسه، فيما الآخر قرد له وجه عنيف وذراعان طويلتان يغطي جسده شعر طويل من كل جانب، شعر (تاكفا) بالغرابة مما يحدث ، لكن حسين طمأنه أن (تاز) يعرف ما يفعله، وأن القرد لن يؤذيه أبدا، حتى لو وجد الفرصة لذلك، وراحت عينا القرد تتلألآن، وكان تعبير وجهه يشبه أن يكون صرخة نجدة، لكن (تاز) لم يكن يملك من الأمر أكثر من نظرة شفقة .

كان خلف القفص حانوت لبيع الطيور بأنواعها، وبعض الأقفاص كانت معلقة عند المدخل وبعضها على الأرض وبداخلها عصافير ذات ألوان جميلة، وكما توقع الصغار، خرج إليهم من الحانوت رجل أشيب الشعر عريض البطن يهرول نحوهم، و كاد أن يصيح بهم لولا وجود (تاكفا) إلى جانبهم فكأنما عقد لسانه، نظر أليهم قليلا ثم نظر إلى (تاكفا) وهز رأسه ثم عاد فدخل حانوته بعد ذلك، كأنما اطمأن لشيء أراد رؤيته، عندها تذكر (تاكفا) شيئا

كان قد سمعه من التوأم حينما كانوا يصعدون درجات السلم، فقد قال حسين له:

ـ " إذ جاء ذلك الرجل فلا تتحدث إليه يا سيد (تاكفا)، إنه رجل شرير جدا.. ونحن نريد أن نرى القرد فقط وسوف نغادر بعد ذلك "

كما أمن شقيقه حسن على هذا بقوله:

ـ " صحيح يا سيد (تاكفا)، إنه رجل سيء، وسوف يوقعك في المشاكل إذا تحدثت إليه أو تحدث إليك وأجبته.. وهو شرير بحيث يحبس قردا في قفص معدني يسبب له الألم.. "

وزاد حسين أيضا:

ـ " سوف يسألك عن حالك أولا، ثم سيجعلك تتبعه إلى حانوته، ثم سيضع في جيبك عصفورا ويجبرك على دفع ثمنه... "

لما تذكر (تاكفا) هذا نقل عينيه عبر فتحة باب الحانوت إلى الداخل فوجد الرجل يضع بعض الماء في مشرب طائر صغير له ريش أخضر، وتأمله جيدا فتبدت له قسوته مع القرد وشجاعته مع الناس في بيع بضاعته، وكان يتوقع منه أن يخرج للحديث إليه وجره إلى الداخل في أي لحظة، لكن الرجل لم يخرج.. حتى بعد مرور ربع ساعة، حين انتهى الصغار من إشباع رغبتهم في

رؤية القرد وملاعبته، فتركوه وراحوا ينزلون الدرجات بعدها، وأبدى لهم القرد مدى استيائه من مغادرتهم له عبر شد القفص بقوة والصراخ عاليا ليظهر لهم ذلك، لكن كان عليهم أن يغادروه في النهاية، فهو ملك لصاحبه، في الخارج وقف (تاكفا) إلى جانب مراد يسأله:

_ " منذ متى وهذا القرد هنا؟ "

_ " منذ سنوات، لا أذكر.. "

والتفتا نحو هشام الذي كان يفاوض أحد الزبائن على ثمن الأريكة المتبقية:

_ " سيبيعها.. "

_ " طبعا سيبيعها.. "

وتأمل المشهد قليلا، لدقيقتين فقط، فشاهدا هشام وزبونه يصافحان بعضهما، ثم التفت نحو (تاز) والتوأم فدعاهم لمعاونة الرجل في حمل الأريكة:

_ " هذا الطفل ماهر حقا.. "

_ " قلت لك.. "

(تاكفا) التفت إلى مراد بعدها:

_ " انتظرني قليلا هنا، سوف أعود بسرعة.. "

_ " ألم تعجبك هذه القهوة؟ " رد مراد مشيرا إلى كوب القهوة الكرتوني في يده.

_ " لا، ليس هذا.. فقط انتظرني، سأعود حالا... "

في المساء، حين سقط الظلام على المدينة، كان مراد و(تاكفا) وهديل يتمشون نحو المبنى، وكانت هديل بينهما تحمل قطتها بين ذراعيها، وكانت ترفع عينيها الجميلتين إلى الأعلى، حيث كان هشام يقف عند فتحة الجدار يراقبهم وهم يقتربون في الأسفل، لكنه سرعان ما اختفى عن نظرها فجأة، دفع مراد صفحة الباب المعدنية إلى الداخل بيده وراحوا يصعدون درجات السلم.

وهناك في الأعلى كان هشام قد عاد نحو (تاز) الذي كان يثني ركبتيه خلف برميل عند الزاوية يعالج شيئا ما يحاول إخفاءه، وقف خلفه وسأله برفق بالغ:

_ " ما الذي تفعله يا (تاز)؟"

_ " أطعم الأفعى.. "

_ " ماذا؟! "

ـ " ان. ان. انظر .. " قال (تاز) واستدار نحوه وكلتا يداه مشغولتان إحداهما برفع الأفعى من رقبتها والأخرى بحمل قطعة دجاج مطهوة.

ونظر إليه هشام مبهورا:

ـ " من أين جئت بلحم الدجاج؟ ومطهو أيضا!! "

فقال (تاز) وهو يطالع هشام في عينيه مباشرة، و إنه قال ذلك ببراءة تجعل المرء يعدل عن ضربه لو أنه في البداية كان ينوي فعل ذلك.. نطق بنبرة بريئة:

ـ " من المطعم، خب.. خب.. خبأت جزءا من حصتي خ. خلسة... سوف تمو.. مو.. موت إن لم.. لم.. نطعمها، فهي لا تت.. حم.. مم.. تتحمل الجوع مثلنا.. "

ـ " أعلم هذا يا (تاز)، أعلم أنها ستموت إن لم نطعمها.. " قال هشام وأثنى ركبتيه نحوها: " كان عليك أن تحضر لها بعض الفئران من الغابة، أو من الطابق السفلي، يوجد الكثير منها"

ـ " ظننتها ستحب اللحم المط. مط.. المطهو أكثر.. "

ـ " لا يا (تاز)، لا.. أنت تقتلها هكذا، أعدها إلى الصندوق وانزل لتبحث لها عن بعض الفئران الحية.. "

ـ " سأفعل.. " رد (تاز) وأعاد الأفعى إلى صندوقها، وضع على غطائه جزمة ثقيلة وانطلق يركض نحو الخارج.

حين وصل القادمون ووقفوا حول الجمرات كل في مكانه الذي اعتاد، كان التوأم كلاهما يمد ذراعاه خلف ظهره يرتكز عليهما في انتظار أن يتحدث الكبار أولا، فابتدر مراد بالكلام وهو يقلب عينيه بين الصغار مستفسرا، و قال وهو يعيد شدقي سترته خلف ظهره بينما يجلس على حبة الآجر:

ـ " إلى أين خرج (تاز) يركض هكذا؟ "

رد هشام:

ـ " سيعود بعد لحظة، لديه عمل في الخارج.. "

تساءل (تاكفا) بطريقته:

ـ " في مثل هذا الوقت!!"

ـ " في مثل هذا الوقت، أجل.. "

قال (تاكفا) ذلك خوفا على الصغير ليس إلا، لأنه رأى كيف أن الظلام غلف كل شيء في الخارج، ولما كان تذكر ما أخبره به مراد عن أن الفتى حينما يرد عليه بتلك الطريقة، فليس نقمة عليه، إنما بسبب التراكمات التي عاشها

سابقا، وجعلت لسانه ثقيلا على من لا يعرفهم هكذا، ولذلك فلم يرد عليه بعدها، إنما أغلق فمه وأصغى إلى مراد الذي كان يبدو عليه أنه سيقول شيئا.

_ " أليس لديك ما تقوله اليوم يا (تاكفا)؟"

_ " لا، ألم يكن يفترض أنه أنت من ستخبرنا بشيء مهم هذه الليلة؟ "

_ " بلى.." هكذا أخذ مراد طرف الحديث إلى يده:" ما أريد قوله هو.. جميعنا نعرف أن الحادث الذي تعرضت له قد تم تشخيصه من طرف الشرطة على أنه حادث عمل، بعد أن تم نقلك إلى المشفى، وبقيت هناك في غيبوبة لعدة أشهر، وعندما أفقت بعد ذلك وجدت نفسك تعرج وقد كنت صحيحا معافى، كما تم فصلك من عملك وأحلت إلى التقاعد مباشرة.. وهكذا فقد أغلقت الشرطة القضية دون رجعة، لكن ما الذي حدث قبل ذلك.. "

_ " ما الذي تقصده؟ "

_ " سأخبرك.. قبل وقوع الحادث، كنت أنت يا (تاكفا)، ربما أكثر شرطي نزيه في المدينة، كان الجميع يحسبون لك حسابا، سواء الذين يخافونك أو الذين يحترمونك، والذين كانوا يخافونك لم يكونوا يخفون حاجياتهم عندما يرون باقي أفراد الشرطة، فيما كانوا يختفون من الوسط الذي يعرفون أنك قادم نحوه، وكان الذين يكنون لك الاحترام، كانوا كثيرا ما يتصلون بك عند

حاجتهم لخدمة الشرطة، دون زملائك.. وفي إحدى المرات عندما كنت... لحظة.. هل تذكر المحامي لطفي؟ "

_ " لا.. "

_ " حسنا، في إحدى المرات أخبرتني أنك تلقيت بلاغا أثناء دوريتك.. "

_ " متى كان هذا؟ "

_ " قبل أيام من تعرضك للحادث، كان بلاغا بشأن محاولة اختطاف، أخبرتني أنك كنت قريبا من الموقع، لذلك ذهبت وحدك، مع أن المتصل أخبرك أنه رأى رجلان في الظلام يحاولان إخضاع أحدهم والزج به داخل سيارتهما، وعندما وصلت إلى الموقع... هل تذكر المفتش سليم؟ "

_ " أبدا.. "

_ " كان رئيسك في العمل، لكنه مات قبل فترة.. " وصمت مراد لبرهة، فكر قليلا وأردف يقول بعدها:

_ " أخبرتني أنك لمحته إلى جانب شخص آخر لم تستطع تحديد هويته جيدا.. "

_ " تعني أن المفتش هو من حاول اختطاف ذلك الرجل؟ "

_ " أنت من أخبرتني بهذا، ولم يحاول، بل اختطفه حقا، لأن الرجل الذي اتصل بك كان جاره في السكن ولم يره مجددا، تماما كما أن جيرانهما لم يرو أي واحد منهما مرة أخرى بعد ذلك.. "

_ " أرجوك.. بوضوح أكثر.."

_ " أقصد أن الرجل، أو العجوز.. لقد كانا عجوزين في الحقيقة وكانا متماثلين في العمر تقريبا، قد تم اختطافه هو الآخر.. كان ذلك عندما قمت أنت برفع دعوى على رئيسك في العمل لدى المحكمة في اليوم التالي، استغرب الجميع مما فعلته، لكن المحامي لطفي تطوع بنفسه ليتولى القضية.. " لطفي عبدون " هو محام معروف في المدينة وخارجها، مع أنه خسر القضية في النهاية، أيضا استغرب الجميع لذلك، كما أنه فقد دليلا كان العجوز الذي اتصل بك قد أعطاك إياه، أخبرتني أنه كان دليلا سيثبت التهمة على المفتش.. "

_ " وماذا كان الدليل؟ "

_ " صورة، استطاع العجوز أن يلتقط صورة للمختطفين من نافذة شقته بآلته القديمة، كما أنه وقف معكما كشاهد في المحكمة.. لكن المفتش قال بأنك تفتري عليه لأن سمعته طيبة، وأنك تقوم بهذا الجنون لتأخذ مكانه ليس

إلا، وأن نظارة وفردتي حذاء جديدتين يمكن أن تكونا رشوة جيدة بالنسبة لعجوز ليس لديه القدرة على شراء شيء مثلها.. في النهاية قال القاضي أنه لا يوجد دليل يدين المفتش حقا، كما أن شهادة العجوز غير موثوق فيها لأنه لا يرى جيدا.. بالإضافة إلى أن كل ذلك اللغط الذي تحدث به المحامي لطفي لم يكن ذا فائدة، بعد أربعة أيام فقط تلقيت اتصالا جديدا، في وقت متأخر من الليل.. كان الأمر يتعلق باختطاف ذلك الشاهد هذه المرة، وعندما وصلت إلى الطابق الثالث في العمارة.." سكت مراد للحظة: " لا أحد استطاع أن يوضح الأمر حقا، تحدث الجيران وقالوا إنهم رأوا رجلان ملثمان يختطفان العجوز وينزلان به درجات السلم، قالوا إن أحدهما قوي البنية جدا، وكان يحمل مسدسا في يده، ولذلك لم يرغب أي أحد منهم في الخروج من بيته لمساعدة العجوز الذي كان يتخبط بين ذراعيهما.. عثروا عليك بعدها ملقى في الشارع أسفل العمارة.."

_ "أفهم هذا. لكن ماذا عن العجوز، هل كان يعيش لوحده، ألم يكن هنالك أي أحد غيره في الشقة؟ "

_ " كان يعيش مع زوجته، لكنهم كانوا قد ضربوها أيضا حتى أغمي عليها، قال الجيران أنهم سمعوا صوتها وهي تصرخ لطلب النجدة، قبل أن

ينقطع فجأة، ثم رأوك تدخل ولا تخرج بعد ذلك، ظنوا أنهما قاما بقتلك أيضا.. حتى عثروا عليك في الأسفل.. "

_ " والمرأة.. هل قتلاها؟ "

_ " لم يقتلاها، لاتزال حية، المسكينة.. بذكرى فظاعة الحادث.. "

_ " إذن الأمر هكذا.. دخل الرجلان شقة العجوز الذي كان شاهدا معي ضد المفتش على اختطاف جاره وقاما بضرب زوجته، وعندما دخلت أنا حاولا قتلي عبر إلقائي من النافذة، اختطفا العجوز وفرا هاربين دون أن يعترض طريقهما أحد.. مع كل هذا فلم تحرك الشرطة ساكنا.. "

_ " عدا نقلك أنت والمرأة إلى المشفى، وغلق شقتها لفترة، هذا كل ما فعلته الشرطة.. ثم لا شيء بعد ذلك، القضية كأن شيئا لم يكن.. وواضح أن للمفتش يد في ذلك"

تنهد (تاكفا):

_ " هل بمقدورنا أن نتحدث معها؟"

_ " بالطبع، يمكننا، نذهب إليها غدا إن أردت.. "

_ " غدا في المساء ربما، ينبغي علي أن أعود إلى المستشفى صباحا للمتابعة.."

_ " سآتي معك إن أردت صحبة.. "

_ " لا داعي لأن تتعب نفسك.. يتم الأمر سريعا أيضا . "

هكذا تم الحديث بينهما، وعندما لم يكن هنالك ما يقال أمام الجميع بعد ذلك، ولما كان صمت طويل قد خيم بينهم حول حلقة الجمر دون أن يفتح أحدهم فمه ليقول شيئا، و إذ ذاك فإن مراد و (تاكفا) قاما نحو الشق في الجدار فوقفا عنده يحدقان إلى أنوار الغابة وأنوار المدينة من خلفها، راح مراد يسأل (تاكفا) عما يريد قوله، فكان جواب مراد وهو يستدير نحوه بكامل جسمه، وفي عينيه الزجاجيتان ما يوحي بالقلق.. هكذا:

_ " هنالك أمر يجب أن أخبرك به.. "

_ " أنا أسمعك.. "

_ " ألم تقل إنهم مطيعون جدا، ولا يفتعلون المشاكل؟ "

_ " من، الصغار؟ "

_ " أجل، أتحدث عنهم.. "

وبعد أن ألقى مراد على الصغار نظرة خاطفة، عاد بوجهه حائر:

_ " ما بهم، ما الذي فعلوه أخبرني؟ "

وألقى (تاكفا) بدوره نظرة سريعة عليهم، ثم عاد يقول بصوت لا يمكنهم سماعه:

_ " أترى عندما وقفنا أمام مدخل المركز التجاري وطلبت منك أن تنتظرني قليلا ريثما أدخل وأعود بسرعة؟ "

_ " ما زلت لم تخبرني عن هذا!"

_ " حسنا، إليك هذا.. أنا إنما عدت لأسأل ذلك الرجل عن سبب منعه الصغار من رؤية القرد لوحدهم، أعني السبب الحقيقي من وراء هذا.. "

وضيق مراد عينيه قليلا:

_ " عن أي رجل تتحدث، لم أفهم؟"

_ " مالك القرد، أتحدث عن بائع الطيور.. "

_ " اعذرني، أكمل.. "

_ " ألم تكن أنت قد بقيت في الأسفل بينما نحن صعدنا الأدراج لرؤية القرد في الأعلى!! "

_ " بلى.. "

_ " أثناء صعودنا الأدراج طلب مني حسن وحسين أن أتجنب الحديث مع ذلك الرجل قدر ما يمكن.. قالا إنه سيء الطباع جدا، وأن كل الطيور التي

في حانوته سوف تموت في أقفاصها، لأن الناس عندما يتحدثون إليه مرة، لا يعودون يرغبون في التحدث إليه مرة ثانية.. "

_ " هما قالا لك ذلك؟ "

_ " وأنا استغربت الأمر مثلك أيضا، جعلتهما يصدقان بأنني اقتنعت بما قالاه لي عن الرجل، ولذلك عدت إليه بعدها، في الداخل سألت طفلا صغيرا وجدته إن كان صاحب المحل يمنعه من رؤية القرد فنفى ذلك تماما، وعندما تحدثت إليه وجدته إنسانا يعاكس تماما ما كانا يقولانه.. "

_ " واضح أنهما كانا يكذبان من البداية.. "

_ " أخبرني أنه لا يمنع كافة الأطفال عن رؤيته، بل جماعتنا خاصة.. "

_ " وأخبرك عن السبب؟ "

_ " حاولوا مرارا أن يطلقوا صراح القرد من قفصه، هذا ما قاله.. "

_ " أحقا! "

_ " نعم.. ترى هل يعرف هشام هذا!"

_ " أتوقع أنه يعرف.. "

_ " في الواقع كنت لأؤيد ما يحاولون فعله.. "

_ " لمَ؟ "

ـ " رأيت القرد؟"

ـ " منذ مدة، لم أعد أذكر متى كانت آخر مرة صعدت فيها إلى ذلك الطابق.."

ـ " يبدو كأنه سيموت في أي لحظة، أخبرني صاحبه أنه مؤخرا بات يمتنع عن تناول.. "

وفي تلك اللحظة تماما، التفت كل من مراد و (تاكفا) خلفهما وفي وجهيهما ذعر كبير قد هاج فجأة، ذلك لما سمعا صيحة رقيقة ارتفعت، ركضا نحو الفتاة ورفعها مراد عن الأرض من ذراعيها، تأملاها فإذ عينيها تهتزان بقلق والخوف يغلف نظرتها:

ـ " توجد أفعى، في الصندوق خلفكما.. " هتفت خائفة.

ـ " ما الذي تقولينه يا هديل، أي أفعى! " راح يسألها مراد حائرا فيمَ يفعله بينما وثب (تاكفا) يبحث في المكان حتى وقعت عينه على جزمة ثقيلة بجانب صندوق خشبي صغير مغطى خلف البرميل فراح يرفع الغطاء عنه في تهور، ثم ما لبث أن ألقاه مجددا وابتعد خطوة إلى الوراء كأنما قد رأى رأسا مقطوعة.

في تلك اللحظة، نظر (تاكفا) خلفه فرأى هشام وهو يظهر من خلف الباب راكضا، وقد كان يخرج ليتفقد (تاز) في الغابة، إلا أنه لم ينزل درجات السلم كلها حتى سمع صرخة هديل لما انبعثت من الأعلى، وصل بجانب التوأم اللذان كانا يقفان جنب بعضهما يحدقان بحيرة وجعل يهتف والقلق يملأ نبرته، وكذا كان قلبه الصغير يرتعد داخل صدره:

_ " هل تأذى أي أحد، لماذا صرخت هكذا يا هديل، أرني يدك، هل أنت بخير؟ " ثم أمسك يديها يقلبهما دون إنذار مسبق، حتى لما رفع عينيه إليها وجدها محمرة تكاد تموت من الخجل، فأسرع يفلت يديها بعدما اطمأن عليها وعاد نحو الصندوق يقلبه، و فعل ذلك ليس إلا ليخفي خجله من الذي قام بفعله، حتى إذا سمع (تاكفا) يسألها عما حصل، التفت إليهما وكانت ترد عليه قائلة، والحروف تخرج من فمها الصغير كفُتات السكر المتكسر:

_ " كنت جالسة في مكاني، لكن قطتي شمت شيئا فهربت مني وذهبت إلى الصندوق، وعندما فتحت الصندوق أنا رأيت ذيلها يتحرك.. أنا آسفة.."

_ " أنت ماذا! "

_ " أنا آسفة.. "

ـ " تعالي إلى هنا يا صغيرتي.. " قال (تاكفا) وأثنى ركبتيه يضمها إلى صدره: " لا تقولي مثل هذا مجددا، نحن من علينا أن نأسف وليس أنت.. والآن توقفي عن البكاء، أرجوك.. "

ولم تمضِ غير لحظات حتى كان ينظر في عينيها وهي تبتسم وتبعد وجنتيها عن بعضهما، ذلك ومسح على شعرها ثم قام بعدها نحو هشام يسأله:

ـ " هل أنت بخير؟ "

لكن هشام كان مشغولا بتثبيت غطاء الصندوق حتى لا تخرج الأفعى رأسها:

ـ " هشام، هل أنت بخير؟ "

ـ " أجل، لم أكن أنا الذي أطلق تلك الصرخة كما تعلم، لماذا تسأل؟ "

ـ " أتحدث عن كتفك، لقد رأيتك في الصباح عندما كنت تبيع الأريكة، وضعت يدك عليها مرات عدة، كما فعلت قبل لحظة، هل تؤلمك؟ "

ولما قال تاكفا ذلك، تبادل الجميع النظرات نحو بعضهم، نظر مراد إلى حسين مستفسرا ونظر حسين إلى حسن عله يعلم عن الأمر شيئا ونظر حسن إلى هديل ونظرت هديل إلى هشام فكان يضع راحتيه فوق الصندوق الخشبي

لا يحرك ساكنا كأنما جمد فجأة، حتى إذا كرر عليه (تاكفا) السؤال أجاب وهو يرفع الصندوق نحوهما:

_ "أنا بخير، شكرا "

_ " هل أنت متأكد؟ "

_ " متأكد.. "

هكذا رد هشام بغير أن يكون في وجهه تعبير واضح، ثم أبان لهم بأنه يريد نقل الصندوق إلى مكان آخر، ومع أن تاكفا لم يصدق كلامه، إلا أنه تنحى عن طريقه وهو يتأمل عينيه المتعبتين عن مسافة قريبة، ثم ما حدث بعد ذلك.. هشام لم يبتعد لأكثر من عشر خطوات حتى انفلت الصندوق من بين يديه فيما هوى أمام الباب مثل خزانة صغيرة.

***

فتح مراد الباب، كان يمسك النرجيلة بين يديه، وما إن تنحت عن مكانها حتى أرسل سحابة دخانا تفرقع في وجه (تاكفا) الذي كان يهم بالدخول قبل أن يغير رأيه ويقف متسمرا بينما الدخان يغلف رأسه:

_ " فراولة.. " قال وهو يستلم النرجيلة عن مراد.

_ " فراولة.. "

عندما جلسا بعدها حول طاولة الكتابة، نفخ مراد سحابة دخان أخرى نحو السقف ورد الخرطوم إلى (تاكفا) وهو يرتد على كرسيه بتخاذل و يقول:

_ " هل تناولت عشاءك؟ "

رد (تاكفا) وهو يحدق في المصباح المتوهج فوق رأسه:

_ " لا، ولا أريد.. "

مراد لم يقل شيئا بعدها، بل أخذ القلم وكتب سطرين أو ثلاثة قبل أن يقاطعه تاكفا وهو ينهض عن الكرسي متوجها نحو الأريكة:

_ " إلى أين وصلت مع الكتابة؟ "

لكنه لم يلقى جوابا:

_ " مراد! "

_ " نعم.. كنت أفكر في أن.. "

_ " في أن ماذا؟ "

_ " لا عليك.. فقط لا تشوش علي الآن، خذ النرجيلة بجانب رأسك ودعني أكتب.. "

ـ " لك ذلك.. هذا يناسبني أيضا.. " وعاد (تاكفا) فسحب النرجيلة حتى الأريكة واستلقى بجانبها، استتلى قائلا:

ـ " أشعر كأني نطحت صخرة، رأسي يكاد ينفلق.. "

ولم تمضِ غير دقيقتان حتى كان يغط في نوم عميق جدا، وحينها تأمله (مراد) قليلا وهو يضع القلم في فمه، وجده ملقى مثل جذع نخلة، دون أن ينزع حذائه، مضغ شفتيه وعاد يضع رأسه على الورقة.

في المستشفى، في قاعة الانتظار تحديدا، جلس مراد و (تاكفا) على مقعد عريض بعدما تركا هشاما راقدا على أحد الأسرة بكتف مربوطة، كذلك كان رفاقه إلى جانبه، ولذلك فقد راحا يتحدثان ريثما ينتهي الصغار من الاطمئنان على صاحبهم، مد (تاكفا) ذراعه على ظهر الكرسي وقال ناظرا نحو المدخل، تماما حيث كان رجل يمسك يد أمه المحنية الظهر يقودها نحو الخارج، وكانت قد تكونت ضبابة في عينه:

ـ " لست أفهم.. لماذا قد يخفي أمرا كهذا ؟، وحتى بعدما أفاق أصر على ألا يتحدث.. لولا أن (تاز) أخبرنا بما حدث.. "

فكان رد مراد أن قال له، بعدما ألقى نظرة سريعة على ساعة يده:

_ " هو هكذا، لا يحب أن يرى أصحابه وهم يقلقون عليه أبدا، أخبرتك سابقا أنه يضع نفسه موضع والدهم، ولذلك تراه لا يرغب في أن يظهر في مظهر الضعيف أمامهم.. حتى وهو في هذه السن الصغيرة، انظر إليه كيف يتصرف وكيف يفكر.. "

_ " حقا إنه لأمر صعب.. "

_ " ما هو؟ "

_ " أن تكبر في هذه المدينة.. بالطريقة التي يكبرون بها، لا أدري كيف يفعلون هذا.. "

_ " أجل، وذلك ما صقل عقلية هشام حتى أصبح هكذا، هو يشبه الرجل الصغير لو أردت قول ذلك.. "

بعد عشر دقائق مرت دون أن ينطق أحدهما:

_ " مراد! "

_ " ماذا؟ "

_ " تلك الأفعى! "

وعدل مراد جلسته بعد أن كان انزلق على الكرسي قليلا، و شد شدقي سترته إلى بعضهما وطفق يقول بعدما طافت على وجهه نصف ابتسامة، فكأنما كان ينتظر من (تاكفا) أن يسأله عن هذا:

_ " همم، ما الذي يجعلهم يمسكون بالأفعى ويحتفظون بها في صندوق خشبي في منزلهم بدل أن يقتلوها ويعلقوها على شجرة مثلما يفعل معظم الصغار في سنهم! هذا ما تريد معرفته.. حسنا، هم يخلقون بها عملا لأنفسهم عندما لا يكون هنالك واحد، ليس إلا.."

والتفت (تاكفا) نحو مراد يرمقه بحيرة، ولما رأى مراد منه ذلك فإنه تابع كلامه وهو يضحك:

_ " لا تتعجب، سترى ذلك قريبا، ستراه وستفهم.. "

وحرك (تاكفا) ذقنه قليلا، أراد أن يسأل أكثر، لكنه لم يفعل، فبادره مراد قائلا:

_ " غدا في أي ساعة ينتهي فحصك؟ "

_ " العاشرة، أظن.. لماذا تسأل؟ "

_ " حتى نلتقي هنا، سآتي لنرى هشام معا.. "

_ " طبعا، سأنتظرك.. لكن هل ستغلق المكتبة؟ "

_ " ولمن افتحها! " رد مراد بضيق، تنهد طويلا ثم اتكأ برأسه على الجدار حتى خرج الصغار من عند هشام فترافق الجميع خارج المستشفى وراحوا يعودون تحت جنح الظلام البارد .

صباح اليوم التالي، عاد (تاكفاريناس) يدس يديه في جيبي سترته حتى باب المستشفى، و وقف قليلا عند موقف السيارات، يتأمل سيارة الدكتور جمال تحديدا، وقد هاجت في نفسه أسئلة كثيرة.

اختطف بعض الوقت مع موظفة الاستقبال ليسألها عن الممرضة التي اعتنت به عندما كان في غيبوبة، لكن الموظفة هزت رأسها يمنة ويسرة، وعضت شفتيها بأسف:

_ " لا، للأسف يا سيدي، ليست موجودة.. لقد عادت إلى مدينتها لتكمل دورتها التدريبية حتى يتم ترقيتها، وبعد ذلك سوف تعود إلى هنا.. ربما.. لكنها قد تأتي بين وقت وآخر، وسوف أحرص على أن أخبرها بأنك بحثت عنها.. من أقول لها؟ "

_ " المريض الذي كان في غيبوبة.. قولي لها هذا، إن رأيتها.. "

_ " طبعا يا سيدي.. سأفعل.. "

وقدم لها (تاكفاريناس) شكرا لطيفا ومضى نحو مكتب الطبيب المسؤول عن متابعته.

بعد نصف ساعة خرج وجلس في قاعة الانتظار يتأمل الساعة على الحائط، حتى ظهر مراد، وكان الوقت يشير إلى العاشرة والربع تقريبا، تلقف الواحد منهما يد الآخر للمصافحة وتوجها إلى حيث كان يرقد هشام، كان سريره في الزاوية، وكان ثمة ما لا يقل عن عشرة مرضى إلى جانبه مطروحين على أسرتهم كل بجروحه وندباته، ونظر هشام إلى وجهيهما وهما يتقدمان نحوه، وضع مراد كيسا فيه بعض الفاكهة إلى جانب السرير وجلس على مقعد يسأل الصغير عن حاله:

_ " كيف تشعر اليوم يا هشام، هل خف عنك الألم؟ "

فرد هشام وهو يرفع يده إلى موضع الألم، و ينظر إلى الحزام حول كتفه:

_ " سيخف.. عاجلا أم أجلا.. " رد هكذا.

كذلك راح (تاكفا) يقول وهو يجر كرسيا كان يعود به من عند مريض آخر وجده يرقد لوحده:

_ " أتمنى أن تكون قد تحسنت يا هشام.. "

_ " أنا بخير، لا تقلقا بشأني.. "

وكان (تاكفا) لاحظ كيف أن هشام ـ بين لحظة وأخرى ـ راح يجيل الطرف عنهما حتى لا يتبينا مدى عجزه، فيأخذ يحدق في الإزار عند قدميه تارة، ثم يتأمل المرضى الآخرين تارة أخرى، حتى نطق مراد من عنده:

ـ " أظن أنك تقلق على رفاقك الذين في الخارج أكثر من قلقك على نفسك، ألست محقا؟ "

وعندها نقل هشام عينيه إلى مراد وجعل يحدق فيه بتلك النظرة التي جعلت مراد يشك في أنه لم يكن عليه أن يقول شيئا كهذا، ثم كان جيدا بالنسبة إليه أن هشام لم يقل شيئا، كذلك كان جيدا بالنسبة إليه أن (تاكفاريناس) تدخل فجأة:

ـ " هل تحتاج أي شيء؟ "

ـ " أحتاج ان أخرج من هذه المقبرة.. "

ـ " ليست مقبرة يا هشام، هذا مستشفى.. "

وكانت عينا هشام تنظران بعيدا في الفراغ حين راح يغمغم:

ـ " يمكنك أنه تسميه ما شئت، يمكنك أن تسميه مستشفى، لكن ذلك لن يجعل منه مستشفى.. يمكنك أن تسميه أي شيء عدا ذلك.. "

بهدوء بالغ، وبينما يضيق نظرته، رد (تاكفا):

_ " لماذا تقول هذا، هل تلقيت خدمة سيئة في الليل؟ "

_ " وهل هنالك خدمة حتى.. " ونظر حوله: " انظر، جئتما منذ ربع ساعة فهل رأيتما طبيبا يدخل إلى هنا!! "

ولما لم يقل (تاكفا) شيئا فإن هشام أكمل يقول بعدها: " اعذرني، لكن ليس كل المرضى محظوظين مثلك يا سيد (تاكفا) "

هنا نظر مراد إلى وجه صاحبه فلم يجد عليه تعبيرا، وشعر بأنه يجب عليه أن يقول شيئا، فقرب الكرسي قليلا ومضى يقول ناظرا في عيني مباشرة:

_ " اسمعني، ما أراد (تاكفا) قوله هو أنك تُصعب الأمر على نفسك، إذا كان المستشفى سيئا، وأنا لا أراه سيئا إلى تلك الدرجة، فإنه.. "

_ " لا أصدق أنك تقول هذا.. " قاطعه هشام: " أنسيت أنك ... " ودون أن ينهي جملته، أغمض عينيه بعمق وحسرة لما فهم حجم الغلطة التي وقع فيها، وكان (تاكفا) كأنما فهمه قد عمي حينما لم يلذ إلى الصمت مثل صاحبيه وراح ينصح هشاماً بقوله أنما ينبغي على الواحد هو أن ينظر إلى الأمر من أصغر نافذة إيجابية فيه بدل أن ينظر إليه من أوسع أبوابه إن كان سلبيا، فما كان من هشام بعد ذلك إلا أن انفجر فيه مفرغا كل فيضه:

ـ " افعل أنت ذلك إن كان يساعدك، لكن أنا يساعدني أن أشمئز من المشفى ومن بعض البشر ومن كل شيء أجد فيه شيئا يدعوني للاشمئزاز.. ويسعدني ويساعدني أن أفعل هذا.. أما أنتما فافعلا ما يحلو لكما، واعتقدا ما تريدان، لكن لا تحاولا أن تدخلا أفكاركما في رأسي لمجرد أنكما كبيران وتعرفان أشياء كثيرة، لا تجعلاني أتحدث هكذا، لا تجعلاني أخطئ، أرجوكما دعاني وشأني الآن، أريد أن أبقى لوحدي.. "

ثم انزلق على الفراش وغطى رأسه نحو الجهة الأخرى.

و بينما كانا يغادران باحة المشفى، مرورا بين موقف السيارات والحديقة، راحا يجريان حديثا بسيطا بينهما، وكان ابتدأه (تاكفا) بسؤال مراد عما حدث، فأجابه بقوله:

ـ " ليس غاضبا يا (تاكفا)، لا.. إنما الحزن من دفعه للتحدث بتلك الطريقة.. "

ـ: " الحزن على ماذا يا مراد، على ماذا؟ "

ـ " على... انظر.. هو ينفعل بسرعة، لا يستطيع السيطرة على أعصابه في أحيان كثيرة، خاصة عندما يتعلق الأمر بالمستشفى، لا يحبه أبدا لأنه يدفعه لتذكر أشياء لا يرغب في تذكرها، (تاكفا) "

_ " نعم.. "

_ " لم أكن أرغب أبدا في قول هذا، لكن.. "

_ " ماذا يا مراد ؟، أخبرني.. "

وأبدى مراد أسفه على ما كان ينوي قوله عبر فتح فمه بشكل عريض قدر ما أمكنه:

_ " أخبرتك أن أطفال السيد خوني يدعون (تاز) بابن الكلبة.. وهشام أيضا لديهم ما يدعونه به عندما يعترضون طريقه.. "

وصمت مراد لحظة، ثم عاد يقول بعدما قطع عشر خطوات ربما، بينما (تاكفا) متلهف يريد سماع ما سيقوله:

_ " يدعونه بابن المجنونة.. "

_ " ولِمَ ذلك؟.. " رد (تاكفا) بحاجب مرتفع:

_ " لأن أمه مجنونة.. "

وهنا توقف (تاكفا) مكانه والذهول باد على وجهه، وكان الناس يمشون على الرصيف يمرون بقربهما، فمضى يقول بكلمات سريعة:

ـ " هل هي تلك المرأة التي كانت تأتي إلى مركز الشرطة تقف أمام السيارات ولا تدعها تخرج من المركز؟ كانت ترتدي ملابسة متسخة! تصرخ وتسب.."

والتفت إليه مراد مشدوها:

ـ " تذكرتها؟ "

ـ " الآن فقط، لا أدري... لكن أحسست أن جزءا من ذاكرتي عاد فجأة.. "

ـ " ستعود يا (تاكفا)، ستعود كلها.. " قال مراد فرحا، لكن ولما كانا قبل ذلك يقيمان حديثا تحزن له القلوب، وتذبل له الأعين، ولما كان عليه أن يتم طرح جوابه كاملا فإنه أرخى تفاصيل وجهه مجددا وبدى كأن عينيه قد ذبلتا حين راح يغمغم ونبرة الأسى طاغية على حديثه:

ـ " هي يا (تاكفا)، تلك المرأة هي والدة هشام، أما الذي أصابها فلا أحد يعرف.. ما أعرفه ويعرفه جميع سكان المدينة أنها كانت تعمل في مصنع الخياطة لتعيل طفلها، عند السيد خوني.. كأي امرأة أخرى.. قبل أن تجن فجأة.. حدث ذلك بعد فترة قصيرة من دخول زوجها السجن.. "

وبينما (تاكفا) يغمض عينيه بحسرة:

ـ " يا إلهي.. " رد بصوت فيه من الوجع: " كيف له ألا يحزن ويغضب! أقسم أنني ربما لو كنت مكانه لن أستطيع تحمل كل هذا.. يا إلهي.. "

وبينما مراد يهز رأسه موافقا:

ـ " أجل، يا (تاكفا).. ناهيك عن أنه كان يشاهدها كل يوم تتجول أمامه في الشوارع وتنام على الأرصفة دون أي مقدرة منه على مساعدتها، لك أن تتخيل ذلك.. وكان الأطفال يعاندونها ويرشقونها بالحجارة ويرمون عليها الأطعمة.. "

ـ " حتى أن مجرد تخيله يجعل قلب المرء يتقطع، لكن ألم يحاول أي أحد أن يساعدها؟ "

ـ " ومن سيحاول، في الحقيقة لذلك هشام غاضب من هذه المدينة، ومن العاملين في المستشفى خصيصا، ففي مرة من المرات وبعد جهد كبير استطاع إدخالها إليه، لكنها خرجت منه كما دخلت بعد نصف ساعة.. صرخت وسبت الكثيرين ثم خرجت، دون أن يلتفت إليها أحد.. قال بعض الذين حضروا الأمر أن الأطباء كانوا يمرون من أمامها كما يمرون على الأبواب المغلقة.. "

ـ " يا للأسف "

_ " بل يا للوضاعة.. صدقني يا (تاكفا)، أنا لا ألوم هشام عن أي شيء يقوله أو يفعله، في مثل سنه، ومع كل الذي عاشه! لا أفعل.. "

وبعدما تمشيا قليلا:

_ " وأين هي الآن، إلى أين ذهبت؟ "

_ " لا أحد يعلم، اختفت فجأة كما فقدت عقلها فجأة.. "

في الناحية الأخرى من المدينة، كان (تاز) والتوأم يحاولون رفع لوح خشبي فوق برميلين معدنيين للصعود عليه والوصول إلى النافذة الخشبية التي كان عليهم أن يصبغوها، كان حسين قد تراجع خطوتين ووضع يديه على خصره وجعل يحدق إلى المنزل الكبير الواقف أمامه وجعل يعد النقود الخيالية بصوت مسموع بينما صاحباه يجاهدان لرفع اللوح إلى مستوى رأسيهما:

_ " ألفين، ألفين وخمسمائة.. أو ربما.. ثلاثة آلاف حتى! هيه، وأين المشكلة، السيد هارون يملك سيارة وزوجة، إلى أين يمكن أن يصل ثراؤه لأكثر من هذا.. سيدفع، أجل سيدفع.. "

_ " حسين!!.. تعال ساعدنا.. "

وركض بعد ذلك نحو شقيقه وساعده في رفع اللوح، ومرت دقيقتان حتى كان اللوح يرقد على البرميلين والصغار ينظرون إليه من أسفل بصدور منفوخة:

_ " من سيصعد أولا!! " سأل حسن.

_ " تاز، تاز سيصعد.. "

ولم ينتظر (تاز) أبدا، بل إنه وثب إلى اللوح مثل الجندب وتسلقه وأصبح ينظر إليهما من أعلى، وانطلق الشقيقان يرفعان دلاء الطلاء من الأرض بأذرعهما الرفيعة إلى (تاز) فيتلقفها بدوره ويرفعها على اللوح بجانبه، وما إن انتهوا من رفع خمسة دلاء صغيرة حتى تتابع الشقيقان في الصعود على اللوح ساعدهما (تاز) في ذلك عبر مد يده وجذبهما نحوه، وما إن صار جميعهم في الأعلى حتى حمل كل واحد منهم فرشاته وانهمك في العمل، واستمروا يفعلون ذلك لربع ساعة، وكانوا قد انتهوا قبل ذلك من طلاء نافذتين أخريين، فكانت بقع الطلاء البيضاء تغطي وجوههم الملائكية وأذرعهم العارية و ملابسهم، إلى أن شعر (تاز) بشيء غريب يحدث تحته فجأة، نظر عند قدميه و إذ باللوح الخشبي قد تشقق وبان فيه عيب جديد لم

يكن قبلا، فهتف يقول ناظرا إلى الشق وهو يمد ذراعه التي تحمل الفرشاة بعيدا عن وجهه:

_ " حسين، حسن.. انظرا.. "

وتوقف الشقيقان عن العمل ونظرا حيث أشار (تاز) لهما، ولبرهة جمد ثلاثتهم ثم نطق حسين قائلا:

_ " على أحدنا أن يقفز الآن وبسرعة.. "

_ " معك حق يا حسين، اقفز أنت هيا.. "

_ " أنا!! لكن لماذا أنا؟ "

_ " أنت من اقترحت هذه الفكرة.. "

_ " أعرف.. ولهذا ينبغي عليك أن تقفز أنت أولا يا حسين، فأنا حتى الآن _ باقتراحي لهذه الفكرة _ قد قمت بما ينبغي علي من أجل إنقاذنا.. "

_ " لا يا حسن.. طريقة تفكيرك هذه خاطئة.. "

_ " أحقا!! "

_ " أجل، لأنه لا أحد يفقه في الأفكار السيئة أكثر منك.. "

نظر حسين نحو الأسفل وكانت المسافة نحو الأرض تبدو بعيدة جدا من الأعلى، حتى لما شعر بالدوار نفض وجهه وعاد يقول وقد أغمض عينيه ليستعيد توازنه:

_ " (تاز) أقفز أنت إذن.. "

ولما لم يكن (تاز) يأبه لأمر ذلك المتر الذي يفصل بين اللوح الخشبي الذي يقفون عليه وبين الأرض فإنه هم بوضع فرشاته على النافذة والقفز لأسفل، إلا أن اللوح كان كأنه أراد أن يضحك على التوأم ويعاقبهما على دفع (تاز) دونهما لتجربة تلك الفكرة السيئة.. حتى لما هم (تاز) بالقفز فإذا باللوح ينفلق نصفين ويهوي بالتوأم على الأرض مثل أكواز الذرة، وكانا حينما سقطا، راحا ينظران إلى بعضهما وهما يحكان رأسيهما من الوجع:

_ " أوف، مؤلم.. "

_ " مؤلم جدا.. انظر لنفسك! "

_ " ماذا؟ "

_ " أنت أبيض بالكامل.. "

وخفض حسن عينيه نحو صدره، عاد ينظر إلى شقيقه:

_ " أجل، أنا أنظر إلى نفسي، وأنت أبيض بالكامل أيضا.. "

ونظر حسين إلى صدر قميصه هو الآخر:

ـ " وقع الطلاء علينا.. لكن أين (تاز)؟ "

ـ " لا أدري، أظنه بقي في الأعلى.. "

ونظرا فوقهما فإذا بتاز قد تمسك بالنافذة بإحدى يديه فيما ساقاه تتدليان في الهواء تحته وهو صامت ينظر إليهما، وكانت قطرات الطلاء تقطر من فرشاته على كتف حسين.. وقام التوأم عن مكانيهما وجعلا يتأملان (تاز) بعيون مفتوحة:

ـ " (تاز).. كيف ستنزل من هناك " صاح حسين نحوه: " لماذا بقيت عالقا يا (تاز)، كان عليك أن تسقط معنا.. "

وهمس حسن إلى أخيه بصوت خافت:

ـ " أظنه لا يدري ماذا يفعل.. "

ـ " أجل، أظن هذا أيضا.. كان بإمكاننا أن نتمسك بالنافذة مثله.. "

ـ " بالطبع كان بإمكاننا فعل ذلك.. "

ـ " أجل.. "

وما إن مرت ثانيتان حتى كان (تاز) يجعل ساقيه تستقيمان بينما يرفع رأسه نحوهما، ذلك أنه أفلت يده وجعل ينزلق نحو الأسفل يحط أمامهما على

قدميه الصغيرتين والفرشاة لا تزال في يده، و بعدما وقف (تاز) مستقيما ورأى كيف توسعت عيونهما من الدهشة راح يسألهما قائلا:

_ " ه. ه. هل تأذيتما؟ "

_ " من الذي تأذى؟ "

_ "لا أدري.. من الذي تأذى، هل تأذيت أنت يا (تاز)؟ " ردد حسين خلف شقيقه الأصغر.

_ " ولماذا اتأ. ات. اتأذى أنا ؟، ل.. لم.. لم أسقط معكما.. "

_ " ما الذي تعنيه بأنك لم تسقط معنا يا (تاز)؟ "

_ " أظنه يعني أننا سقطنا يا حسين!"

_ " آه، فهمت ما يريد قوله، شكرا يا حسن على المساعدة.. " و لأن خجل حسين شديدا، فإنه عمد إلى رفع فرشاته في وجه (تاز) والتحدث إليه بعينين نصف مفتوحتين وذقن مرفوع لأعلى:

_ " انظر إلي جيدا يا (تاز).. دعني أصحح لك مفهومك الخاطئ عن السقوط يا صديقي.. باعتباري الأكبر سنا هنا.. إذا كان السقوط يعني أنك لم تبقَ في مكانك، فذلك يعني بأنك أنت أيضا قد سقطت مثلنا، بل كان سقوطك عنيفا جدا، إنني في حياتي لم أرَ شخصا يسقط لأعلى.. هل رأيت

أنت يا حسن.. لم ترَ.. ولأننا جربنا السقوط لأسفل وشعرنا بذلك الألم لمرات لا تحصى، فإنني أنا من ينبغي علي أن أسألك كيف يكون الألم الناتج عن السقوط لأعلى، هيا أخبرنا.. "

وما إن هم (تاز) بأن يخبره كيف أنه لم يفهم شيئا مما قاله، حتى ظهر خلفهما رجل يرتدي قميصا أبيض له صلعة ساطعة وحاجبان خفيفان ووجه بسيط ينضح باللطافة، وقف يجمع يديه خلف ظهره بينما ينظر إليهم كأنما يحاول أن يفهم شيئا:

_ " مرحبا يا عم هارون.. " هتف حسن يستقبله بوجه تسكنه البراءة.

_ " مرحبا يا بني، ما الذي حدث هنا؟ "

_ " بل ما الذي لم يحدث، اسألنا ما الذي لم يحدث يا عم هارون.. " وكان حسن يقول هذا بينما يمسح بيده الطلاء عن عينه وفمه.

رد الرجل مخفيا ابتسامته:

_ " حسنا، ما الذي لم يحدث يا حسن؟ احذر أن تبتلع الطلاء يا ولدي، احذر.. أتفله على الأرض.. "

وحاول حسن أن يقول شيئا، لكن صوته كان لا يخرج، فتدخل حسين ينوبه، وكانت قطرات الطلاء تنحسر على ذقنه بعد أن كانت تقطر على صدره:

_ " اعذرنا يا عم هارون، أنت تعلم أننا في العادة ننجح في القيام بعملنا مرة من أصل مرة.. لكن هذه المرة حدث أمر لم نحسب له حسابا.. "

وقال الرجال وهو يفتح عينيه أكثر:

_ " ما الذي حدث؟ "

_ " انكسر اللوح يا سيدي.. ولو كنا نعرف أن ذلك سيحدث لما.. "

_ " ما الذي كنتم ستفعلونه؟ "

_ " كنا سننزل عنه قبل أن ينكسر.. "

_ "آه، فهمت.. حسنا، أدوا عملكم بالطريقة التي تعرفونها، المهم هو أن لا تؤذوا أنفسك.. اتفقنا!! "

ثم ضحك الرجل عليهما قليلا وعاد إلى الداخل، فالتفت الشقيقان نحو بعضهما:

_ " هل تعرف بماذا أشعر يا حسن؟ "

_ " بأنك غبي.. "

_ " أشعر بأن إبطي يلتصق.. "

_ " وأنا أيضا، أظن أن.. "

_ " أظن أن الطلاء قد وصل إلى.. "

_ " إلى أين.. "

_ " إلى.. "

_ " إلى أين تحديدا؟ ابتلع الطلاء الذي في لسانك وتحدث مجددا، لا أقدر على فهمك.. "

_ " لا يهم يا.. حسين، سأذهب إلى.. الحمام.. الآن.. "

_ " انتظر، ستتركني مع (تاز) هنا! "

_" لن يأكلك.. "

ونظر (تاز) إلى حسن فكان يمشي مبتعدا يبدل خطواته بكامل جسمه، فكأنما هو لعبة متيبسة تحركها يد خشبية من أعلى.

***

في المساء، وكان مساء نقيا، ذا سماء صافية ليس عليها غير ندفات من السحب المتوقفة، كان الناس يعودون من أشغالهم مشيا على الأرصفة،

بعضهم يحمل أكياس الحاجيات ولا يتوقفون عن التحدث والشكوى إلى الذين بجانبهم، كانوا يرتدون سترات حائلة وسراويل متشابهة وأحذية مجروحة، وبعضهم يطأطئ رأسه يمشي صامتا، بعضهم يختفي في الحوانيت والمقاهي وبعضهم كان يكمل سيره، كذلك كانت أبواق السيارات ترن ضيقا بالزحام على الطريق خلف بعضها.

احتك كتف (تاكفا) بكتف أحدهم فالتفت ليعتذر منه فلم يرَ إلا ظهره مبتعدا. وكان هو و مراد ـ في مشيهما ـ يقصدان بيت المرأة التي اختفى زوجها الذي كان قد وقف مع (تاكفا) كشاهد في المحكمة ضد مفتش الشرطة السابق، يقصدان التحدث إليها وسؤالها عما حدث لتروي لهما الأمر مجددا، وعبرا الطريق إلى الجهة الأخرى و عندما وقفا أمام هشام ينظران إليه حائرين مندهشين لأنهما لقياه يتجول بكتف مربوطة.

ـ " اووه، ما الذي تفعله هنا يا هشام، هل هربت من المشفى؟ " صاح مراد بقلق.

فرد هشام ناظرا إلى الحزام حول كتفه:

ـ " لا يمكن للألم أن يعرف إن كان في المشفى أم في الخارج، أعني لا يهمه أين أتجول، فهو في النهاية سيختفي بعد ساعات قليلة.. " ورفع وجهه الصلب نحو مراد وأتم بثقة:

" أليس كذلك "

فلم يكن من مراد و (تاكفا) إلا أن طلبا منه الانضمام إليهما، و إنما فعلا ذلك حتى لا يتركاه لوحده ويقلقا عليه بعدها، إذ أن فتيان السيد (خوني) يترصدونه ورفاقه في كل زاوية، و لن يحيدوا عن ضربه إن هم رأوه يتجول لوحده على تلك الحالة، هكذا ترافق الثلاثة نحو بيت المرأة، لكن بعد خطوات قليلة فقط لمح (تاكفا) شخصا يمشي على الرصيف المقابل فأثار اهتمامه بشكل كامل، فوقف يتابعه مشدوها و على وجهه أمارات الفزع :

ـ " تاكفا، ما بك؟ " قال مراد وهو يعود نحوه، و لأن فم (تاكفا) كان معقودا في تلك اللحظة فإن مراد نقل بصره إلى نفس الموضع وكذلك فعل هشام أيضا فلمحا رجلا محني الرقبة يمشي بخطوات سريعة، في اتجاه مباشر كوحيد قرن غاضب، لا يبتعد لأحد ولا يرى غير الموضع الذي سيضع عليه قدمه في الخطوة التالية:

ـ " هو نفسه.. " قال (تاكفا) بصوت بارد.

ـ ـ من؟ "

ـ " هو نفس الشخص الذي رأيته في الحمام أول مرة.. الحقنة.. عندما كنت في غيبوبة.. "

وضيق مراد عينيه نحو الرجل أكثر:

ـ " هل أنت متأكد؟ "

ـ " متأكد.. "

ـ " لكن هذا هو المحامي.. المحامي لطفي الذي حدثتك عنه البارحة.. "

ـ " هل تقصد أنه هو من تولي قضيتي! "

ـ " هو من تطوع، أجل.. لكن لمساعدتك أم لشيء اخر! لست متأكدا من ذلك يا (تاكفا) "

ـ " سأقوم بتعقبه إن كنتما بحاجة لهذا.. " وبهذا فرقع هشام قائلا بعد أن استمع لحديثهما باهتمام بالغ، فنظر إليه الاثنان وقد ركبهما الفضول لما سمعاه من الفتى:

ـ " ما الذي قلته يا هشام؟ " سأله مراد.

ـ " أستطيع تعقبه دون أن أكشف نفسي.. إن رغبتما.. "

وأرخى (تاكفا) عضلات وجهه وراح يهلهل رافضا:

ـ " لا، لا تفعل يا هشام.. إياك أن تفعل، عدني أنك لن تقوم بهذا.. "

وبوجه يشبه حجر الصوان، رد هشام دون أن ترمش عينه حتى:

ـ " لن أعدك.. لكن سأقول إنني لن أفعل.. "

وهنا رفع مراد كفيه عاليا وهوى بهما على جنبيه بقوة، ولم يقل شيئا بعد ذلك كونه يعلم علما لا ريب فيه أن هشام إن هو نوى أن يقدم على أمر ما، فلا سبيل لمنعه.

الحي رقم 05.. الكثير من العمارات المتراصة جنب بعضها، ذات النوافذ الخشبية، والجدران الباهتة المنسلخة، وقف الثلاثة تحت نافذة قريبة يشاهدون موضعا قال مراد أنه الموضع الذي رقد فيه (تاكفا) بعدما سقط من أعلى، رفعوا رؤوسهم نحو الطابق الثالث، وكان السقوط من تلك المسافة يبدو مرعبا ومخيفا، بقدر هائل، حتى أن مجرد تخيل الأمر جعل جسم (تاكفا) يقشعر ويهتز بكامله، وبينما هم على تلك الحال، يتبادلون كلاما خفيفا عن الحادث، إذ بأحد المجانين يظهر من خلف العمارة يجر أسماله البالية نحوهم، أشعث الشعر تغطي وجهه المجعد لطخات سوداء ولحية مربوطة بخيط من الصوف الأحمر، كان رجلا يقارب السبعين من عمره، عيناه عميقتان وله

شفتان يابستان تمضغان قشة صفراء دون توقف، ورائحته توخز أنف المرء من على بعد أربعة أمتار كاملة.. مثل أن أحدهم يدس غصنا في أنفك.. ما إن وصل عندهم حتى انتصب مكانه وجعل ينقل عينيه المتسختان بينهم واحدا تلو الآخر، حتى إذا كرر ذلك خمس مرات أو ستة، دفع إليهم بعبوة ماء كان يحملها في يده وانتظر قليلا يحدق إليهم ثم رفع سبابته إلى فمه، حك أذنه بيده الأخرى ومضى في سبيله بعدها دون أن يكون قد قال شيئا، فنظر (تاكفا) إلى العبوة في يده و ألقى بها عند شجرة قريبة:

_ " هل نصعد؟ " قال مراد بعدها.

وانسل (تاكفا) من شروده:

_ " أجل، هيا.. "

كانت الشقة بسيطة وهزيلة، تشكل نمطا قويا عن الشقق الفقيرة، ينعدم فيها الأثاث تقريبا إلا ما كان ضروريا يخدم حاجات حيوان ناطق توجعه مفاصله، ذات جدران باردة ليس عليها صورة واحدة معلقة، إذ أن امرأة في الستين من عمرها ظنت أن ليس هنالك من داع _ بعد أن بقيت لوحدها _ لأن ترى جسرا أو نهرا أو واديا جميلا معلقا على الجدار داخل إطار خشبي مربع، فليس لذلك أن يجعل الإنسان يمضغ طعامه بحماسة عندما يجلس على

مائدة الفطور لوحده، وبينما هي تسحبهم نحو قاعة الضيوف، تراءى لها أن تتركهم لوحدهم ريثما تضع غلاية القهوة على الفرن البارد .

لم يدم غيابها طويلا حتى عادت تحمل صينية نحاسية وضعتها أمامهم على مائدة صغيرة، أيضا عادت تحمل على وجهها الحزين ابتسامته المتآكلة، ولو أنهم سألوها إذن لأخبرتهم أن ذلك أقصى ما يمكنها تقديمه لهم، تناول مراد و (تاكفا) فنجانيهما واتكآ على الأريكة، وقعد هشام يتأمل المرأة بينما جلست تجمع يديها على حجرها دون أن تقول شيئا، بعينين ذابلتين تدمعان وتلمعان دون توقف.. وبعد رشفتين صغيرتين:

ـ " حفظك الله يا عمة.. " لفظ مراد بخار القهوة هكذا، وأعاد الفنجان إلى مكانه: " والآن بما أنك ما زلت تتذكرينني فسأدخل صوب الموضوع مباشرة.."

ورمشت عينا المرأة، وابتلعت ريقها، وأرادت أن تقول شيئا:

ـ " تفضل يا بني، أعرف ما الذي ستقوله، وسأجيبك عن أي شيء ما دمت أنت الوحيد الذي يهتم لأمر زوجي المسكين.. "

واعتدل مراد مشيرا بذراعه إلى (تاكفا).. وكان يجلس بجانبه:

ـ " في الواقع لست الوحيد يا عمة، هذا صديقي (تاكفا) "

ـ " تاكفا.. تقول تاكفا.. تاكفاريناس .. " قاطعته المرأة وقد لفظت الاسم الأخير دون قصد منها.. كأنما سقط إلى مقدمة رأسها فجأة.

ـ أجل.. (تاكفاريناس).. هل.. "

ـ " ربما سمعت هذا الاسم مرة.. "

وأطرق الثلاثة لما سألها مراد إن كانت تقدر على تذكر أين كان ذلك:

ـ " ربما عندما ضربني المختطفان وسقطت أرضا.. " ردت المرأة: "قبل أن أفقد وعيي.. أظنني سمعت أحدهما يقول للآخر ـ اختبئ يا (بريكو)، سيدخل (تاكفاريناس) وسنهجم عليه من الخلف معا ـ لا أستطيع أن أتذكر الأمر جيدا، اعذرني يا ولدي.. أعرف أنهما كانا يراقبان شخصا يعرفانه من النافذة وهو يدخل العمارة.. "

ولما سمع (تاكفا) هذا، أنشأ يقول متعجبا وهو يرفع ظهره عن ظهر الأريكة:

ـ " هل ذكرا اسمي حقا؟ "

و أومأت العجوز بتردد كأنما خافت أن تكون قالت شيئا لم يكن عليها قوله، ردت بينما تنكمش ملامح وجهها:

_ " لا يمكنني أن أجزم يا ولدي، لكن أظن أن هذا ما سمعته.. " ثم إنها تمسكنت وأردفت تقول بوجل: " لكن من تكون أنت يا ولدي، هلا أخبرتني؟"

_ " أنا ذلك الشخص.. أنا من قاما بإلقائه من نافذة بيتك يا عمة.. "

_ " هل كان ذلك أنت حقا؟ أووه يا ولدي.. أنت كنت ذلك الشرطي الذي جاء إلى بيتي؟ "

وقامت المرأة فأمسكت يديه وقبلتهما، وعندما رد الجميل وقبل رأسها، فإنها عادت إلى مكانها والدمع يطفح في عينيها، ومضت لحظات حتى هدأت عبراتها، فأنشأ (تاكفا) يسألها:

_ " يا عمة.. "

ورفعت المرأة رأسها، فلم يكن سوى أسى الفقد يمر ثقيلا أمام عينيها، قالت بصوت ذابل:

_ " نعم يا ولدي، ما الذي قلته؟ "

_ " هل تقدرين على إخبارنا بما حدث ، أعني على قدر ما تذكرينه.. "

وأنزلت العجوز عينيها نحو السجادة.. مضت تغمغم بصوت متهدج:

_ " شاهد زوجي رجلين يختطفان أحد الجيران هنا.. أخذ آلة التصوير والتقط صورة.. تعرفان الباقي.. وقف معك أنت في المحكمة ليشهد ضد

الحكيم جمال.. ثم بعدها.. " ارتعشت شفتاها وكادت تنطلق باكية وهي تحدق في الفراغ أمامها:" كنا نائمين في الفراش عندما سمعنا طرقا على الباب، وعندما خرج زوجي ليفتحها وضع أحدهم يده على فمه حتى لا يصرخ، لكنني سمعت ذلك... كان يناديني، كان يفقد وعيه بين ذراعي الرجل الكبير عندما رأيته، ثم هاجمني الرجل الآخر وضربني على رأسي وأنا أنظر إليه مباشرة.. كان يضعان أقنعة على رأسيهما.. وضعت يداي على وجهي وسقطت على الأرض.. سمعت القليل مما قالاه.. وفقدت وعيي.."

_ " ألم يقولا شيئا اخر؟ "

_ " حتى لو كان ذلك، فليس لدي القدرة على تذكره.. "

_ " حسنا، تلك الصورة التي التقطها زوجك، أليست هنالك واحدة أخرى؟"

_ " للأسف لا توجد.. ربما لأن زوجي طبعها على عجل ولم يفكر في احتمال فقدانها.. "

_ " والآلة التي التقط بها الصورة، هل ما زالت موجودة.."

_ " نعم.. هي في الدرج هناك في الخزانة.. "

ونظر الثلاثة نحو الموضع الذي أشارت إليه المرأة، بينما هي تضيف قائلة:

_ " لكنها لن تفيدكم في شيء.. حتى الشريط الذي كان فيها ذهب مع زوجي، كان يضعه في جيبه عندما قاموا باختطافه.. "

قالت المرأة وقامت نحو الخزانة ففتحت الدرج بحثت فيه قليلا وعادت تقول بينما تناول (تاكفا) صورة قديمة:

_ " انظر، هذا هو.. "

وبينما ثلاثتهم يتأملون وجه زوجها الغائب. تذكرت أنها تركت قدرا يغلي على النار فاعتذرت منهم كي تتفقده، ولما غابت المرأة خلف الباب فإذ بصياح عميق يرتفع من الخارج، كان صياحا مخنوقا و قويا كأن صاحبه يشعر بالألم، ركض (تاكفا) ومراد إلى النافذة يطلان نحو الأسفل فكان ذلك المجنون الذي وقف أمامهم قبل ذلك وناولهم قارورة الماء الفارغة، يقف متصلبا أمام عمود إنارة يضاجعه.

عادت المرأة بعد ذلك وراحت تقول من ورائهم:

_ " قبل خمس سنوات كان يوجد اثنين فقط منهم في هذه المدينة، لكن مؤخرا باتوا يأتون من كل مكان ويصبون هنا.. "

_ " لاحظت ذلك أيضا.. " قال مراد ثم انتبه لنفسه فرمق هشام بنظرة سريعة وعاد يقول بعدها:

ـ " على أية حال، شكرا جزيلا لك يا عمة.. نحن سوف نذهب الآن بعد إذنك.. "

مدت المرأة يدها خلفهم بينما يغادرون الغرفة:

ـ " هل ستواصلون البحث عنه يا أبنائي؟ "

فرد مراد مطمئنا:

ـ " بالطبع يا عمة، أعدك أننا لن نتوقف عن هذا حتى نأتيك بخبر.. "

ثم انسلا خارج العمارة ومضيا يعودان أدراجهما.. بوجوه كالحة هائمة.. و إن كان شيء قد حصلا عليه من هذه الزيارة فإنما هو المزيد من الأسئلة.. من يكون (بريكو) هذا أيضا؟؟

حل الليل وتدفق الظلام كضباب أسود على المدينة، و أنيرت الشرفات وأسدلت الستائر، وعند العجوز الهولندي ـ العم يوسف ـ كان الحطب يأكل بعضه بعضا في الموقد مع أن الصيف كان يركل أيام الربيع بعيدا عن طريقه، طرقت باب بيته فقام يفتحها بظهر متصلب.

رسم (تاز) وجه رأس باستعمال إصبعه على كتف الأريكة المغبرة ثم قام بمسحه وعاد ينظر نحو المفاتيح والطوابع المعلقة على الجدران حوله، وكان الشيخ يوسف يوشك أن يناول (تاكفا) لوحا فيه مفتاح قديم عندما فرقع ظهره

فأوشك أن يسقط على ركبتيه من الألم، فأسرع الرجلان نحوه وأجلساه في مكانه:

_ " أرجوك لا تتعب نفسك يا عم يوسف، فقط أجلس مكانك.. " قال مراد بحنية.

ورد العجوز وهو ينفث نفسا ثقيلا من بين شعر وجهه الرمادي:

_ " إنما أردت أن أري صاحبك هذا المفتاح خصيصا لأنه كان يحب رؤيته في ما مضى.. "

ودهش (تاكفا) لذلك فنطق:

_ " أحقا يا عم يوسف، أنا كنت أفعل هذا؟ " ونظر إلى اللوح بين يديه وفيه مفتاح فضي اللون ومزخرف بتفاصيل جميلة.

_ " عندما لا يكون لديك عمل، كنت تأتي إلى هنا تقف لساعات تتأمل هذه الأشياء المعلقة... كنت تقف طويلا عند هذا المفتاح يا ولدي، بالطبع أنا لا أعرف سبب ذلك.. "

أغمض (تاكفا) عينيه لثانيتين وأعاد فتحهما وقد بانت على وجهه ابتسامة فهمّ يقول فرحا:

_ " أليس هذا مفتاح البلدية القديمة أم أنني مخطئ.. "

_ " هو قبل أن يعاد بناؤها.. " رد العجوز وقام مرتكزا على ركبتيه نحو خزانة قريبة فأخرج من درجها صورة قديمة وأتى بها عند الصغار فناولها هشام من بينهم وعاد نحو مكانه بينما يغمغم:

_ " هكذا كانت دار البلدية قبل عشرين سنة، عندما لم يكن الثلج قد فقد رغبته بعد في زيارة المدينة.. "

تبادل الصغار الصورة بينهم حتى وصلت عند هديل فأمسكتها بأصابع يديها الصغيرة وحدقت فيها طويلا لوحدها، أيضا لم تمر الصورة بين يدي حسن وحسين دون أن يعاندا بعضهما ولو لثانية حين أبى كلاهما إلا أن يضعا يديهما معا عليها، كانت صورة لبناء حكومي تحفه جنينة تملؤها الأشجار البيضاء الثقيلة فروعها بندف الثلج الباردة، كذلك الأرض كانت كبساط أبيض لا ينتهي، وأناس كانوا يتراشقون الثلج بمرح غامر، و العجوز قال ذلك ليس إلا لأنه لم يرَ الثلج يسقط منذ تلك الفترة البعيدة.

نطق هشام قائلا :" هل اشتقت إلى بلدك يا عم يوسف؟ "

وتأتأ العجوز كأنما فوجئ بالسؤال، وفتح عينيه نحو هشام كأنما كانتا ملتصقتين بقوة:

_ " هاه!.. لا يا بني، أبدا.. " قال وصمت بعدها، وخضعت جوارحه وهبطت فيما يشبه أن بردا أصابه، والحقيقة أنه كان لا يرجو في تلك اللحظة شيئا أعظم من ألا يخوض هشام في هذا الأمر أكثر، لكن ولأنه لم يكن من الممكن للتوأم أن يصمتا في لحظة كهذه فإن حسين هتف يقول وكذلك أمنه أخوه على قوله من بعده تواليا:

_ " أرجوك يا عم يوسف، أخبرنا لماذا تركت هولندا وجئت إلى الجزائر.. "

_ " أجل، أرجوك أخبرنا، أرجوك يا عم يوسف.. نريد أن نعرف.. "

وهنا نظر العجوز إلى مراد ثم إلى (تاكفا) ثم إلى (تاز) ثم إلى عيني هديل الدافئتين فلم يجد بدا من الخضوع لتلك النظرات المتلهفة، جذب كيس فحم صغير بقربه ودس بعض الحجرات في الموقد وعاد يتنهد في مكانه، و أراح كفيه على ركبتيه ومضى يحكي قصته بصوت اختلط بفرقعات الجمرات المتكسرة:

_ " بدأ الأمر عندما كنت شابا، وكنت أبحث عن امرأة لأتزوجها.. ليس مجرد امرأة، لكن تلك التي عندما يراها الإنسان لأول مرة يعتقد بأنه ولد حينها.. أجل، بحثت كثيرا، حتى وجدتها.. المرأة التي عندما رأيتها شعرت أنني ولدت فجأة، كأنني لم أكن.. " ولم يستطع العجوز أن يقول أكثر من ذلك

حتى أظلمت عيناه وبان عليه التعب وسقطت ملامح وجهه، وظن الجالسون أنه سيأخذ يبكي في أية لحظة، إلا أن العجوز تنهد تنهيدة بسيطة واستتلى يقول وعيناه تنظراه إلى الفراغ أمامه:

ـ " بعد سنتين من الزواج رزقنا بطفلة.. كانت أجمل طفلة، شعرت أنني ولدت مرة أخرى.. هكذا كانت تصنع بي الأفراح فيما مضى... بعد أربعة سنوات مرت كانت ابنتي تشبه الأميرة الصغيرة، كانت تفتح فمها الجميل وتقول أشياء تجعلني أفخر بها كأنما.. كأنما.. أووه.. أووه.. في تلك الليلة عدت من العمل مسرعا، ركضت حتى انتفخ صدري.. كان الجو ممطرا وكنت أسرع مثل طفل صغير يهرول نحو ملعب كرة قدم.. في البيت كانت زوجتي قد أعدت كعكعة وجهزت كل شيء تقريبا، وعندما وصلت.. كنت قد اشتريت بعض الحاجيات فوضعتها جانبا ورحت أضع الشموع على الكعكة.. وضعتها، أجل.. وضعتها... كانت ابنتي تلعب في غرفتها ولم تكن تعرف بأمر الحفلة، لكن زوجتي أخبرتني أنني نسيت الهدية في المحل.. مثل الأحمق، ركضت عائدا... " هنا سقطت عبرة من عين العجوز واستقرت عند أصابع قدمه، وتنهد تنهيدة أخرى فقاطعه مراد قائلا:

_ " أرجوك يا عم يوسف، دعك من قول هذا.. لنغير الموضوع إن أردت ذلك.. " ، إلا أن العجوز أبى إلا أن يمضي في أمره و عاد يحكي بصوت غائم:

_ " لا يا مراد يا ولدي، أرجوك لا تقاطعني.. دعني أكمل، الحق مع الأولاد.. أظنني كنت في حاجة لهذا منذ زمن، لكنني لن أموت على أية حال إذا أخبرتكم، أليس كذلك! حسنا إذن، عندما أخذت اللعبة وعدت بها فإنني لم أعد إلى بيتي، لم أعد إلى عائلتي.. لقد عدت إلى بيت يحترق، وعدت إلى عائلة ميتة.. " وهنا تفاعل الجميع بالطريقة المناسبة، فمنهم من فتح فمه ومنهم من تباعدت عيناه ومنهم من أحس بألم في صدره، ثم إنهم حدثوه بما يُحدث به صاحب مصيبة حتى بان لهم أنه لم يعد في حاجة إلى العزاء منذ زمن، وإذ طلب منهم العجوز أن يكفوا عن ذلك فإنه عاد يكمل حديثه بصلادة كأن ريحا مرت عليه فمحت حزنه.. ومسح تحت أنفه:

_ " دعوني أكمل، أرجوكم دعوني أكمل.. كانت غلطتي، أقسم أنها كانت غلطتي.. أنا من وضعت الشموع بشكل سيء حتى انقلبت، أجل.. كنت سيئا في إشعال النار بحيث احرقت أجمل امرأتين في الدنيا، أجمل امرأتين مرّتا في عالمي.. هاه، أخبروني الان ألست اسوأ إنسان في الدنيا؟ ألست أغبى

إنسان في الدنيا؟ ماذا أكون أنا إن لم أكن أشرس شيطان في العالم أجمع؟ هل كان بمقدوري أن أبقى في هولندا لأكثر من شهر واحد؟ لا لم يكن.. أبدا لم يكن، فكرت في الانتحار لكني لم أجرؤ، فكرت أن أشنق نفسي.. لم أقدر، فكرت أن أحرق نفسي أنا أيضا لكنني كنت أجبن من أن ألمس قداحة بيدي مرة أخرى.. جربت أن أرمي بنفسي من أعلى جسر لكنني جلست أبكي كطفلة صغيرة، فكرت كيف سأنظر إليهما عندما أقابلهما في الجهة الأخرى.. كيف سأفعل ذلك، شيء واحد خطر ببالي، هو أن أهرب من ذلك البلد.. لم يكن يهمني إلى أين سأذهب، لكنني تذكرت الجزائر، في المعمل كنت أعمل إلى جانب رجل جزائري، كان مرحا جدا وطيبا مثل الملائكة.. سألته متى سيعود إلى البلد، لم يقل شيئا لكنه أخذ ورقة وكتب عليها عنوانا.. بعد يومين كنت أحمل الحقيبة عائدا إلى الوطن، أجل.. هذا وطني، فإذا كان قد حمل على ظهره كل هذه السنين شيطانا مثلي فلابد أن يكون وطني.. تتساءلون لماذا أشعل الفحم كل مساء أليس كذلك، سأخبركم.. حتى لا أنسى ما فعلته، أنظر إلى الموقد هكذا وأرى وجهيهما.. وأتظاهر بأني أحزن، هأ.. كأن الشياطين حزنت يوما على ما تفعل.. هذا كل شيء، وهكذا انتهى بي الأمر

هنا، تعلمت لغتكم وها أنا أصلح السيارات صباحا وأعود إلى غرفتي في المساء لأضع الحساء على الموقد ليحمى.. "

تنهد العجوز وأطلق زفرة عظيمة وشابك شفتيه مع بعضهما، ومجددا ظن الجالسون أنه سيأخذ يبكي، لكنه ومجددا كان أكثر قوة، مد ظهره طويلا حتى فرقع وجعل ينظر عند قدميه مثل الأرملة التي مات زوجها.

تنهد (تاز) طويلا رافعا ذقنه لأعلى ثم أطلق عطسة لاذعة، وكان هشام يهم بأن يسأل العجوز عن سبب بقائه في هذه المدينة خصيصا:

_ " هممم، ليس لدي جواب محدد، غير أنني لم أهتم للمكان الذي كنت سأعيش فيه ما دمت سأخرج من هناك، حتى لو كان العنوان الذي أعطاني إياه ذلك الرجل الجزائري سيقودني إلى أرض الشياطين لما تأخرت ساعة واحدة عن الالتحاق بإخوتي.. وإنني أقول هذا بصدق يماثل صدق زوجة الشيطان عندما تخبر زوجها بأنها عندما تنظر إليه فإنها ترى ما يشبه الشيطان تماما.. هذا ما أقوله "

رد هشام بصوت هادئ:

_ " أنا عن نفسي أكره هذه المدينة.. "

_ " من حقك أن تفعل ذلك، من حقك.. "

قال العجوز ذلك وعانق صدره مستعينا بذراعيه في فعل ذلك: " وأنا ما كنت سأبقى هنا لو كنت إنسانا يستحق أن يعيش في مكان جميل وهادئ.. في الواقع أنت وأصدقائك تستحقون أن تعيشوا في مكان جميل وهادئ.. هممم، سأسالكم شيئا وأرى كيف تكون إجابة كل واحد منكم.. "

ولما كان العجوز وجه كلامه هذا إلى الصغار جميعا، فإن (تاز) والتوأم هزوا رؤوسهم موافقين على ذلك، وإذ ذاك فتح العجوز شفتيه اليابستين وراح يلفظ الكلمات كأنما يمر الزمن ثقيلا أمام وجهه:

_ " هاه.. الآن.. إذا كان لديكم مائة، لنقل ألف.. ألف شمعة.. إذا كان لديكم ألف شمعة مضاءة، وأردتم إطفاءها فكيف ستفعلون ذلك.. أخبروني، لكن بالدور، فليخبرني كل واحد منكم.. "

أخذ حسين الدور أولا:

_" أريدها أن تكون جميعها قرب بعضها وسأصعد سلما وأرمي عليها بطانية ثقيلة.. "

_ " هاه، فكرة جيدة لكن بطانيتك ستحترق.. "

قال العجوز وانتقل إلى حسن مادا إصبعه نحوه:

_ " وأنت، أنت ما رأيك؟ "

وفكر حسن قليلا:

_ " أمم، بما أن البطانية احترقت.. " وهنا انفلت الجميع ضاحكين بما فيهم مراد و (تاكفا)، وواصل حسن يقول لما سكت الجميع بعدها: " لا أدري، في الأصل حسين سرق فكرتي.. "

وانطلقا يتهارشان مجددا.

_ " كأنك تقدر على التفكير في أي شيء غير بطنك!! "

_ " أنت تظلمني يا أخي.. لكنك تعرف أنني أفكر مثلك في أحيان كثيرة.. "

_ " مستحيل.. "

_" بلى.."

_" مستحيل.."

_" بلى.."

_" مستحيل.."

_" سارق الأفكار.."

_ " حسنا، لا تتشاجرا.. يكفي، وأنت.. أخبرني.. "

زمجر العجوز متناسيا حزنه الذي كان وتوجه نحو (تاز) هذه المرة، والذي كان يجلس القرفصاء على الأريكة وينظر إلى العجوز بتلك النظرة التي يتميز بها والتي تشبه أنه ينظر إليه لكن لا يقدر على رؤيته أبدا، و إذ ذاك فإن (تاز) أبعد شيئا من خصلات شعره الصفراء عن عينه وقال فيما قاله بصوته اللين المتقطع:

_ " أنا سأجعل مالي يذ.. يذهب في.. في أشياء مفيدة ولن.. ل.. لن أشتري ألف شمعة لأجعلكم ترون كي.. كي.. كيف سأفشل في إطفائها.. " أيضا ومرة أخرى انفلتوا ضاحكين حتى ذهبت أنفاسهم، حتى أن (تاز) نظر إليهم واحدا تلو الآخر ولم يكونوا بعد قد كفوا عن الضحك، عاد العجوز يأخذ بسؤاله هذه المرة نحو هديل، فإذ بها ارتبكت ولم تكن تحب أن ينظر الجميع إليها، لكن وفي النهاية قوت على أن تقول شيئا:

_ " إذا كنا في الجبل فستطفؤها الرياح بسرعة.. " وخفضت عينيها فيما تقول خجلا: " أظن"

هلل العجوز فخرا:

_ " أحسنت يا بنتي.. هذا يجوز أيضا، بل يجوز مثلما كان يجوز لك أن لا تعطي إجابة جميلة كهذه.. "

ـ " ارتأيت لماذا يوجد هذا الشيء بداخل رأسك.. " هكذا أخذ حسين يلوم أخاه بينما يدق بأصبعه على رأسه: " لكي تفكر به هكذا.. "

فرد حسن وهو يبعد يد شقيقه عن رأسه:

ـ " في الحقيقة أنا أستعمله بشكل سري جدا.. "

ـ " وأين ذلك.. "

ـ " ستعرف، ستعرف غدا عندما.. " لكن حسن لم يفرقع أكثر من ذلك حتى ضربه أخوه على خده:

ـ " دعك من التفكير الآن وعد كما كنت قبل لحظة.. هذه الليلة يكفي أن تستعمل أذنيك فقط " وعاد كل منهما إلى جلسته دون أن يضيفا شيئا، والحقيقة أن حسين لو لم يمنع أخاه من الانطلاق في الحديث لكان أفشى أمرا كانا لم يكونا يخططان لكشفه.

التفت العجوز إلى هشام بعدها:

ـ " وأنت، أنت تظهر أنك ستجيبني.. قل ما عندك "

لكن هشام وبتلقائية بالغة، وبلا مبالاة رد وعينيه لا تبارحان عيني العجوز الغائرتين في وجهه:

ـ " لنقل أنها مليون شمعة، يكفي أن تغمض عينيك ولن تعود موجودة.. "

نظر الجميع إليه مستغربين جوابه، لكن العجوز الهولندي فاجأهم بأن هتف مثل شاب هائج:

ـ " سوف أحلق رأسي إن لم يكن هذا الطفل أحمقا.. "

حينها توجهت نظراتهم نحو العجوز وكلها دهشة، فطفق يتلو ويفصح عما بداخله بعد نفس هادئ:

ـ " انظر يا ولدي، كان جوابك عظيما.. بل سأحلق رأسي إن لم يكن عظيما، أحب الأشخاص الذين لا يتكلفون في الإجابة.. لكنني ما سألتكم إلا لأجيبك عن سؤالك حين سألتني لم أبقَ في هذه المدينة، في الحقيقة وأنا أيضا مثلكم أعرف كيف أطفئ الشموع دفعة واحدة، بطريقتي.. ولو كانت سيئة.. لكنها طريقتي.. وهي ناجحة.. هكذا وجدت أن أطفئ أحزاني.. أول الأمر فكرت في الذهاب إلى أستراليا وأن آخذ نعجتين وأتبعهما إلى الجبل.. لكنني لا أستحق هذه العيشة الحسنة.. هنالك أشياء لسهولتها لا نعرف كيف نتعامل معها، وأخرى لصعوبتها نحسن التعامل معها جيدا.. فمثلا أنا لو ولدت مثلكم هنا لكنت رحلت إلى مدينة مجاورة منذ زمن.. لكنكم لا

تفعلون ذلك، ولا أدري لماذا.. هذه المدينة ستبتلع أحلامكم إن كبرتم فيها.. ستمحوها كما تمحو البغلة رؤوس الزهور كلما أطلت.. "

وهنا انتفض هشام يرد على كلام العجوز بثقة بالغة:

_" لو كنت أجلس مكانك لقلت هذا الكلام أيضا.. "

_ " أعرف، أعرف يا ولدي.. كلنا هكذا، عندما لا يكون التراب فوق رأسك تسأل الآخرين لماذا لا ينفضون رؤوسهم.. تظن أنهم إذا حركوا رؤوسهم بقوة فستكون تلك هي أفضل طريقة يمكن أن ينظفوا بها أنفسهم.. "

قال (تاكفا):

_ " هل لي أن أسألك يا عم يوسف.. "

_ " طبعا! "

_ " أذكر أنه كانت تقام مسابقات للداما بين كبار السن في المقهى الذي يقع قرب المسجد أيام السبت والأحد، فلم توقفت.. ذهبت إلى هناك قبل يومين ولم يكن هنالك أي أحد.. "

_ " آه، ذلك.. لم تعد هنالك طاولة، لأنه لم يعد هنالك لاعبون يا ولدي، لقد اختفى نصفهم.. "

_ " لكنك كنت واحدا منهم! " سأل مراد.

ـ " كنت واحدا منهم، لكن لم أعد أرى معظمهم، منذ شهور قليلة كان عددنا ينقص كل مرة.. هيه، ليتني أعرف سبب ذلك، لقد اشتقت إلى البعض منهم.. "

نظر مراد و (تاكفا) نحو بعضهما وبانت على كل واحد منهما الحيرة:

ـ " أترى يا ولدي، حتى الكبار يهربون من المدينة، باتت سمعتها سيئة جدا... لا أدري إلى أين يرحلون هكذا.. لكنني سأبقى هنا حتى يأخذني الأجل، أنا واثق من هذا.. "

ـ " هل كنت تعرف جدي؟ " نظر الجميع إلى هديل لما نطقت تقول فجأة.

ـ " ماذا؟ "

ـ " كان هنالك عجوز اسمه توفيق.. " تدخل مراد قائلا: " في مثل سنك تقريبا، ألا تعرفه؟ "

وبان على العجوز الهولندي أنه تذكره:

ـ " آه، توفيق.. أجل، كان يهزمني كثيرا، هأهأهأهأ.. وأنا كنت أتحدث عنه عندما قلت إنني اشتقت لبعضهم.. ذلك المشاغب.. " والتفت العجوز إلى هديل يخاطبها: " إذن فهو جدك، إلى أين ذهب، أخبريني.. "

ـ " أنا لا أعرف يا عمي، وأنا أيضا أفتقده بشده.. "

هنا رفع العم يوسف عينيه إلى مراد و (تاكفا) مستخبرا، فرأى أحدهما يهز رأسه فيما الآخر يعض شفتيه أسفا:

ـ " آه، إذن هل سيُفهمني أحدكم ماذا يجري؟ "

ـ " في الحقيقة لا أحد يدري.. " رد مراد: " من الواضح أن هنالك أمرا غريبا يحدث، نعرف خمسة أو ستة أشخاص فقدوا هكذا فجأة خلال الأشهر الأخيرة.. لكن كيف وأين اختفوا!! نحن نحاول اكتشاف ذلك.. "

ـ " تحاولون اكتشاف ذلك!! بالطبع، في النهاية هذا ليس من عمل الشرطة.."

ـ " للأسف! "

ـ " وماذا عن المجانين الذين باتوا يتدفقون إلى المدينة، هل لاحظتم هذا؟"

ـ " نعم، اختفى البعض فجأة، وبدلا منهم جاء المجانين كأنما أحدا يبادل بينهم.. هنالك من ينفذ عمليات اختطاف من وقت لآخر.."

ـ " أووه، ليتهم يقصدونني في المرة القادمة.. "

ـ "لا تقل هذا يا عم يوسف، لن يختطفك أي أحد.. "

_ " بالطبع لن يفعلوا، ومن يجرؤ.. إذن تعتقدون بوجود عصابة تختطف الناس، هذا ما تقولونه! "

_ " لسنا متأكدين من ذلك، لكننا نعرف شخصا أو اثنين يمكننا البدء منهما.. "

_ " أهاه! "

_ " إذا قلنا المفتش سليم.. "

_ " الذي مات قبل أشهر؟ "

_ " هو يا عم يوسف، فلدينا ما يثبت تورطه في أمر كهذا.. "

_ " أهاه! "

_ " الحكيم جمال.. "

وبرقت عينا العجوز فجأة.

_ " المحامي لطفي.. " أضاف مراد، فهتف العجوز والذهول باد على وجهه:

_ " الحكيم جمال والمحامي لطفي؟ "

_ " نعم.. "

_ " سيطلق الشيطان زوجته إن كان ذلك صحيحا.. "

ـ " سنرى ذلك.. لكن ينبغي علي أن اسألك إن كنت سبق لك ورأيتهم يتجولون معا في أي وقت مضى؟ "

وطأطأ العجوز رأسه مفكرا، وأخذ يلعب بعينيه يمنة ويسرة، قال بعدها:

ـ " ربما رأيت المحامي مع المفتش في المقهى، أظنني رأيتهما هنالك يتبادلان الحديث بينما كنت أمر إلى عملي.. "

ـ " أي مقهى؟ "

ـ " مقهى ـ الفرح ـ، بجانب بائع اللبن.. "

ـ " وهذا ما نبحث عنه تحديدا.. "

ـ " أجل، هذا ما نبحث عنه يا مراد.. " أضاف (تاكفا)، وقام بعدها، فقام معه مراد وكذلك الصغار خلفهم، شكروا العجوز وتمنوا له ليلة طيبة ومضوا إلى الخارج.

وبينما مراد و (تاكفا) وهديل يصعدون إلى الطابق العلوي تحدث (تاكفا) عن رأيه في العجوز وقال أنه عجوز مرح وطيب للغاية، فرد عليه مراد قائلا وهو يضع المفتاح في شقه:

_ " دعني أخبرك أنه لو أنني لا آخذ إليه أجرته نهاية كل شهر، فهو لن يأتي على ذكرها أبدا.. حتى أني أضطر أحيانا لمغالبته في الكلام حتى يأخذها.. ".

في الخارج، في الساحة الكبيرة، كان الصغار يغادرون إلى وكرهم وهم يتحدثون عن خطط الغد وكيف ينبغي عليهم مباشرة العمل عندما تشرق الشمس صباحا، قال (تاز) مميلا رأسه حتى يكون بمقدوره أن يرى حسن الذي كان يمشي على الجانب الآخر:

_ " أنا أمسك بها.. ليس عليك أن تقوم بذلك إن كنت خائفا.. "

_ " لست خائفا .. لكن لدي يدين فقط، وأنا أحتاجهما من وقت لآخر، في العمل.. كما تعلم"

وعاد (تاز) ينظر نحو زقاق مظلم كانوا جميعا على وشك أن يختفوا بداخله:

_ " أنا سأقوم بذلك إذن .. "

فنطق حسين يعلق على كلام شقيقه:

_ " لا تصدقه يا (تاز)، أقسم أنه خائف.. "

_ " شرفنا إذن وقم أنت بذلك.. "

ـ " سأقوم بذلك، أعني لو لم يكن لدي عمل يتوجب علي القيام به بعدها.. عمل عظيم يا حسن، أعظم من الإمساك بأفعى.. إنه.. " وجعل يمشي مثل القرد ويصدر ما يشبه صوته، فبانت على وجه حسن دهشة عظيمة، طفق يمشي على جنب مثل السلطعون بينما يهتف فرحا:

ـ " هل هذا صحيح يا هشام، هل سنحرر القرد أخيرا!! "

ورد هشام بتلقائية:

ـ " أجل يا حسن.. غدا.. "

هنا انطلق حسن يركض بشكل جنوني وهو يصرخ من الفرحة.. يركل الجدران ويعوي في الظلام حتى سبقهم بمسافة وغاب أمامهم.

بحلول التاسعة صباحا.. كانت هنالك امرأة سمينة تقف على الرصيف تمد ذراعها.. توقفت سيارة أجرة فركبتها ومضت بعيدا، وبقي (تاكفا) واقفا على الرصيف لوحده، و كانت غير بعيدة عنه حينما سألته إن كانت سيارات الأجرة تمر من هنا، ولأنه كان لا يذكر الأمر جيدا، فقد هز رأسه لأعلى وأسفل، فاطمأنت المرأة، وكان حدسه صحيحا، وراح بعد ذلك يدخن سيجارته بهدوء بالغ، وظل يبعد عينيه عن المقهى من وقت لآخر ليتفقد بائع اللبن على

الجهة المقابلة وهو يصبه في أكياس شفافة ويرصفها خلف الزجاج أمام بعضها.

كان دكانا صغيرا لبيع اللبن، بجانبه مقهى نظيف يقصده العامة والخاصة، ولما كان يجلس في المقهى رجل مهم، ما وقف (تاكفا) هناك إلا لأجله فكان يفرد صفحات جريدته المكتوبة باللغة الفرنسية أمام وجهه ويطالعها بعينين مفتوحتين، وصل مراد ودنا من (تاكفا) وقال له:

_ " هل هو هنا؟ "

وأشار (تاكفا) رافعا ذقنه نحو المقهى:

_ " رائع.. وأنت فيمَ تفكر؟ "

أطفأ (تاكفا) عقب السيجارة تحت حذائه:

_ " لنسأل بائع اللبن.. "

وسريعا وافقه مراد على ذلك، فمشيا نحو الدكان وسلما على البائع وسألاه إن كان يعرف ذلك الرجل الذي يجلس لوحده يطالع الصحيفة باللغة الفرنسية، فقال الرجل أنه يعرفه جيدا، وأنه المحامي المعروف لطفي، أقوى المحامين في المدينة وأشهرهم، فسألاه عن المفتش سليم أيضا فقال بفخر بالغ أنه يعرفه، كمن صافح يدا مشهورة لوحده من بين ستين ألف يد كانت

تحاول تحقيق ذلك، حتى أنه كان يعرفه معرفة شخصية تمثلت في كونه ـ وفي عدة مناسبات مضت ـ كان يوصل له طلباته بنفسه إلى المنزل، ثم يعود رأسا إلى دكانه، و عندما رأى مراد و (تاكفا) الرجل وهو يمسح يديه في مرولة الذي يغطي بطنه المنتفخة بينما يقول ذلك، لم يكن منهما إلا أن صدقاه بقدر كبير جدا، بقدر جعلهما يطرحان عليه سؤالا آخر، قال الرجل فيه مجيبا:

ـ " أجل، رأيتهما.. بعيني هاتين اللتان في رأسي.. في الكثير من المرات كانا يأتيان إلى هنا، وفي مثل هذا الوقت تحديدا، يحتسيان قهوتيهما ويمضيان بعد ذلك.. لكنني لم أرهما يضحكان أبدا، كانا فقط يتحدثان كأنما يريدان تفجير الكوكب بحذر بالغ هل من شيء آخر يا سيدي؟ ".

***

كان بيتا صغيرا عند تقاطع شارعين، يشبه علبة الكبريت المكعبة بسقفه الأحمر ، هو من ذلك النوع من البيوت الذي عندما تنظر إليه فإنك تعرف مباشرة بأن سيدة عجوز تسكنه، لأن كل الأشياء فيه تبدو نظيفة ومرتبة من

الخارج، وقف حسن وحسين وهشام بكتفه المربوطة عند سور البيت في انتظار أن يسمعوا الإشارة، سأل حسن بعدما ظن أن (تاز) فشل في مهمته:

ـ " هل سننتظر كثيرا يا هشام؟ "

ـ " انتظر قليلا يا حسن.. "

وانتظر حسن لعشرة ثواني فقط، حتى انطلق صياح عظيم من خلف السور دق أسماعهم، وفي تلك اللحظة أشار هشام لحسن وحسين بأن يمشيا خلفه، وراحوا يتتابعون مع بعضهم حتى إذا وصلوا عند بوابة السور فإذ بامرأة عجوز تخرج من بيتها وتنادي عليهم بشكل هستيري طلبا للنجدة، نظروا إليها وكانت تركض كأن تحت قدميها الزجاج وتنط وتحرك يديها في كل اتجاه بوجه مرعوب تكاد تسقط عنه ملامحه، قالت وهي تفتح البوابة:

ـ " أفعى، أفعى، أفعى.. النجدة، فليساعدني أحد.. " ثم إنها وقفت أمامهم تسترجع أنفاسها، ونظروا إليها وتأملوها جيدا فكانت تبدو أكبر من سنها ـ الذي لم يكن يتجاوز الثمانية والخمسين على أية حال ـ بأربع مرات أو خمسة، وظنوا أنها ستنهار عند أقدامهم وتموت لحظتها، قال هشام ناظرا إليها باهتمام مصطنع:

ـ " هل تحتاجين لأي شيء يا عمة؟ "

صرخت:

_ " ليس أنتم، أحتاج، لكن ليس أنتم.. أغربوا عن وجهي.. هياا " ونظرت يمنة ويسرة فلم يكن هنالك من أحد:

_ " هل دخلت أفعى إلى بيتك؟ " أضاف هشام.

_ " لا شأن لك بذلك.. النجدة.. " .

ظهر (تاز) يلهث خلفهم، كان يأتي من خلف السور من الزاوية و انضم لرفاقه بعد أن أكمل مهمته بشكل بارع:

_ " نحن سوف نقوم بمساعدتك يا عمة نسرين، إن رغبت في ذلك.. " أضاف هشام بثقة.

_ " لا شكرا، سأتصل بالمعلم (خوني)، فلديه عمال بارعون أيضا.. وهم يحسنون التصرف عندما يدخلون البيوت المحترمة.. " قالت المرأة ذلك ونظرت إلى التوأم: " أشكرك يا هشام يا ولدي، لكن هذان العقربان في المرة السابقة كسرا سقف بيتي.. لن أسمح بذلك مجددا.. "

_ " حسنا يا عمة، يؤسفني أن أخبرك بأن عمال السيد (خوني) مشغولون في المصنع، في هذا الصباح تحديدا، لا يمكنهم مساعدتك.. حتى لو بقيت هنا تصرخين إلى الليل.. "

_ " لا.. أنت تكذب.. "

_ " أنت تعرفين أنني لا أكذب.. "

_ " حسنا، فقط أغربوا عن هنا.. سأجد من يساعدني.. "

_ " سنذهب، لكن الثعبان لن يذهب معنا إن لم نأخذه بالقوة.. ثم وبينما نحن نتحدث هنا، هو سوف يجد مخبأ جيدا ولن يستطيع حتى السيد (خوني) نفسه أن يخرجه منه.. دعينا نتولى أمره.. بسعر مغري.."

وهنا، وبعد أن ذاقت المرأة بهم ذرعا، وبالأفعى، تريثت قليلا وهي تنظر إلى بيتها المغتصب، ثم عادت وأطلقت نفسا عظيما وعيناها ترتعشان بأسف:

_ " حسنا، أخرجوه أنتم.. لكن لن يلمس أي من هذين العقربين أثاث بيتي.. حتى لن ينظرا إليه أيضا، سيبحثان تحته فقط.. "

_ " اتفقنا.. الدفع يكون مباشرة بعد انتهاء العمل.. "

_ " أجل يا هشام يا ولدي.. "

_ " ولا شك أنت تعرفين كيف أن الإمساك بالأفاعي يختلف اختلافا عظيما عن الإمساك بالقطط أو الأرانب أو أي من تلك الحيوانات التي لا تنفث السم من أنيابها.. لا شك أنك تعرفين ذلك!"

_ " أجل يا هشام يا ولدي.. "

ـ " هذا يعني أننا سوف نخاطر بأنفسنا، وسينبغي عليك لقاء هذا أن تدفعي لنا المبلغ المناسب.. "

ـ " أجل يا ولدي، أسرعوا وأخرجوها.. سوف أدفع ما تطلبونه إن أسرعتم في ذلك ولم تكسروا شيئا.. "

هذا ولم ينتظر هشام أكثر من ذلك حتى أمر أصحابه باقتحام البيت لأجل تحريره من الأفعى، بقي هو مع المرأة عند البوابة بينما ركض (تاز) والتوأم إلى الداخل، ومرت نصف ساعة ظل خلالها الثلاثة يتأملون أثاث البيت ويفتحون الأدراج ويتلمسون الأواني الفخارية ويدخلون الغرف ويخرجون منها حتى شعروا بالملل وبأن الوقت بات يبدو كافيا جدا للانتهاء من مثل هذه المهمة، فحملوا الكيس الذي وضعوا الأفعى بداخله قبل نصف ساعة وعادوا يخرجون مجددا.

كانت المرأة في انتظارهم على أحر من الجمر، وهي تنط وتفرقع أصابع يديها.. وعندما نظرت إليهم كانوا يأتون إليها بالمغتصب الذي سرق منها بيتها محملا بداخل كيس مربوط بشكل جيد، وقف حسين يرفع الكيس أمامها:

_هذا الوحش يا سيدتي، هذا الوحش الكاذب.. كان يختبئ في أكثر الأماكن سرية في بيتك.. "

وغطت المرأة فمها فيما يشبه أن رعبا أصابها:

_ " كان ينام في المدخنة.. " استتلى حسين بينما ينزل الكيس لأسفل: " بين الجمرات الباردة.. لكنه قاوم عن نفسه بشرف، مثل ثور هائج.. وتأكدي هذه المرة يا عمة نسرين أننا لم ننسَ أي شيء خلفنا، ولم نحطم شيئا.. ادخلي الآن إلى بيتك وستجدينه كأنما دخلته أفعى شريرة وقد تم الإمساك بها وركلها إلى الخارج.. "

وأبعدت المرأة يدها عن فمها:

_" هل مازالت حية؟ "

ورد حسين بعد أن ركل الكيس في موضع قدر بأن وجه الأفعى لابد أن يكون خلفه:

_ " لا، بل ميتة، ميتة مثل حبل الغسيل يا سيدتي.. "

_ " أووه، هذا رائع.. لكن خذها بعيدا، لا أريدها أن تبقى هنا.. " وابتعدت إلى الخلف خطوة، فما كان من حسين إلا أن حمل الكيس ومضى به خارج السور دون أن يضيف شيئا.

عادت هي بعد ذلك إلى بيتها مطمئنة فرحة، بعد أن دفعت لهم مستحقاتهم وشكرتهم بكلمات مقتضبة، وكان هشام يعد النقود بينما يبتعد مع رفاقه، حين تناهى إلى سمعهم فجأة صوت المرأة من خلفهم وهي تصرخ مثل امرأة تضع طفلها، لكن أحدا منهم لم يلتفت خلفه ولا تساءل عن السبب، كان ذلك لما دخلت المرأة غرفة الضيوف فوجدت أن طاولة الطعام قد مالت على جنبها، فيما قُلبت الكراسي رأسا على عقب، وزُحزحت الحصائر وأبعدت الأواني الفخارية عن أماكنها، حسين قال مبررا فعلتهم:

_ " أخبرتها.. أخبرتها أنها كانت معركة عظيمة.. "

ذلك ومضى الرفاق نحو الغابة فرحين بمكسبهم ليخلوا سبيل الأفعى المصروعة.

في المقهى، جلس مراد و (تاكفا) حول طاولة قريبة وطلبا فنجاني قهوة، فتح (تاكفا) جريدة أمام وجهه فيما أمال مراد ذقنه على ثلاثة من أصابع يده وتسمرا في مكانيهما كأنما لم يريا بعضهما سابقا، و إنهما قد فعلا ذلك بحذر بالغ حتى لا يكشف أمرهما، ذلك لما شاهدا الحكيم جمال وهو يدلف إلى المقهى فيجلس مع المحامي لطفي وهو يقلب عينيه خلفه بخبث واضح،

ولذلك فقد قررا أنها فرصة مناسبة ليس من الحكمة تفويتها، وكان الحوار الذي سمعاه يدور خلفهما كالآتي.

قال المحامي لطفي بعدما لف الجريدة:

ـ " ينبغي عليك يا سيد جمال، ألا تدع (بريكو) يخرج قبل فترة.. أظن أن هذا ما ينبغي عليك أن تفعله بدل أن تصرخ في وجهي كل مرة.. "

فرد الحكيم وهو يشد على أسنانه غيضا:

ـ " لا تخبرني بما ينبغي على فعله، أيها الأحمق المارق.. " صمت لفترة، ثم عاد يقول بعدها: " فكر معي كيف سنعثر على تلك العبوات الأخيرة.. "

ـ " من سليم؟ "

ـ " أجل، ذلك الميت الغبي الأحمق.. مرت أشهر ولم نحرز تقدما، كان علينا أن نبدأ من البداية مجددا.."

ـ " هل أخبرك أمرا؟ "

ونظر الحكيم إلى المحامي شزرا:

ـ "تحدث.. "

ـ " أذكر أن سليم ـ ذلك الميت الغبي الأحمق ـ كما أراك تحب أن تسميه في هذه اللحظة، مع أنه كان رفيق دربك قبل أن يصير إلى قبره، أذكر أنه كان

من الرجال كبار السن الذين يمتلكون صناديق معدنية برتقالية اللون ويحبون الاحتفاظ بأشيائهم الغريبة بداخلها.. أتساءل.. هل يمكن يا ترى أن يكون قد خبأ العبوات بداخله ومات قبل أن يخبرنا؟ "

ورد الحكيم وقد بان على وجهه أن الأمر أخذ اهتمامه:

_" وأنا فكرت في شيء كهذا، لكنني تحدثت إلى امرأته وقالت إن سليم لم يوصها بأي شيء ليلة وفاته.. "

_" لكنها أيضا لم تقل لك أنها لم تفتح الصندوق.. أو أنها فتحته ولم تجد شيئا!! "

_ " أفكر في أن أرسل (بريكو).. "

_ " أوه، اعذرني هل سترسل ذلك البغل؟ هو لا يعرف طريقة لفتح الأبواب غير كسرها، وسيفضح نفسه أمام المرأة قبل أن يدخل المنزل.. "

هنا نظر إليه الحكيم جمال بمكر بالغ:

_ " قلت المرأة!! "

وما إن سمع السيد لطفي رد الحكيم حتى فهم أن مقصده من تلك النظرة، و لابد أن يكون قد دخل رأسه شيطان أحمر في تلك اللحظة، فبعث عينيه بعيدا إلى سقف المقهى وعاد بهما:

ـ " صدقني يا سيد جمال، لو كان لي قلب مثل قلبيكما لبعته عند أول مناسبة، حتى لو كان المقابل فردتي جورب.. "

كذلك رد الحكيم بامتعاض بالغ:

ـ " أي نوعِ من البغال أنت، هل تظنني سوف أؤذي زوجته؟ لكنني أقول لك.. أنه يصح أن تصهل الآن مثل البغل إذا واتتك الرغبة، هذا ما يليق بك.. "

ذلك ورد السيد لطفي وهو يخرج ولاعة من جيب سترته الأنيقة ويقربها عند وجهه:

ـ " يمكنك أن تنكر ما قلته بالقدر الذي تريده.. لكنني متيقن يقين البغل بمكان ذيله أنك فكرت في استعمالها.. "

وهنا استشاط الحكيم وثارت نفسه وود لو يدك رأس المحامي على الطاولة، لكنه جاهد نفسه حتى هدأ:

ـ " ارمِ السيجارة من فمك.. " قال بعدها منزعجا وهو يتأمل كرة الدخان وهي تنبعث من فم السيد لطفي باشمئزاز بالغ، ثم أحنى رأسه قليلا:

ـ " اسمع، ماذا لو طلبنا المعاونة من السيد (خوني).. "

ـ " السيد (خوني)!! " رد السيد لطفي وهو يرفع السيجارة إلى فمه.

ـ " أجل، السيد (خوني).. "

ـ " لكنه أقسم أن لن يتعامل معنا مرة أخرى.. "

ـ " ماذا تعني؟ "

ـ " تحدثت إليه سابقا حول موضوع الولد.. "

قال السيد لطفي ذلك وصمت بعدها، لكن الحكيم صاح فيه غاضبا وهو يضرب الطاولة براحة يده:

ـ " تكلم أيها البغل.. "

ونظر السيد لطفي حوله فكان أن رأى أن الجالسين جميعهم قد التفتوا نحو طاولته وراحوا يحدقون بعيون ذاهلة، ولما كان السيد جمال وهو طبيب المدينة لا يأبه كثيرا لرأي الآخرين في تصرفاته فقد كان يلجأ في الكثير من المناسبات إلى مثل هذه التصرفات التي لا تصح عن مثل شخصه دون تفكير مسبق:

ـ " أووه، سأجيبك.. " رد المحامي وهو يغمس رأس السيجارة في صينية صغيرة موضوعة على الطاولة خصيصا لذلك:

ـ" انتظر لحظة، هكذا.. " وعاد يسند ظهره ويرفع رأسه عاليا:

_ " ذهبت عنده إلى المصنع مرتين لأناقشه في موضوع الولد، لكي يمنحك المزيد من الوقت مقابل ثمن.. "

_ " إيه!! "

_ " في المرة الأولى نعتني بالمحامي القبيح النتن، وأنني ينبغي علي أن أعيد الطفل بسرعة، وأنني بلا فائدة تذكر.. والكثير من الأشياء المشابهة.. في النهاية قال إن ثمن هذا التأخير كبير بحيث لا يمكن أن يُدفع، لأنه يوشك أن يقع في مصيبة كبيرة بسبب ذلك، وهددني بأنه سيلجأ إلى محام آخر ليتكفل بالقضية.. "

_ " إيه.. "

_ " وفي المرة الثانية، نعتني بالكافر.. الكافر الذي يجحد النعم، وبأنه لا يريد أي ثمن لقاء التأخير الحاصل، وبأنه لم يعد يريد شيئا أعظم من إهانتنا مثلما تهان الأحذية، أو أن يرانا مرضى مثل الجرابيع الميتة، لأننا تآمرنا عليه وسرقنا منه الولد.. "

_ " أيها ال **** " هكذا وثب الحكيم جمال نحو المحامي وأسمعه كلاما شاذا لا تجوز كتابته، بصوت لا يمكن لأحد غيرهما أن يسمعه حتى لو

أجهد نفسه في سبيل ذلك، ثم إنه عاد بعدها وجلس مكانه والزبد يغلي في فمه من شدة الغضب، رد السيد لطفي كأن شيئا لم يكن، ينظر في ساعة يده:

ـ " سأذهب إلى عملي .. ينبغي علي أن أرى أحد موكلي في حدود العاشرة ونصف.."

ـ " أذهب، أقسم أنك بغل بلا ذيل، و إلا فكيف تصلح لأن تعمل مثل هذا العمل.. تقدر على التحدث لساعات طويلة، لكن لا تستطيع إسكات رجل، أو إلهائه قليلا ، وتسمي نفسك برجل القانون الأول.. "

ـ " لا أستطيع إسكاته إن كان لا يريد ذلك، ربما استعمال طريقتك في إسكات الناس بدلا من طريقتي سيكون مجديا أكثر.. " قال المحامي ذلك وهو يعيد الكرسي إلى مكانه ومضى يدفع ثمن القهوة، لكن كلمات السيد جمال لحقته من خلفه:

ـ " كم جعلتني متشوقا لسماع حلولك في كل مرة.. "

ومضى هو الآخر خلفه ثم تفرق كل منهما على الرصيف في اتجاهين متعاكسين.

وهكذا خلا الجو للجاسوسين اللذين كانا يجلسان على مقربة، أنزل (تاكفا) الصحيفة عن وجهه ولفها لفتين و قال وهو يضعها على الطاولة:

ـ " شيطانان، أحدهما في ثوب الطبيب والأخر في ثوب المحامي، وهكذا تأكدنا من شكوكنا.. "

ـ "صحيح يا (تاكفا).. لكننا لا نعرف عنهما إلا بقدر ما نعرف عن الشياطين أيضا، أن نياتهم سيئة، لكن لا فكرة لدينا واضحة عما يفعلانه.. "

ـ " أسمعتهما يذكران اسم (بريكو)؟ "

ـ " الذي قالت المرأة أنها سمعت أحد المختطفين ينادي الآخر به، نعم.. نعرف عنه أيضا أنه قوي البنية، وهمجي جدا، فيما لا يدع لنا مجال للشك في أنه من ضربك وقام بدفعك من النافذة، لكن أكثر ما شدني هو حديثهما عن العبوات، أي عبوات هذه، ولماذا أخفاها المفتش سليم، وما مشروعهما الذي يدور حولها؟ "

ـ " ذكرا أمرا آخر بالغ الأهمية يا مراد، كأنهما تحدثا عن طفل استعاراه من السيد (خوني) ولم يقوما بإرجاعه، فلم يعجبه ذلك أبدا.. أعني أن ما نعرفه عنه أنه يهدف لجمع المال بأي طريقة، فلماذا قد يرفض أن يقبض ثمن التأخير الحاصل؟ "

وفكر مراد للحظة:

ـ " انظر، أطفال السيد (خوني) ينقسمون إلى قسمين.. بعضهم يتامى، وبعضهم من أبناء الفقراء.. أي هنالك من يسأل عنهم عندما تحل الظلمة، وهذا أكبر ظني.. أن الولد من أبناء الفقراء، وأن ذويه طالبوا السيد (خوني) بطفلهم.. لكن يبقى السؤال.. ما حاجتهما بالولد!! "

ـ " الأمر يتعقد أكثر فأكثر يا... إذن السيد (خوني) لديه مصنع ومزرعة؟ "

ـ " ورحى أيضا.. " رد مراد وهو يعدل جلسته:

ـ " مصنع خياطة وحوالي أربعين ثورا وبقرة.. ورحى القمح الوحيدة في المدينة، وكل أعماله هذه يديرها بالأطفال، خمس وثمانون من عماله هم أطفال دون الخامسة عشرة، لكن مهما كان العمل الذي أدخلا رأسيهما فيه فيبدو أن السيد (خوني) يعلم بأمره جيدا.. "

ـ " صحيح، وهذا ما ينبغي أن نركز عليه أولا، إذا كنا أمام عصابة، فعلينا أن نحدد أفرادها.. علينا أن نعرف من هم أعداؤنا أولا، من لا يجب علينا أن نظهر أنفسنا أمامهم حتى لا نقع في المآزق بعدها.. "

ـ " وهذا عين الصواب، نبحث ونتحرك بحذر.. وعلينا أن نسبقهما بخطوة، لكن كيف سنفعل ذلك، ومن أين سنبدأ! "

ـ " قلت من أين سنبدأ؟ "

ـ وتردد (تاكفا) قليلا قبل أن يقول جوابه:

ـ " أفكر في أنه إذا أردنا أن نسبقهما بخطوة، فعلينا أن نجد العبوات التي تحدثا عنها.. "

ـ " أوه، هذا كثير يا (تاكفا) "

ـ " بلى، سنفعل هذا، سنجد طريقة للدخول إلى منزل المفتش، وسنبحث عن هذا الصندوق.. أنا متأكد من أننا و إن لم نجد العبوات بداخله فسوف نجد شيئا آخر يماثله في الأهمية.. "

ـ " يا الله، أين سنوقع أنفسنا .. " غمغم مراد ممسكا برأسه، فتابع (تاكفا) كلامه:

ـ " أما بخصوص الولد، هنا يأتي دور الصغار لمساعدتنا.. "

ـ " سنرى إن كان بإمكانهم هذا، دعنا نجدهم أولا.. "

ثم قام الصاحبان يبحثان عن هشام ورفاقه، حتى إذا مشوا قليلا في شارع المدينة الرئيسي على الرصيف الأيمن رأوا الصغار يأتون من ناحية الغابة فرحين مهللين بعدما أخلوا سبيل الأفعى التي أكسبتهم مالا عندما لم يكن

هنالك من عمل يؤدونه في يومهم، و ضرب (تاز) كفا بكف وصاح في وجه حسن:

ـ " سنحرر القرد! أجل، مرحى.. "

لكنه لم يكن قد رأى مراد و (تاكفا) عندما قال ذلك، ولهذا فقد صكه حسين بكتفه وأمره بالسكوت فورا، حتى إذا وقف الفريقان أمام بعضهما ظل كل منهما ينظر إلى الآخر كأنه يدري أن الآخر يخفي شيئا، وحين ظن مراد أن الصغار لن يتحدثوا أولا فقد بادرهم بالسؤال قائلا:

ـ " هل أنتم بخير، أين كنتم؟ "

ـ " في مكان ما.. " رد هشام عن أصحابه.. حتى لا يغلط أحدهم:

ـ " كان لدينا عمل، أنهيناه للتو.. "

ـ " آه، جيد.. هنالك ما نريده منكم ... "

ـ " تفضل.. "

ـ " كنتم تعملون مع السيد (خوني)، لا شك هنالك من الصبيان من تقدرون على التواصل معهم، أعني أنكم يمكن أن تثقوا فيهم ولو قليلا.. "

ـ " أجل، يوجد.. "

ـ " رائع، الآن ما نريده منك يا هشام، هو أن تتحرى لنا عن صبي كان يعمل عند السيد (خوني) لكنه فقد مؤخرا، صبي لا نعرف اسمه ولا شكله، ونريد أيضا إن كان بالإمكان أن نعرف أين تسكن عائلته.. "

ـ " وهل أنت متأكد من أن له عائلة؟ "

ـ " لا، لكن إذا كانت لديه واستطعت أن تعرف الأمر فستكون قد قدمت لنا عملا عظيما، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الأمر فيه بعض الخطورة، أي لا ينبغي على السيد (خوني) أن يعلم بهذا الأمر أبدا.. لذلك تأكد من أن الذي ستتحدثون معه لن يشي بالأمر إلى أي أحد.. "

هنا ظل هشام صامتا لبضع لحظات يحدق في موضع ما خلف مراد و (تاكفا):

ـ " هل قلت صبيا السيد (خوني)؟ "

ـ " نعم.. "

هنا أومأ هشام بوجهه أن انظر خلفك، ونظر مراد و (تاكفا) فإذا بجماعة من الصبيان يتقدمهم فتى ضخم الهيئة بالنسبة إلى رفاقه يأتون بخطا سريعة ووجوه تحمل ابتسامات ماكرة، وجوه بقدر براءتها كانت تبدو كأنها أطعمت فُتات الحقد منذ الصباح الباكر، كان الفتى الذي يتقدمهم يرتدي قميصا واحدا

على كتفيه وبنطلونا مرتقا و صندلا قديما يغطيه الغبار تبرز منه أظافر أصابع قدميه الوسخة، حاله حال الفقير المعدم، ولم يكن رفاقه بأحسن منه حالا، حتى إذا التحم الجيشان ـ وكان جيش هشام قد تقدم خطوات حتى صار يقف مع مراد و (تاكفا) ـ جعل الفتى السمين من الفريق القادم يتأمل كتف هشام المربوطة وينظر إليه كأنما يريد غرس أسنانه في وجهه، ثم جعل يهز جسمه الثقيل ويقول بصوت غليظ يبعث على المرض :

ـ " ماذا، هل تكسرت ذراعك.. يا ابن المجنونة؟ "

وما إن قال فريد هذا، وكان هذا اسمه، حتى أطلق الصغار من خلفه ضحكات قصيرة فيها من الشماتة ما فيها، ولم يكتفِ الفتى بذلك، بل ذهب ينظر إلى رفاق هشام واحدا تلو الآخر، ثم حرك أصابع يديه وقال محدقا فيهم باشمئزاز واضح:

ـ " جرابيع نتنة.. "

ورد هشام عليه قائلا:

ـ " يكفي أن تأخذ جماعتك وتغادر من هنا، لا نريد أية مشاكل.. "

ـ " لكنني أريدها، أريدها بشدة.. أريد أن ألكمك على وجهك.. هل تقبل؟ "

ـ " دعك من التهريج يا فريد، إذا كنت تريد القتال فأمهلني يومين فقط وسنلتقي في مكاننا.. وسنرى من يلكم الآخر.. "

ـ " هأهأهأهأ.. أنت تجعلني أفرط في الضحك.. " هكذا انثنى فريد يمسك ركبتيه الغليظتين وهو يقهقه قهقهات مستعارة، ولما نهض أكمل يقول بصرامة:

ـ" لا أكذب عليك.. لكنني اشتقت لكم، لم نتقابل منذ فترة.. أخبرني كم تكسبون في اليوم الواحد؟.. لكن لحظة.. " والتفت إلى (تاز) يكمل حديثه: " أجبني أنت يا (تاز)، هيا.. أم هل تخاف أن تخطئ فتنبح، هأهأهأهأ.. أيها الجرو الضائع.. " وردد رفاقه من خلفه بصوت جماعي واحد:

ـ" الجرو الضائع.. الجرو الضائع.. " وانفلتوا ضاحكين مثل المرة الأولى، وحينها أحكم (تاز) قبضتيه وكشر عن أسنانه وكذلك فعل حسن وحسين، لكن هشام أشار لهم بأن يتراجعوا وهم بأن يرد لفريد جوابه لكن سيارة السيد (خوني) توقفت أمامهم وقاطعت حديثهم.

أخرج رجل ذا رأس سميكة رأسه وحلف بأنه لم يرَ قبل هذا اليوم كلابا مجتمعة بقدر ما رآها في تلك اللحظة، و إنه كان يقصد بقوله هذا هشام ورفاقه

لما رآهم واقفين هناك والحيرة تدب في وجوههم الصغيرة، صاح بعدها في صبيانه:

_ " هاي، فريد.. ما الذي تفعلونه هنا ؟، عودوا إلى عملكم بسرعة.. "

_ " حاضر، سنذهب حالا.. "

لكن السيد (خوني) وقبل أن ينطلق بسيارته الأنيقة، والتي كان يحسب أنه لا يوجد في العالم أحد يمتلكها غيره، كان قد نظر إلى مراد و(تاكفا) نظرة فاحصة سريعة، من أعلى لأسفل، ثم أدخل رأسه وبعث دخانا خلفه حيث كان واقفا قبل ذلك.

التمس فريد ورفاقه من الصِبية المتعطشين للعراك العذر لهشام وأصحابه بهذا، ووعدوهم وعيد من لا نية له في الرجوع أنهم سوف لن يتوانوا في ضربهم في المرة المقبلة التي يلتقون فيها.

هكذا افترق الرفاق ومشى كل في طريقه، وسأل (تاكفا) مراد قائلا بينما يمشان على الرصيف بتثاقل:

_ " لاحظت (تاز)؟ "

رد مراد:

_ " لاحظته، حاول الاختباء خلفي عندما ظهر السيد (خوني) بسيارته فجأة.. "

_ " لكن لما فعل ذلك؟ "

_ " أظن يا (تاكفا) أنه بسبب ما عاشه معه سابقا.. أخبرني التوأم أن (تاز) كان من أكثر الصبيان الذين يكرههم السيد (خوني) وكثيرا ما يسيء معاملته، حتى أنه مرة وعندما كان (تاز) مريضا ولم يقدر على الذهاب إلى العمل قام السيد (خوني) بحبسه في قبو صغير لوحده، لثلاثة أيام متواصلة.. "

_ " تبا له.. "

_ " عندما شعر (تاز) بالجوع في اليوم الثاني، بحث في زوايا القبو المظلمة عن شيء ليأكله فلم يجد سوى قارورة بلاستيكية ممتلئة حتى نصفها بزيت السيارات المحترقة، وبعض قطع الخبز اليابس، فقام بصب الزيت المحترقة على الخبز وأَكله.. أتصدق.. "

_ " لابد من أنك تمزح! "

_ " أقسم أن هذا ما قالاه يا (تاكفا)، وهما لا يكذبان علي أبدا.. العجيب في الأمر أن (تاز) لم يمرض جراء تناوله الزيت.. "

ـ " عجيب حقا، مع أنه يبدو كالصبي الذي هرب من القصر، إلا أنه صلب أكثر من أي طفل آخر على ما يبدو.. "

ـ " رأيته بنفسك كيف كان يمسك بتلك الحشرات دون أي خوف أو تردد، لكن الأعوام التي قضاها مع السيد (خوني) تركت له هواجس وذكريات مخيفة لم يقدر حتى الآن على التخلص منها.. ولهذا فزع عندما رآه بتلك الطريقة.. "

ـ " مسكين.. "

ـ " مع هذا، سيكبرون جميعا.. سيكبرون وسيكون لهم وزن وحسابات وتحسب لهم .. "

ـ " لا شك في هذا.. لكن لمَ يتشاجر الصبيان هكذا؟ "

ـ " أولا لأنهم صبيان، وثانيا.. " قال مراد وضم شفتيه يفكر لبرهة، وسرعان ما عاد يقول بعدها:

ـ " هشام وفريد كانا صديقين حميمين فيما مضى، حتى أنهما كانا ينفذان مقالب ضد بعضهما، أخبرني التوأم بهذا.. في مرة من المرات، حسنا.. فريد بهلول كبير كما رأيت، من البهاليل الذين ينامون دون توقف، في الماضي كان هو وهشام و (تاز) والتوأم يتشاركون الغرفة نفسها، الآخرون يخرجون

للسهر وهو ينام باكرا، وعندما يعودون مع منتصف الليل كانوا يسمعونه من خلف الباب يشخر بصوت مرتفع، ويظلون يطرقون الباب لنصف ساعة حتى يفتحها، وحتى عندما يدخلون بعد ذلك فإنهم كانوا يقضون ساعة أخرى في لعب الدومينو، بينما هو يضع رأسه تحت الغطاء ويغيب عن وعيه في لمح البصر، وحين قرر هشام مرة أن ينفذ عليه مقلبا قام بإزعاجه حتى جن جنونه، حتى غضب منه فريد وأقسم أنه لن يقوم من فراشه ليفتح لهم الباب مجددا، كانت الخطة تقضي أن يأخذوا المفتاح معهم في تلك الليلة، بعد أن ينام هو، أخذوا المفتاح وأغلقوا الباب من الخارج، وعندما عادوا في الثانية صباحا فتحوا الباب وقاموا بجر سريره إلى الخارج بحذر بالغ.. "

_ " حقا! فعلوا به هذا؟ .."

وهز مراد رأسه لأعلى وأسفل مؤكدا:

_ " عادوا بعدها وأغلقوا عليه الباب من الداخل وأخذوا يطرقونها بأيديهم وأرجلهم لكي يجعلوه يستيقظ، وعندما فطن ظل يشتمهم لنصف ساعة وهو يضع رأسه تحت الغطاء ثم حلف أنه لن يفتح الباب حتى لو كان الطارق هو السيد (خوني) نفسه وأنه سيجعلهم يبيتون جميعا في الخارج، وعندما..

هأهأهأ، وعندما فطن في الصباح أقسم مجددا أنه لن يتحدث إليهم لأسبوع كامل، هأهأهأ.. "

_ " لا أصدق أن هشام يفعل شيئا كهذا! صدقا، لا يبدو من هذا النوع أبدا.. "

_ " ربما، لكن تذكر أنهم جميعا لا يزالون صغارا، وهشام لا يختلف عنهم في هذا، وإن كان يفوقهم في التفكير والحنكة فهذا لا يعني أنه لا يحب المزاح أحيانا.. وإليك خدعة أخرى، في المرة الثانية، أي بعد شهر تقريبا، وحينها كان قد سامحهم على فعلتهم تلك ونسي أمرها تماما، انتظروه حتى غفا وغاب عن الوعي فأغلقوا الستائر وحشو كل ثقب يبعث الضوء بالقفازات والجوارب حتى لم يعد أحد منهم يقدر على رؤية يده، ثم جلسوا حول الطاولة يلقون النكات ويضحكون بصوت مرتفع وهم يتظاهرون بلعب الدومينو، لا لشيء إلا ليجعلوه يستيقظ.. "

_ " أكمل.. "

_ "عندما استيقظ وسألهم لمَ لم يقم أحد منهم بإشعال الضوء فيما يستمرون باللعب في الظلمة!! ضحكوا عليه وقالوا له أن المصباح مضاء وأنهم يرون بعضهم جيدا، وأن عليه أن يقوم ليغسل وجهه حتى يستطيع أن

يفتح عينيه مثلهم، وذلك ما هاله وجعله يرتاع بشدة، وأخذ يصرخ ويبكي ظنا منه أنه أصيب بالعمى لأنه لم يكن يستطيع رؤية شيء حوله مع أنه كان متأكدا من أن عينيه كانت مفتوحتين جيدا.. "

_ " هذا كثير حقا.. "

_ " لكنها خدعة جيدة جدا، وربما هذا ما جعله يحقد عليهم ويرغب في ضربهم كلما رآهم، هأهأهأ.. " هكذا مضى مراد يضحك لعدة خطوات بعد ذلك.

_ " مراد.. هل تركت هديل في البيت لوحدها؟ "

_ " لا، أخذتها إلى المطعم.. "

_ " إلى المطعم؟ "

_ " تذكر حياة؟ تحدثت إليها البارحة، فوافقت.. "

_ " أووه، رائع.. تعني ستبقى معها أيام العطلة.. "

_ " إذا أحبت هديل هذا، في المساء سنرى رأيها، لكن حتما سيعجبها أن تتعلم الطبخ وأن تضع المناديل الورقية بجانب الصحون وأن تجد فتاة مثلها لتتحدث إليها، لابد أنها سئمت منا.. " قال مراد ذلك وأتبعه بضحكة خفيفة.

ـ " في كل مرة أراها فيها.. " رد (تاكفا) وهو ينظر في الرصيف أمامه ساهما: " أو حتى عندما أجلس لوحدي أو حين أضع رأسي على الوسادة، أتذكر وعدي لها يا مراد.. وعدتها أن نعثر على جدها، لكن كيف سنفعل هذا.. "

ـ " (تاكفا)، لا تقلق.. قبل أيام فقط لم نكن نعرف من أين نبدأ، لكن الآن، انظر.. كن واثقا من أننا سنعثر على جدها، في الأصل أنت من ينبغي عليك أن تزيد من عزيمتي وليس أنا، ألست الشرطي بيننا.. "

ـ " أجل، شرطي سابق بساق مكسورة.. هذا ما أنا عليه الآن، لو كنت لا أزال في مركزي الآن لكان الأمر أسهل بكثير ولتم بسرعة.. "

ـ " لو.. لكن هذا الذي بين أيدينا، لن نسأل الشرطة، ولن ننتظر المحكمة، بل سنمضي في هذا الأمر لوحدنا كما بدأناه حتى النهاية.. "

ذلك ومضى الصاحبان أحدهما يمشي معتدلا والآخر يعرج بساقه المريضة حتى مالا مع الزاوية متوجهان نحو المكتبة ليفتحا للريح بابها.

مع بلوغ الثانية عشرة، كان المركز التجاري يفقد زواره شيئا فشيئا، لأن الناس عادة يفقدون إحساسهم بالشبع في مثل هذا الوقت، فيروحون يبحثون

عن محلات الوجبات السريعة، ولذلك فقد اختار الصغار وقتهم بعناية بالغة، فحينما كان بائع الطيور يهم بإغلاق حانوته، سمع فجأة صوت ضوضاء تنبعث من الطابق السفلي فأسرع يهبط الأدراج بساقين متباعدتين وصدر يهتز لأسفل وأعلى، جاعلا يده تنزلق على الدرابزين بجانبه، وكان حين وصل عند مدخل البناء كان قد رأى جماعة من الناس يجتمعون حول التوأم فيما هما ملتحمان في عراك شديد مثل قنفذين صغيرين وقد تطاير الغبار من حولهما وتعالت صراختهما، وبصعوبة حشر الرجل نفسه بين الجمع المستمتعين حتى أوجد لنفسه مكانا وجعل يتأمل المشهد بعينين نصف مغلقتين، لكنهما لم تلبثا أن أصبحتا مفتوحتين بعد ذلك بالكامل، وتغيرت نظرتهما من دهشة صغيرة إلى صدمة عظيمة، وفي لمح البصر لملم الرجل فمه وانطلق كالحمار الثقيل يصعد الأدراج نحو حانوته وقلبه يخفق فزعا.

في تلك اللحظات أيضا، كان القرد يهتز بداخل قفصه هاربا بين أزقة المدينة ومن خلف الأسوار وحول البيوت مرورا بأقصر طريق وأكثرها أمانا نحو الغابة، لم يكن يقدر على أن يرى شيئا مما حوله، كذلك لم يكن يقدر على أن يفهم شيئا مما يحدث، لكنه كان سعيدا بالقدر الكافي، وتوغل (تاز) وهشام به بين الأحراش بعد أن خرجا من المدينة وتبعهما التوأم أيضا ودخلوا

عمق الغابة حتى وقفوا بين معترك من الأشجار فوضعوا القفص أرضا ووقفوا حوله، كانت أرضية الغابة مفروشة بأوراق الشجر والأغصان الصغيرة:

_ " ماذا الآن؟ " سأل حسين بأنفاس متعبة من أثر الركض الطويل ثم راح ينظر إلى هشام الذي كان يحدق في القفص المغطى، والذي نطق بعدها قائلا:

_ " انزع الغطاء يا (تاز) "

وأسرع (تاز) يزيح قطعة القماش عن القفص الحديدي ليجد القرد يحدق فيه بعينين كبيرتين وفم مغلق ويداه على ركبتيه فيما يجلس مثل طفل مطيع في هدوء بالغ، وكان حول رقبته طوق مثبت وموصول بحبل ينتهي عند قدميه الطويلتين، و أمر هشام بعدها بأن يفتح القفص، فدنا (تاز) وفتحه ومد يده ليخرج القرد من مكانه، وكان تجاوب القرد لطيفا حتى أنه مد يده إلى الخارج، بعد ذلك وضع (تاز) القرد بين قدميه وحاول أن ينزع عنه الطوق فلم يستطع، ودنا حسين ليجرب فلم ينجح هو الاخر.

نظر القرد يمنة ويسرة وهو جالس على الأرض المغطاة بأوراق الشجر بينما يخرش ظهره بأصابعه السوداء المعقوفة، دار حول نفسه دورتين وعاد ينظر في الصغار نظرات مبهمة بينما يفتح شفتيه لتظهر أنيابه الحادة، واستمر كذلك إلى أن دنا منه هشام خطوتين وأمره بالذهاب بعيدا، لكن القرد لم يتحرك

قيد أنملة، بل ظل جالسا وشفتاه ترتعشان.. يحرك رأسه كأنما يريد أن يقول شيئا، حينها صاح فيه هشام مرة أخرى مشيرا له بذراعه نحو معترك من الشجيرات القريبة:

ـ " هيا، اذهب.. هيا.. "

لكن لا شيء مما كان يرجوه هشام حدث بعد ذلك، دنا حسن من القرد وأثنى ركبتيه عنده وجعل يحدثه بصوت لطيف مرهف، أما القرد فأصغى إليه السمع ويداه على ركبتيه:

ـ " إيه.. هيا اذهب، أنت الآن حر، أرجوك اذهب، أعدك أننا لن نطاردك.. انظر إلى الأشجار خلفك، ستكون كلها لك، لن يجبرك أي شخص بعد الآن على تناول العلكة.. لن تكون وحيدا، توجد الكثير من الحيوانات هنا، هيا يا صديقي.. "

قال حسن هذا ثم وقف ورفع القرد من إبطيه وجعل كأنما يرغمه على المشي مثلما يفعل بالصبي الصغير عندما يتعلم المشي أول مرة، لكن القرد أرخى ساقيه فراحت قدماه تنزلقان على الأرض في اعتراض واضح:

ـ " هاي، حسن.. ضعه على الأرض وعد إلى هنا.. " صاح حسين من خلفه، وهنا كان حسن قد شعر باليأس مما يفعله، فترك القرد مكانه وراح يعود

أدراجه منزعجا، إلا أن القرد ولشيء في رأسه الصغير نهض وجعل يتبعه من خلفه.. عاد فجلس في الموضع الذي كان فيه وحط عينيه ذليلا على الأرض ومضى يحك بطنه بإصبع واحدة، ولما رأى (تاز) منه ذلك رق قلبه وأوشك أن يضمه إلى صدره، إلا أن حسن نطق قائلا:

_ " القرد لا يريد أن يذهب يا هشام، ماذا نفعل.. "

ولم ينطق هشام بشيء، لكن حسين أجاب أخاه بأن قال له:

_ " بالطبع لن يحب المبيت معلقا في الأشجار يا حسن، من يحب ذلك؟ "

فجأة ضحك (تاز) كما لم يفعل قبلا:

_ " ههههههه "

_ " لماذا تضحك يا (تاز)؟ " سأله حسين.

_ " لا شيء، ضح.. ضحكت فقط.. "

_ " لا.. أنت لا تضحك فقط يا (تاز) نحن نعرفك جيدا، هيا قل ما الذي تعرفه.. " قال حسين هذا لأنه نظر إلى (تاز) فوجده يحدق في القرد بنظرات غريبة والفرح يملأ صدره، بعدها نطق هشام لما انتهى من تفكيره:

_ " دعوه هنا، هيا لنذهب.. "

ـ " ماذا، هنا؟ مع القفص.. " سأل حسن، وكان رد شقيقه سريعا لما قال له:

ـ " أوه بالطبع يا أخي، فنحن لم نوصله إلى هنا لنركله في وسط الغابة حتى يذهب.. "

وأبدى حسن انزعاجه من رد أخيه المتعجرف:

ـ " أنا لم أقل هذا، لكن الطريق غير بعيدة من هنا، وهو لا يريد أن يذهب، وسيأتي أحدهم للتبول وسيضعه في القفص ويعيد بيعه مجددا، ألا تعرف هذا؟ "

ـ " ها.. إذن ما الحل في رأيك؟ "

ـ " أنا؟ تسألني عن الحل ؟، الحل واضح.. "

ـ " ما هو، أخبرنا عن الحل يا أخي.. الذكي! "

ـ " يجب أن نعيد القفص معنا، ونتركه في مكان سري خارج الغابة.. وبذلك لن يجد أحد القفص ليضعه بداخله.. "

هنا أطلق حسين صفيرا بارعا وطويلا وقال بعدها:

ـ " رائع.. برافو، أنت.. بالفعل.. مثال للإنسان الذكي يا أخي.. أتشرف بمرافقتك دائما، تجعلني فخورا بك من وقت لآخر.. "

وأوشك حسن أن يضيف كلاما على كلام شقيقه لكن هشام قاطعه بأن التفت خلفه ومضى في طريق يؤدي خارج الغابة، كذلك مشى (تاز) خلفه وتبعهما التوأم تاركين القرد خلفهما ولم يكادا يتوقفان عن الملاسنات ورمي الكلام إلى بعضهما حتى بلغا المدينة .

مضى المساء بعد ذلك سريعا وتلحفت السماء بوشاحها الأسود، وتسمر هشام عند فتحة الجدار في الطابق العلوي من البناء يطل على الغابة كعادته، وكانت هذه الليلة واحدة من الليالي التي تبقى فيها الضفادع تنقنق دون توقف، ذلك لأنه في وسط الغابة بركة صغيرة تبقى فيها المياه حتى منتصف الصيف قبل أن تشطفها الشمس بالكامل، وقف (تاكفا) إلى جانبه مادا يديه بداخل جيبي سرواله وسأله قائلا:

_ " هل ستأتي، أم ستطيل الوقوف هنا؟ "

_ " سآتي.. " أجاب هشام بعد برهة، ثم مشى كلاهما نحو حلقة الجمر وانضما للآخرين الذين كانوا يتقاسمون بينهم أحاديث سريعة ومتقطعة، وكان مراد قد أحضر بعض النقانق وجهزها في عصيها فوق الجمرات وأثنى رقبته

ينفث على النار تحتها، لكن التوأم تكفلا بمهمة تدوير النقانق وهما فرحان بذلك.

أبعد مراد وجهه عن الجمرات وجلس معتدلا:

ـ " إذن يا هشام، هل جئتنا بخبر؟ "

وأجاب هشام كأنما متلعثما:

ـ " آه، ذلك الشيء.. نعم، مثلما قلتما تماما، تحدثت إلى صديقي وأخبرني أن أحد رفاقه توقف عن المجيء إلى العمل منذ خمسة عشر يوما، وعندما ذهب إلى أمه ليسألها قالت أن السيد (خوني) أرسله للعمل في المزرعة.. وسيعود قريبا.. "

ـ " إذن فلديه عائلة.. "

ـ " أجل.. "

ـ " لكنك تعرفه.. "

ـ " أعرف أن والده لم يضربه في حياته.. "

ـ " وهل تصدق ما قالته عنه أمه؟ "

ـ " أبدا.. لأن السيد (خوني) لا يرسل أطفال الفقراء للعمل في المزرعة، إلا نادرا.. الثيران هناك خطيرة.. هو يرسل اليتامى فقط.. "

_ " أممم.. " همهم مراد مفكرا، فقاطعه (تاكفا):

_ " من الواضح أنها تكذب، ربما دفع السيد (خوني) لها مالا حتى تسكت عن ابنها كل هذه المدة.. "

_ " ربما يا مراد، لكن لا أعتقد أن أحدا قد تصل به الخساسة إلى أن يبيع ابنه.. "

_ " لكن عائلته فقيرة جدا.. " قاطعهما هشام: " عندما قلت قبل لحظة أنني لا أعرف أن والده ضربه قبلا، فلأنه مريض في الفراش ولا يقوى على الحركة، لذلك فلا يمكن أن يضربه، أيضا لديه ابنة كبيرة غير متزوجة.. وأسامة وحده كان يعمل من أجل والده وأمه وأخته.. "

_ " إذن هل تظن بما نظنه يا هشام؟ "

وعوج هشام ذقنه وفمه معبرا عن عدم يقينه بأي شيء من ذلك، لكن حسن تدخل يقول فجأة:

_ " عن ماذا تتحدثون منذ ساعة، أنا متأكد من أن السيد (خوني) قد أكله.. " وما كاد يقول ذلك حتى مالت رقبته من أثر الضربة التي طرحها إياه شقيقه:

_ " لا تقل كلاما غبيا يا حسن.. "

وشد حسن على رأسه حتى لا تظهر نفخة مكان الضربة:

ـ " ماذا، إنني أمزح.. لكنه يأكل أرنبا لوحده، وأسامة يزن قليلا فقط فوق الأرنب.."

ومع أن كلام حسن هذا، قد أرغم (تاكفا) على الابتسام قليلا فنظر بعدها إلى (تاز) فوجده منهمكا في تأمل السفافيد بعينيه الصافيتين اللتين تختبآن تحت خصلات شعره الصفراء وهو يمضغ لعابه، فأغمض عينيه طويلا وحز في نفسه أن يرى ذلك، لكنه تذكر شيئا فجأة، ولذلك فقد التفت إلى هشام وأنشأ يقول مبتسما:

ـ " هشام، هل فعلتم أي شيء مساء؟ "

ونظر إليه الجميع هنا:

ـ " مثل ماذا؟ "

ولم يجب (تاكفا) مباشرة، بل نقل عينيه في وجوه أصحابه بمكر فتأكد له الأمر لما رأى عيونهم تنظر هلعة:

ـ " تقول مثل ماذا؟ مثل أنكم سرقتم القرد مثلا!! "

ولأن هشام واحد من الناس الذين لا يحبون إخفاء الأشياء أكثر مما يجب، فإنه رد بلهجة من ساعد عجوزا على عبور الشارع، بتلك الأريحية:

_ " أجل، أخذنا القرد وأطلقنا سراحه في الغابة.. أخذناه فقط، لكن إذا أردت أن تسميها سرقة، فلا شأن لي بذلك.. "

وحتى هذه اللحظة، كان فاه مراد لا يزال مفتوحا عن آخره من أثر ما يسمع:

_ " اووه، هل فعلتم هذا حقا!! " دمدم وهو ينظر في وجوه الصغار واحدا تلو الآخر، بنظرة باسمة تميل إلى الافتخار بفعلتهم أكثر منها إلى القلق، والتفت إلى (تاكفا):

_ " وأنت كيف عرفت هذا؟ "

_ " التقيت بائع الطيور في المقهى الذي تحته، بينما أنتظر قهوتي جاءني وأخبرني بما حدث ... وضع يده على كتفي وكاد يبكي وهو يترجاني أن أريه مكانكم "

هنا رد هشام هكذا:

_ " هأ.. "

ونظر إليه الجميع فكان يوشك أن ينفجر ضاحكا:

_ " قل له أننا هنا، وسينسى أنه رأى قردا في حياته.. "

ولما كان (تاكفا) لم يفهم ما عناه هشام بقوله، تدخل مراد يشرح له الأمر قائلا:

ـ " أنت لا تعرف أن هذا المبنى مسكون يا (تاكفا) أليس كذلك؟ "

ارتفع حاجبا (تاكفا) قليلا وبان أنه يريد سماع المزيد عن هذا..

ـ " يقصد هشام أنه لا أحد يجرؤ على القدوم إلى هنا، من وقت لآخر تسمع أصوات من الغرف الأخرى وترمى أشياء وتنقل أشياء من أماكنها، ولذلك ترى العليق يصعد على جدرانه من الخارج.. و إلا فمثلا، كان السيد (خوني) سيصلح هذه الغرفة ويختارها لنفسه.. "

ـ " ما يقوله العم مراد صحيح يا عم (تاكفا) " أضاف حسين بعده: " بالأمس فقط وأنا أهبط الأدراج.. مر حذاء (تاز) من أمام وجهي، وعندما صعدت وجدته نائما.. "

نظر (تاز) إلى حذاءيه فحرك قدميه قليلا ثم نزع الحذاء ورماه خلف ظهره، وكان ذلك مضحكا لدرجة جعلتهم يقهقهون من أعماق بطونهم، فعاد (تاكفا) بعد أن تمالك نفسه يسأل:

ـ " هل خفت يا (تاز)؟ " قال ذلك ورفع سفودا وناوله إياه، فلم يفعل (تاز) أكثر من أنه هز رأسه نافيا ثم أمسك السفود بيده وجعل يلوح به حتى يبرد، لكن حسن أجاب عنه بعد ذلك:

ـ " (تاز) لا يخاف أبدا، مثلي.. "

وما إن قال حسن ذلك حتى فرقع شيء ما من الغرفة المجاورة جعلته يثب من مكانه فعانق حسين ودس رأسه في صدره من شدة الهلع، لكن أحدا منهم لم يقم لتفقد الأمر بعدها، بل ضحكوا جميعا على حسن الذي كان للتو يخرج رأسه من بين ذراعي شقيقه:

_ " ابتعد عني.. " هتف حسين مبعدا وجه أخيه ثم عاد يخاطب (تاكفا): " أرأيت، لهذا لا يأتي الناس إلى هنا.. "

قال (تاكفا) حائرا:

_ " لكن ألا يؤذونكم أبدا؟ "

_ " أبدا، أبدا.. " رد حسين نافيا يحرك رأسه، فعاد (تاكفا) يخاطب هشام:

_ " هشام، أين تركتم القرد إذن؟ "

_ " في الغابة، كما يبدو! "

بعد ربع ساعة، قال حسين وهو يضع السفافيد الفارغة جانبا والتي كان انتهى لتوه من أكلها:

_ " هل نذهب غدا إلى قاعة السينما؟ "

قال ذلك بشكل عشوائي غير قاصد به أي واحد منهم، فتوجهت إليه نظرات الجميع ماعدا هشام الذي لم يكن في حاجة لذلك، بل انتظر فقط أن

يسمع رأي الآخرين في الاقتراح، فتوسعت عينا (تاز) وبانت ابتسامته ووقفت أذناه لأعلى، فتدخل مراد يقول مندهشا:

ـ " منذ متى تذهبون إلى هناك؟ "

فرد حسن بلهجة غير مفهومة:

ـ " كل شهر تقريبا، في الماضي كنا نذهب كل ليلة.. "

لكن حسين نهره بصوت لاذع:

ـ " لا تتحدث وأنت تمضغ الطعام يا أخي.. أنت لا تتعلم أبدا، هل تعرف ما الذي تشبهه في هذه اللحظة؟ "

ـ " لا، أخبرني يا أخي.. "

ـ " الحرباء.. الحرباء وهي تمضغ الجرادة.. "

لكن حسن لم يرد على شقيقه بعد ذلك، بل ركز نظره في يده ومضى ينهي ما كان يفعله، فعاد مراد يسأل عن الأمر بينما يصغى (تاكفا) باهتمام بالغ:

ـ " ألم يركم أي أحد وأنتم تدخلون القاعة؟ تعرفون أن هذا قد يوقعكم في المشاكل، صح؟ .."

ـ " نعرف.. "

ـ " ومع ذلك.. "

_ " وماذا إن رأونا! " وهكذا تدخل هشام بعد صمت: " أليس من حقنا أن نستمتع قليلا، في الأصل لماذا يبقونها مغلقة منذ أربعين سنة، بسبب أن أحدهم انتحر بداخلها!! تفاهة.."

_ " لا أحد يعلم السبب الحقيقي وراء غلقها يا هشام، جميعنا سمعنا بقصة الشاب الذي انتحر وسط القاعة، لكن الذين حضروا الأمر قلائل جدا ولا يريدون التحدث في الأمر مطلقا.. حتى أنني لا أعرف أحدا منهم.."

وتحدث (تاكفا) بعد مراد قائلا:

_ " يقال إنه شاب إفرنجي، من أوروبا.. "

_ " أجل، هذا ما سمعته أيضا.."

هنا في هذه اللحظة تماما، ومرة أخرى.. فرقع شيء ما في الغرفة المجاورة، كان الصوت يشبه مرطبانا قذف إلى الجدار وتدحرج لثانيتين ثم توقف، لكن هذه المرة شعر مراد و (تاكفا) بقلق حقيقي مما يحدث، فقام كلاهما من مكانه وانتصبا واقفين وجعلا يحدقان في الجدار بقلق، وبينما هما كذلك وقف هشام بدوره وراح يمشي نحو الصوت غير مكترث للكلام الذي قيل خلف ظهره، فالجميع عندما رأوا منه ذلك ومن شدة خوفهم عليه راحوا يهتفون باسمه بكل النبرات الممكنة، فقد تعذر عليهم أن يتخيلوا كيف لو أن هشام اضطر

لمشاجرة الجن، لو أنه اضطر.. فأنى له أن يفعل ذلك بكتف مريضة، عدا (تاز) الذي ولثقته الكبيرة في صديقه فإنه بقي جالسا مكانه ينظر بعينيه الزجاجيتين ويراقب الأمر كالأعمى.

ومرت لحظات لم يظهر فيها هشام فازداد قلقهم عليه أكثر من ذي قبل، حتى قرر (تاكفا) أن يذهب خلفه فظهر هشام لحظتها من خلف الباب حاملا معه القرد الصغير فوق ذراعه كما يحمل الصقر عادة.

مشى به نحوهم ثم أنزل ذراعه قليلا فقفز القرد عند قدميه وجعل يدير رأسه في كل زاوية بينما يضع قوائمه الأربعة على الأرض ويجول بعينيه الكبيرتين فيما حوله ببلاهة، فاقترب منه (تاز) يحبو على قوائمه الأربعة حتى لم يعد يفصل بين وجهيهما إلا مقدار شبر واحد، وحينها نطق حسين حينئذ:

_ " فهمت الآن لم ضحكت عندما تركناه في الغابة، كنت تعلم أنه سيعود إلينا.. "

_ " أجل، كنت أعرف " رد (تاز) وهو لا يكف عن تأمل القرد بوجه يقطر بالفرح: " هو خائف من أن يبقى لوحده.. " قال ذلك وعدل وضعه فجلس

القرفصاء واضاعا يديه في حجره وتيبس على تلك الحالة فكأنما هو ينظر إلى المرآة يتأمل نفسه منبهرا.

بعدها نطق (تاكفا) يقول مبهورا:

ـ " يبدو جائعا.. "

وأمّن مراد على هذا عبر تحريك رأسه، وانحنى نحو القرد وجعل يمسد شعر رأسه بينما القرد يغمض عينيه من المتعة:

ـ " كم هو جميل يا (تاكفا)، لكنني قبل الآن، لم ألمس قردا في حياتي.. رائع.."

كذلك انحنى حسن نحو القرد وحاول أن يفتح الطوق الذي حول رقبته دون جدوى، وقد كان في وسط الطوق قفل ذهبي اللون هو ما يبقيه مقفولا بشدة، ولذلك فقد طلب منه (تاكفا) أن يتريث قليلا ريثما يجدون طريقة مناسبة لفتحه، ونحى حسن يديه ووقف يسأل حائرا:

ـ " هل سنعيده إلى الغابة. مجددا؟ " قال ذلك وجعل يحدق في وجوه من هم أكبر منه سنا راجيا أن يجد عندهم الإجابة التي يودها:

ـ " بالطبع لن نعيده إلى الغابة.. يا أخي الأحمق.. " أجابه حسين دون أن ينظر إليه حتى:

" بل سنحتفظ به ما دام هو يرغب في ذلك.. "

ومن شدة فرح حسن بهذا الرأي الذي لم يكن يطمع لأن يسمع غيره، فإن ضربات قلبه تسارعت حتى شد قبضتيه بغير شعور منه وأوشك أن يقفز فرحا، لكنه وفي أثناء نزلة الفرح التي غمرته تذكر أن هذا الأمر لن يتم بغير موافقة هشام في النهاية:

ـ " هشام، ما رأيك؟ سنحتفظ به أليس كذلك! سنبقيه معنا! ما رأيك.. "

ـ " لا أدري ما رأيي.. " رد هشام بسرعة، وأثنى ركبتيه ونزل بوجهه نحو القرد الذي التفت إليه برأسه فقط دون باقي جسده الذي كان موجها صوب (تاز)، وبصرامة فيها من اللطافة أردف هشام يخاطب القرد بهدوء بالغ، قال بنبرته المعتادة:

ـ " لنسأل القرد أولا.. "

لكن القرد ولما كان قردا ولا شيء آخر، فإنه فوجئ بذلك بقدر ما تتفاجأ الوردة بموت غارسها، ولم يعرف بماذا يجيبه، بل راح ينظر إليه بفم مغلق، وبعينين دامعتين ووجه لا يتوقف عن التحديق في نفس الموضع لأكثر من ثانية، بل ظل ينتقل في وجه هشام من موضع لآخر.

في الأعلى، نظر مراد و (تاكفا) نحو بعضهما وابتسما من المشهد، كان (تاكفا) يضم ذراعيه على صدره أما مراد فدس إحدى يديه في جيبه دون الأخرى، (تاز) والتوأم انتصبوا واقفين والقلق يدب في صدورهم الصغيرة في انتظار ما يقول قائدهم، هشام الذي بعد ثانيتين قال رأيه:

_ " دعوه يبقى.. "

بهذا ولا شيء آخر، أجابهم، وكانت إجابته مثل الغمامة التي تجلب ظلها فتضعه فوق الفلاح الذي ذاب جبينه من العرق، و إن غبطتهم كانت واسعة مثل سعادته حينها، بحيث طفقوا يقفزون وينشدون الأغاني من الفرح، ولقد استعد حسن لأن يرفع القرد عاليا فوق رأسه لولا أن (تاز) سبقه لفعل ذلك، كان وزن القرد لا يزيد على ثلاثة عشر رطلا، ولذلك فقد حمله (تاز) بسهولة بالغة مادا ذراعيه لأعلى.

و وضعوه أرضا بعد ذلك وراحوا يتأملونه بعيون لامعة، وقال حسن:

_ " ماذا نسميه يا حسين؟ "

_ " لا أدري، لنسأل (تاز) ربما يعرف.. "

وأجاب (تاز) بتلقائية.. بينما عيناه تلمعان بفرح:

_ " لنسمه القرد.. "

_ " القرد!! لماذا يا (تاز)؟ "

_ " لأنه قرد يا حسن.. "

_ "اه.. فهمتك.. "

هذا والقرد يحك رأسه عند أقدامهم دون أن يكون له رأي في ذلك، وبهذا اتفق الصغار على أن يدعوه بالقرد حالما يضطرون لذلك، ولم يكن من شيء بعدها سوى أنهم خصصوا له مكانا للنوم بجانب (تاز) ففرشوا له فراشا طريا ولحافا ناعما وجعلوه يستلقي على ظهره مثل طفل مهذب.

***

في الثامنة صباحا، قال مراد لنفسه وهو يهبط الأدراج نعسا _ ما دمنا بدأناها فلنغرق بها إذن _.. جذب الباب وانظم إلى (تاكفا) الذي كان يحرق سيجارة في انتظاره، ركبا (البيجو 405) وظلت تخرخر بهم لعشر دقائق حتى قررت أن تسير أخيرا وتتحرك من مكانها، وعند المركز التجاري القديم التقيا هشام و (تاز) فتوقفا لالتقاطهما، قاصدين مصنع السيد (خوني) الذي يقع

جنوب المدينة، وكانت هذا الزيارة قد تحددت في الليلة الماضية قبل لحظات فقط من افتراقهم أثناء مغادرتهم، ففجأة توقف (تاكفا) مكانه واستدار يخبرهم أنه لابد من مقابلة السيد (خوني) غدا، وأنه إذا ما أجبرهم على سماع كلام لا يجوز قوله فإنه لا بأس بذلك أيضا، على أن تكون الزيارة قصيرة ومباشرة، يخبرونه فيها أنهم لا ينون على شيء سوى مساعدته على إعادة الطفل إن كان ذلك ممكنا.

ركن مراد سيارته بمحاذات الطريق ومشى مع الآخرين إلى مدخل المصنع، وأثناء ذلك شاء أن يخبر (تاكفا) عن قطع الأراضي الواسعة حول المصنع _ عبر إشارة من يده _ أنها تخص مالك المصنع نفسه، وأن لها فضلا كبيرا فيما وصل إليه من ثروة، عندما وصلوا عند البوابة كان ثمة حارس طويل يرتدي بذلة رمادية ويقف يضم ذراعيه على صدره وينظر متجهما لكل شيء يتحرك أمامه:

_ " مرحبا، هل السيد (خوني) هنا؟ " .

_ " أجل.. "

_ " هل يمكننا التحدث إليه للحظة؟ "

_ " هل أنتم زبائن؟ "

_ " نعم.. "

_ " لكنني لا أظن ذلك.. هل هذان الصبيان يعرفان في أمور التجارة؟ "

قال الحارس ذلك لما كانت عيناه تقعان على هشام و (تاز) والذي ظن لوهلة أنه رآهما سابقا، فحزم (تاكفا) ملامح وجهه ومضى يقول بنبرة واثقة:

_ " لا شأن لك بالصبيان يا صديقي، لكن سيدك سيهمه كثيرا أن يعرف كيف تعطلت تجارته.. "

بعد هذا، ومثل أي حارس بوابة على هذه الأرض يخاف أكثر ما يخاف من صاحب البوابة التي يحرسها، فإنه قد تنحى عن طريقهم وجعلهم يدخلون المصنع كما عُلّم أن يفعل مع الزبائن الذين يأتون لأخذ كميات كبيرة من الملابس الجاهزة، في الداخل كان المعلم يضم يديه خلف ظهره وصدره موجها نحو أربعين عامل.. صبيان ونساء رقيقات الأضلع كلهم يجلسون خلف آلات الخياطة وهم منكبون بوجوههم عليها انكباب الآكل على القصعة، حتى إذا دنا الصحاب من المعلم والتفت نحوهم فقد حدثته نفسه أن يلعنهم مرتين قبل أن يبدأ في الحديث إليهم.

_ " تفضلوا.. "

ونطق مراد يقول بتعقل:

ـ " سنكون مسرورين يا سيدي، إن رغبت في التحدث إلينا عن أمر نظنه بالغ الأهمية، بل مهم بحيث نرى أنه سيكون من غير اللائق أن نتحدث فيه هنا.. بينما يمكن أن يسمعنا عمالك.. "

عند هذا، ضيق السيد (خوني) عينيه فيهم يفكر للحظات ثم تحرك فجعلهم يمشون خلفه نحو الخارج، وهو بالتأكيد مكان شاسع لا يشبه كثيرا مكاتب الأسياد الضيقة التي عادة ما يستقبلون فيها زوارهم فيكرمونهم بفناجين القهوة.

خلف البوابة وقفوا في مكان قريب من الحارس بحيث كان يقف على بعد مترين فقط من السيد (خوني) الذي جعل نفسه بينهم مثلما تقف الأرض بين الشمس والقمر، وحينها كان من المناسب لتاكفا أن يبتدر الحديث قائلا إذ لم يكن من الصائب إضاعة الوقت أكثر:

ـ " سيدي، أنا شرطي سابق.. "

ـ " أعرفك جيدا.. "

ـ " آه، جيد.. إذن لنبدأ حديثنا من حيث ينبغي، مباشرة.. جئنا إلى هنا لنطرح عليك بعض الأسئلة بشأن المحامي لطفي والحكيم جمال، إن كان.. "

وعند قول (تاكفا) هذا، فإن وجه السيد (خوني) الذي كان ينظر إليهم باحتقار قبل لحظة لم يعد موجودا، بل اختفى وحل مكانه وجه آخر بعينين ضيقتين وفاه مفتوح قليلا من أثر الصدمة، ذلك أنه شعر وبما لم يقدر على إنكاره أنه على وشك أن يفقد سمعته في تلك اللحظة، ولذلك فقد التفت إلى الحارس المسكين فأمره بأن يختفي من الوجود حالا، ونفذ الحارس أمر السيد في أقل من ثانية واحدة، ثم عاد السيد (خوني) بعدها يحدق في (تاكفا) بوجه غاضب:

ـ " إيبه، وماذا تريد أن تقول غير هذا، ما شأني أنا بهما؟ "

ـ " لك شأن يا سيدي، جميعنا نعرف هذا.. "

نظر السيد (خوني) إلى هشام و(تاز) باحتقار بسبب ما جال في خاطره لحظتها وعاد نحو (تاكفا) الذي واصل يقول بعدها:

ـ " لكنك ستعرف ما نريد قوله إن سمحت لنا بسؤالك.. "

وكشر الرجل عن أسنانه البيضاء الواسعة، وبان حجم القلق الذي اعتراه لما راح يرد بغضب:

_ " ينبغي علي أن أعرف أولا، هل هذان الشيطانان أخبراكما بأي شيء عني؟ أنا أعرف، هما ناكران للنعمة، ولا ينبغي لناكر النعمة إلا يكون نماما أيضا.. فيما أحسب.."

_ " لا تهدر طاقتك يا سيدي.. " أجابه هشام بشجاعة بالغة: " أنا أعرفك أكثر من أي شخص هنا، حتى الذين في الداخل، فعادتك حينما تغضب _ وأنت بطبعك لا تحب ألا يراك الناس غاضبا _ لأنك لا تخجل أبدا من إجبارهم على احترامك خوفا على مصالحهم وعلى عمل أولادهم عندك، فعادتك أن تبدأ فورا في السباب وضرب أقرب طفل تجده أمامك، لكن أكثر ما يزعجك في هذه اللحظة، هو أنك لم تعد قادرا على ضرب (تاز) كما كنت تفعل.. "

حرك السيد (خوني) بصره قليلا نحو (تاز) فكان يطالعه بنظرات متحدية، كأنما هو يستعد ليقفز إلى عنقه فينشب فيها أطراف أصابعه، بتلكما العينين الزجاجيتين اللتين اعتاد على احتقارهما دوما والتفل فيهما، تذكر (تاز) ذلك وشد على قبضتيه حقدا:

ـ " إيه يا سيد (خوني) " أضاف هشام ووضع يديه في جيبي سرواله مثل وقفة رجل: " هل ستخبرنا أين هو أسامة؟ "

هنا ابتلع الرجل الغاضب ريقه وبقي ينظر إليهم كتمثال من مرمر، وعاد الحديث إلى مراد حينئذ:

ـ " سيد (خوني)، لا شك أنك لاحظت أن بعض سكان المدينة قد اختفوا في ظروف غامضة.. "

ـ " بالطبع لاحظت هذا، الجميع لاحظوا.. إلا الشرطة.. "

ـ " وهذا ما نقوله، إذا كانت الشرطة لن تبحث في الأمر أبعد من قدميها، فيجب على أحدهم أن يفعل، لا أن يبقى الجميع مكتوفي الأيدي.. نعرف خمس حالات أو ستة ممن اختفوا بغير رجعة، والقاسم المشترك بينهم أنهم فقراء وضعفاء لا يقدرون على الدفاع عن أنفسهم ولا يملكون أحدا يستطيع فعل الكثير لأجلهم، لذلك يا سيد (خوني) " قال (تاكفا) ذلك ونظر إلى ساقه المريضة: " لا أشك في أنك سمعت أيضا بقصتي، فمن حاول قتلي من أجل اختطاف رجل عجوز هو شخص تعرفه جيدا.. "

وانكمش جبين السيد (خوني) واقترب حاجباه وصاح نابحا:

ـ " ما الذي تقوله يا ولد؟ "

_ " ما أقوله يا سيدي، هو أنك ربما الشخص الوحيد الذي يقدر على مساعدتنا في الإمساك بمن يقومون بهذه الجرائم.. نريد منك أن تخبرنا عما تعرفه عن المحامي والحكيم.."

_ " إييه، لم يبقى لي شغل إلا أن أضيع وقتي معكم، انظر إلي أيها الشاب الأرعن، تعلم أن عليك ألا ترمي الكلام هكذا، مثل القيء النتن.. أنت تتحدث عن شيء سيء، شيء بشع، اختطاف الناس.. أوافقك، لكنك تتحدث أيضا عن أناس شرفاء يفيدون المجتمع، عندما تتحدث عن السيد لطفي والحكيم جمال، فعليك أن تليّن حديثك، ثم ألم يكن لطفي هو محاميك في تلك القضية عندما اتهمت رئيسك في العمل؟ هل كان يليق بك فعل ذلك؟ ها.."

_ " أجل، كان محامي.. بالمجان، وقد فعل عكس ما ينبغي للمحامي أن يفعله.. "

_ " ما الذي تعنيه بهذا؟".

_ " أعني أنه خسر القضية عمدا.. "

_ " هراء! "

ـ " ليس هراء يا سيدي، كنت أملك الدليل الذي يدين الراحل سليم، لكن لطفي تخلص منه ثم لم يجد بعد ذلك ما يقوله في المحكمة.. "

في هذه النقطة، أخذ السيد (خوني) يحرك ذقنه مفكرا، ثم بدل وقفته وهتف يقول بعدها مشيرا إليهم بسبابة يده اليسرى :

ـ " اذهبوا، اذهبوا من هنا حالا و إلا سأستدعي الشرطة، وتعلمون جيدا أنني أعرف كيف أجعلهم يأتون إلى هنا.. "

ـ " ليكن، يا سيد (خوني) لكن بقي أمر ينبغي أن تجيبنا عليه و إلا فلن نذهب من هنا حتى لو استدعيت الشرطة.. "

ـ " ينبغي عليك أن تخبرنا.. " واصل (تاكفا) يتلو سؤاله الذي جعل السيد (خوني) يضيّق ناظريه حتى كادت تختفي عيناه داخل رأسه:

ـ " ما الذي يمكن أن يكون قد فعله ذلك الاثنان بالطفل أسامة؟ تقول أمه أنك أرسلته للعمل في حلب الأبقار، لكن ما نعرفه أنك لا ترسل أبناء الفقراء للعمل خارج المدينة.. "

ـ " إلى هنا، إلى هنا خلتك ستصل.. وها أنت ذا، هل ستشكوني كما فعلت مع رئيس عملك؟ لكن تفضل، بما أن رأسك صلب مثل الحديدة، وتحب أن تحشر ساقك في الحفر الضيقة حتى لا تستطيع إخراجها سليمة بعد ذلك.. "

ورد (تاكفا) بثقة:

ـ " لا أرغب في فعل أي شيء ضدك، أنا أعرف أن الحكيم جمال أخذ منك الطفل يا سيدي.. ولذلك فأنا لا أتهمك أنت شخصيا، لكنني أعرف أيضا أنك واقع في مشكلة إن كان ما نظنه صحيحا، إن والدة الطفل لن تصبر عليه كثيرا، فالنقود التي تقدمها لها لن تكون كافية بعد فترة.. مهما بلغت، كما تعرف.. "

أغلق (تاكفا) فمه بعدها ومنح السيد (خوني) وقتا ليفكر فيما سيقوله، وكان جبينه بدأ يتعرق وبان عليه التوتر الشديد مما يسمع، ومضت السبع ثواني التي منحها له (تاكفا) كأنها سبعون ساعة، فكر فيها بسبعين شتيمة كان يقدر على قولها بسهولة، لكنه تنفس عميقا وارتد يقول برصانة:

ـ " اسمعني جيدا، الطفل سيعود إلى أمه في المساء قبل غروب الشمس حتى، لذلك.. أقسم برب هذا الولد، أنكم إذا بقيتم في أماكنكم لأكثر من دقيقة أخرى... سأجعلكم لا تنامون بشكل جيد.. "

ـ " تقول إنه سيعود في المساء يا سيدي؟ "

ـ " أجل.. "

ـ " رائع، وهذا ما يهمنا حاليا.. لكن هل سيكون بصحة جيدة؟ "

ـ" خمسون ثانية.. "

هنا تدخل هشام يقول لما أدرك نوع اللعبة التي بات (تاكفا) يلعبها مع الرجل الغاضب:

ـ " يؤسفني يا سيد (خوني)، أن أراك غاضبا هكذا.. "

ـ " أربعون ثانية.. "

ـ " ألا تخاف أن تمرض وينفجر رأسك.. "

ـ " ثلاثون ثانية.. "

وهتف مراد يقول بدوره:

ـ " شكرا لك يا سيدي على وقتك.. "

ـ "عشرون.. "

ـ " نسيت أن أسألك عن بطتك السمينة، هل يستحق أن يأخذ مكاني؟ "

هكذا وبكره بالغ، هتف هشام يقول في وجه الرجل، ثم صمت الجميع بعدها، حتى لما مضت الثواني المتبقية وهمّ السيد (خوني) بإخبارهم أن وقتهم قد انتهى، حينها تحرك الأربعة جميعا راجعين بأقدامهم خطوات إلى الوراء في وقت واحد، وبذلك أروه كيف أنهم لم يبقوا في أماكنهم لأكثر من دقيقة، وأنه لم يعد مضطرا لجعلهم غير قادرين على النوم بشكل جيد، وهكذا، وبهذه

الطريقة تركوه يشتعل غيظا وراءهم وهم يعودون إلى السيارة، فيما بقي واقفا مكانه يقسم لنفسه أنه سيسمع المحامي لطفي أشد الشتائم وضاعة عندما يراه مرة أخرى.

"واضح أن السيد (خوني) رجل له مبادئه برغم طمعه الشديد ولهفته للمال، مثلما هو واضح أن مجرد ذكر اسم المحامي أو الحكيم أمامه يذهب عقله وتتشتت أفكاره، ويغضب بشكل جنوني جدا، و إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على كونه يعلم جيدا ما يخطط هذان الرجلان لفعله، وأنه أمر سري بالغ الخطورة، بدايته اختطاف أناس ضعاف لا حول لهم ولا قوة" هكذا فكر (تاكفا) شارد الذهن ورأسه يهتز دون توقف، بسبب شطحات السيارة.. ولذلك قال بعد ثوان قليلة:

_ " مراد.. "

ورد الأخير يبدل مغير السرعة من مكانه:

_ " أجل.. "

_ " فيمَ تفكر؟ "

وصمت مراد فلم يقل شيئا، لأنه نظر إلى المرآة فوق رأسه فرأى هشام يحاول فك الحزام حول كتفه، فيما رأى (تاز) يسند رأسه إلى رأس المقعد وهو يتطلع عبر النافذة إلى الجبال البعيدة في الخارج، و لم يعلق بشأن ما كان يفعله هشام.. بل رد التحية على راعي أغنام سلم عليه في الطريق وعاد يقول مادا ذراعيه ومشددا يديه على المقود:

ـ " في ماذا أفكر يا (تاكفا)؟ في تجارة الأعضاء!! "

ـ " أمم.. فكرت فيها أيضا.. لكن المشكلة، وعلى فرض أنهما يقومان بهذا فعلا، فلماذا اختارا كبار السن تحديدا، مَن قد يشتري أعضاءهم؟ "

ـ " لا أدري.. الأمر برمته غير منطقي أبدا، لم يجد الجنون من يصيبهم غير هذين الشخصين من المجتمع.. "

هذا، وكانت السيارة المصبوغ جانبها بشكل مختلف، وهي تخرخر بهم، توشك أن تتوقف في أية لحظة، لكنها قوت في النهاية ولمدة نصف ساعة كاملة على أن تحملهم حيث أرادوا.

كانوا يتقدمون صامتين وصف من الجبال يخنق المدينة وراءهم، حتى إذا مروا بين الروابي والتلال بانت لهم أرض واسعة تخترق فيها الطرقات الترابية بعضها بعضا، وترتفع وسط الأراضي بعض البيوت والحظائر الكبيرة، ويفصل

بينها أشرطة من الأسيجة الخشبية، تركض بينها أغنام وكلاب رعي تحرسها، فإذا هي أراضي زراعية كما يمكن للقارئ أن يتخيل، ثم رأى الصحاب رجلا يتجول قرب كوخ بجانبه مستودعين مقرونين ببعضهما وهو يحدق نحوهم، فنطق هشام من الخلف يشير بذراعه قائلا:

ـ " إلى اليمين، مراد، هناك خلف كومة الصخور تلك، المدخل.. "

وبعد أن مر جرار بطيء بجانبهم، التفت مراد بآلته حول الصخور وعبر سياجا كان مفتوحا فخرخرت السيارة قليلا أمام حظيرتين كبيرتين وهدأت في مكانها.

نزل الرفاق ومشوا نحو بوابة عظيمة تقف على مدخل الحظيرة اليسرى، ولأنها كانت نصف مفتوحة فقد دلفوا إلى الداخل مباشرة ونظروا فإذا بعدد من الأبقار مصفوفة بجانب بعضها وهي تغطس رأسها في خنادق صغيرة مبنية ومملوءة بالتبن عن آخرها، كانت الأبقار تحرك أذيالها وترفع رأسها من حين لآخر، وعندما نظرت إليهم إحداها، و كان هناك طفل صغير يحمل كيس تبن فوق كتفيه ويصب منه في الخندق أمامها، فلم ينتبه إلا وقد تساقط اللعاب من فمها على رأسه، وعندما ألقى الفتى الكيس عند قدميه واستدار ليمسح رأسه، حينها فقط رأى الزائرين الذين كانوا يتأملون المكان يقفون

بغير حراك جنب بعضهم مثل الأوتاد الحية، وتهللت أساريره فركض سريعا نحو هشام و (تاز) فعانقهما وعيناه تكادان تطفحان دمعا:

_ " لا أصدق أنكما هنا.. هشام، (تاز) " هتف الصغير فرحا.

ورد هشام:

_ " مرحبا عامر.. أين الآخرون، أين ذهبوا؟ "

قال عامر مشيرا بيده خلف ظهره:

_ " في الخلف، يتناولون غداءهم.. "

فتدخل مراد يسأل:

_ " ألا يوجد أي أحد غيركم هنا؟ قبل قليل، رأينا رجلا يتجول في الخارج، هل تخبره أننا نريد رؤيته؟ "

هنا تبدلت أسارير الفتى بغرابة في سرعة بالغة، وانمحت البسمة من على وجهه وبان عليه أن السؤال قد أربكه، فتراجع خطوة إلى الوراء وراحت عيناه تهتزان بينما يجيب والخوف يملأ صوته:

_ " ها.. لا، أبدا.. لا يوجد أي أحد.. السيد (خوني) ليس هنا، نحن وحدنا.."

قال الفتى هذا وابتلع ريقه مرغما، لكن هشام كان أقدرهم على أن يلاحظ حالة الفتى، بسبب معرفته السابقة به وفطنته التي تفوق فطنة (تاز) بمراحل:

_ " اعذروني، سأعود إلى العمل.. " أضاف الفتى وركض بعدها هاربا في الجهة الأخرى حتى اختفى خلف الأبقار ولم يعد يرى، قال مراد يسأل بحيرة:

_ " ترى ما به هذا الولد، وأين ذلك الرجل الذي رأيناه قبل لحظة؟ أين اختفى؟ "

ردد (تاكفا) خلفه وهو ينظر بعمق إلى الزاوية البعيدة حيث ينتهي صف الأبقار عند البوابة المقابلة:

_ " من الواضح أنه منع من التحدث، ألم تره كيف تبدلت تصرفاته مباشرة بعدما سألناه عن الرجل؟ "

_ " أجل، لكن لماذا؟ هل يعقل أن يكون ذلك الرجل هو.. "

ونظر الاثنان إلى بعضهما:

_ " المحامي لطفي أو الحكيم جمال؟ "

_ " هذا ما قصدته.. "

_ " ممكن، بل ممكن جدا.. وإن كان صحيحا فإنه هو أيا من كان قد أمره بعدم التحدث.. "

ـ " هذا واضح، ينبغي علينا الآن أن نجده.. هشام.. " قال مراد والتفت نحو هشام و (تاز):

ـ " عملت أنت و (تاز) هنا سابقا، ألا يمكن أن تتوقعا إلى أين يمكن أن يكون قد ذهب هذا الشخص؟ "

رد هشام بتلقائية:

ـ " ربما في المنزل، عندما كنا هنا، كان يوجد مزارع كبير في السن هو من يقوم بإدارة المزرعة و المنزل خلف الحظيرة.. "

ـ " تقول مزارع! يعني أنه شخص ليس به أية شبهة؟ "

ـ " أجل.. لكن لا أدري الآن، فلم أعد منذ زمن، كما أن عامراً لم يكن يتصرف هكذا، إن جاء أحدهم ليسأل عن المزارع كان يخبره عن مكانه فورا.. "

ـ " يعني أن الشخص الذي رأيناه في الخارج ليس هو المزارع.. "

ـ " ربما.. "

دار (تاكفا) حول نفسه دورتين وقال بعدها:

ـ " حظيرتان ومنزل، هل ننقسم ونبحث عنه أم نبقى معا؟ "

هنا تذكر هشام أمرا:

_ " نسينا أن نسأله عن أسامة.. "

_ " صحيح يا هشام، كيف نسينا ذلك! "

_ " لا بأس، لننقسم، ابحثوا أنتم في الحظيرة الأخرى، وفي الخارج، (تاز) أنت التفت حول المكان وابحث جيدا.. أما أنا فسأذهب إليهم وأسألهم، نلتقي عند المنزل بعدها.. "

هكذا قسم هشام الأمر بينهم، فذهب كل في سبيله يبحثون بحذر، حتى مرت خمس دقائق ثم التقوا عند منزل صغير يقف خلف الحظيرتين مختبئا، ولم يبدو على أي واحد منهم أنه وجد للرجل أثرا، فقال هشام وكان أول من تحدث:

_ " أسامة لم يأت إلى هنا، أبدا.. أمه كانت تكذب، مثل السيد (خوني) "

وهز مراد رأسه موافقا ونظر إلى (تاكفا) بعدها هز (تاكفا) رأسه يمنة ويسرة على أنه لم يجد أثرا للرجل، فنظروا بعد ذلك إلى (تاز) ولم يكن جوابه يختلف كثيرا عن جواب (تاكفا)، وقفوا حائرين عند باب المنزل يتطلعون إليه وأيديهم على خصورهم:

_ " هيه، ماذا نفعل؟ " سأل مراد، فكان رد (تاكفا) أن اقترب من زجاج النافذة وجعل يطل واضعا يده حول عينه، بعد لحظات عاد يقول يائسا:

ـ " الكوخ فارغ، لا يوجد أحد بالداخل.. "

ـ " أين اختفى، هذا الجني.. أين اختفى! " ردد مراد من خلفه بحيرة، كما أن (تاز) ذهب إلى الباب وحرك مقبضها بقوة، وعاد إلى مكانه خائبا، بعدها اتفقوا على أن يعودوا إلى حيث كانوا قبل ذلك ويلقوا نظرة أخرى، و إذ ذاك فقد وجدوا ثمانية أطفال يخرجون من حظيرة الثيران يحملون دلاء معدنية في أيديهم وهم ينظرون عند أقدامهم، لكن جماعتنا فهموا أن أيا من كان ذلك المختفي فإنه قد أمرهم بفعل ذلك حتى يفهم الزائرون أنه ليس مرحبا بهم، كذلك أثنى كل طفل ركبتيه عند ضرع بقرة وجعل يحلبها بينما هي في تؤدة تمضغ طعامها فوق رأسه.

***

كانت قاعة التزلج تأخذ مكانها في ركن عميق من المدينة، وكانت جدرانها مثل أية بناية أخرى، من الخارج تبدو مهملة تنزل عليها خيوط سوداء تشتت لونها الأبيض المائل للصفرة، تبدو من بعيد كأنها بنوافذها المكسورة تنظر إلى الجميع نظرات طاردة توحي بالفراغ والوحشة، لكن فكرة الذهاب إلى

قاعة التزلج وبعد أن طرحت بينهم في الليلة السابقة، كانت من الروعة بحيث لم يرفضها أي أحد، حتى الذين لم يكونوا يعرفوا أي فكرة عن طريقة الدخول إليها لأنها كانت مغلقة منذ سنوات بعيدة، و في الطريق إليها كان هشام يجيبهم عن أمر أسامة لما راح يقول بذهن غائب:

_ " أخبرني أنه لم يشعر بما حدث له في السيارة عندما أخبره رجلان أنهما سيأخذانه لعمل جديد سيكسبه مبلغا جيدا، تحت توصية السيد (خوني) طبعا.. "

_ " المحامي والحكيم جمال! " قاطعه مراد.

_ " هذا واضح.. استطاع أن يتذكر فقط، أنهما جعلاه يشرب عصيرا لذيذا عندما كانوا على حدود المدينة، ثم فقد وعيه ولم يفق مرة أخرى إلا هذا المساء، عندما فتح عينيه وشعر بصداع شديد في رأسه، بداخل سيارة السيد (خوني)، رقد على المقاعد الخلفية.. وعندما سأله عما حدث، قال له السيد (خوني) أنه أصيب بالإغماء من شدة التعب في العمل، وأنه بذل جهدا كبيرا، ينبغي أن يأخذ لقاءها قسطا من الراحة في بيته، المشكلة أن أسامة لم يستطع أن يتذكر أي عمل قام به في الأيام الماضية.. غير أنه عاد بندبة في رأسه لم تكن موجدة.. "

_ " تقول ندبة؟ "

_ " ليست ندبة بذلك المعنى، لكنهم قاموا بحلق مكان فوق أذنه على شكل دائرة صغيرة، ويظهر بسهولة أثر جرح صغير في وسطها.. "

هنا توقف الجميع عن التقدم والتفتوا نحو هشام ينتظرون منه أن يضيف شيئا فوق هذا، مراد و (تاكفا) و (تاز) والتوأم وهديل، جعلوا يحدقون فيه بعيون نهمة، لشدة الأثر الذي خلفه كلامه في نفوسهم، إذ بدا مما فهموه أن الأمر بالغ الخطورة، عاد مراد يسأل قلقا:

_ " ماذا قالت والدته بشأن هذا؟ "

_ " هو قال لها أنه فقد وعيه من أثر التعب فسقط على آنية خزفية جرحت رأسه، تماما مثلما أخبره السيد (خوني)، حسنا.. أسامة يصدق الكثير مما يقال له في العادة.. وأمه أخذت نقودا لقاء تصديق الأمر أيضا.."

_ " إذن فالأمر ينتهي هنا! "

_ " إذا ذهبتما إلى بيت عائلته غدا، لتستفسرا عن الأمر مجددا، فإنكم لن تحصلوا على أكثر مما سمعتموه مني هنا.. أنا متأكد.. "

هكذا وبينما يتواصل الحديث بين الكبار في الأعلى، رأت هديل أن تسأل حسن عما يحدث، ولأنه لم يكن يعرف عن الأمر إلا أكثر بقليل مما تعرفه قطتها، فقد أجابها بصوت خفيض قدر ما استطاع ذلك:

_ " أسامة، صديق قديم لنا.. لكنها أمور تخص الكبار صدقيني، لا تحاولي معرفتها.. أنا أعرفها، وأشعر بالندم على هذا.. أختنق من الندم.. "

ولما كان جواب حسن من العشوائية بحيث بدا لفتاة صغيرة مثل هديل، وافيا وبارعا، فإنه كان كافيا أيضا ليشعرها بضيق شديد من أمور الكبار البغيضة التي تجعلهم يشعرون بالسوء لدى معرفتهم بها، ولذلك صرفت اهتمامها عن حديثهم النيئ إلى قطتها التي كانت تموء بين ذراعيها وجعلت تلاعب أذنيها بحنان بالغ.

(تاكفا) بصلعته الساطعة تحت القمر، راح يلخص الأمر قائلا:

_ " إذن الأمر هكذا.. " وصمت يفكر للحظة، ناظرا لأسفل : " أسامة كسائر الأطفال الآخرين الذين يعملون لدى السيد (خوني)، ولأنه وجد فيه شيئا _ حتى الآن لا نعرف ما هو _ شيئا مميزا، فقد اختاره من باقي الأطفال الآخرين جميعا، مع أنه يوجد يتامى كان بإمكانه أن يخاطر بواحد منهم دون أن يخاف من أن يقلق عليه أحد، اختاره وأعطاه إلى الحكيم جمال _ بالطريقة

التي عرفناها من هشام قبل قليل ـ فقام الحكيم جمال مع المحامي لطفي بإعطائه مشروبا أفقده وعيه بداخل السيارة، بينما يأخذانه إلى عمل جديد ـ حسب قولهما ـ خارج المدينة، ولم يفق بعدها إلا لما وجد نفسه يستيقظ مع جرح في رأسه بداخل سيارة السيد (خوني) وهو يعيده إلى المدينة مجددا.. طبعا بعد أن ضغط السيد (خوني) عليهما لأجل إرجاعه بسرعة، و مع أنه غاب عن أمه لأكثر من أسبوع كامل، إلا أنها لم تشتكي ما حدث لابنها لأن السيد (خوني) يعرف كيف يجعل الناس ـ هنا ـ يغلقون أفواههم بسرعة.. "

ـ " أحسنت يا (تاكفا) " هلل مراد معبرا عن رضاه بشرح صديقه، وأضاف يقول بعده:

ـ " هذا لنعيد ترتيب حساباتنا جيدا، ولنضع في حسباننا.. " عند هذا نظر إلى هشام وأتبع يقول: " أن هذا الأمر قد يكون بالغ الخطورة، بعدما حدث لأسامة، لم يعد أي شيء يدعونا للشك في أن الذين اختفوا.. " هنا أيضا توقف عن أن يتم كلامه بعدما أصدر (تاكفا) نحنحة خفيفة ليمنعه عن قول أكثر من ذلك، ولو أنه قصد بقوله إفهام هشام كيف أنهم حشروا أيديهم في جحر ضيق تسكنه أفاعي سامة، وأيضا حال ذلك دون أن تفهم هديل التي كانت أصغت السمع باهتمام في تلك اللحظة كيف أن جدها يمكن وبسهولة

تامة أن يكون قد فارق الحياة منذ مدة، على هذا غير مراد كلامه إلى شيء آخر يختلف تماما عن سياق الحديث السابق، لكن وبعد أن مشوا بضع خطوات عن أماكنهم قال هشام وبدا واضحا أنه أخذ وقته للتفكير في ذلك، قال بصوت تعلوه الثقة:

_ " أنا لن أتراجع عن الأمر أبدا، مهما كلفني.. "

نظر إليه مراد و (تاكفا) نظرات جانبية ولم يقولا شيئا.

كان قرص القمر يلمع في السماء لوحده، وسط صفحة الظلام الواسعة، وكان (تاز) ينظر إليه رافعا رأسه بينما الآخرون يتقدمونه بثلاث خطوات كاملة، لكنهم عندما توقفوا عن المشي فجأة، فإنه اصطدم بهشام وكاد يسقطه أرضا، وعندما جمع نفسه ونظر بعد ذلك فقد كان ثمة امرأة بعمر الخمسين تقف أمام المبنى تحدق في نوافذه، كانت ترتدي ملابس أنيقة وحذاء ذا كعب عال وتجمع يديها عند صدرها بخشوع بالغ، هكذا ظلت تقف لنصف ساعة كاملة، ولم يرد الرفاق إزعاجها بل ظلوا مختبئين ينتظرون ذهابها، وخلال ذلك همهم (تاز) بصوت باهت:

_ " أليست هذه العمة نس.. نس.. نسرين! "

فأجابه مراد من فوقه:

_ " بلى يا (تاز)، زوجة المفتش.. "

وكذا قال (تاكفا):

_ " ما الذي تفعله هنا؟ "

فجأة بدا أن المرأة قد سمعت شيئا أربكها، فجعلت تلتفت يمنة ويسرة ثم جمعت أطرافها وغادرت المكان فورا.

بعد ثانيتان فقط، ظهر حسين برفقته القرد يمشي على أطرافه الأربعة خلفه. بينما هو يمسك الحبل الملفوف حول رقبته، والتقى الجميع حيث كانت تقف المرأة قبل ذلك، ناظرين إلى القرد الذي جلس مثل طفل مؤدب على مؤخرته وجعل ينقل عينيه الواسعتين بينهم، لم تحب هديل منظره أبدا، بل عانقت قطتها بقوة أكبر وتراجعت خطوتين وهي ترمقه شزرا:

_ " لا تخافي يا هديل.. ه، هه، هو لن ي.. ي.. يؤذيك أبدا.. " هكذا قال (تاز) لما رأى منها ذلك، ثم إنها نظرت إلى القرد فرأته ينظر إليها مباشرة فأبعدت عينيها عنه بسرعة، وأرادت أن تصرخ بأعلى صوتها لكن مراد أمسك يدها حتى هدأت.

تمكن هشام وحسين بعدها من فتح الباب باستعمال ملقط صغير و عبثا معه لدقيقة كاملة، ثم وبسرعة بالغة، قاما بغلق الباب مجددا بعدما دلف الآخرون وراءه، وراحوا ـ بعد أن أضاء (تاز) المصابيح ـ ينزلون الأدراج التي تفصل المقاعد الكثيرة إلى نصفين يمنة ويسرة، وبدهشة بالغة، أخذ كل من (تاكفا) ومراد وهديل ـ والذين لم يكونوا قد دخلوها قبلا ـ أخذوا يتطلعون إليها بإعجاب وغرابة، كانت المقاعد الحمراء مغبرة والستائر منسدلة على النوافذ حتى لا يخرج الضوء ويكشف أمرهم، وكانت تعلو الخشبة شاشة عملاقة مطفأة، وفيما عاد هشام وحسين إلى الوراء قليلا، أخذ الآخرون أماكنهم تواليا، (تاكفا) ثم مراد ثم هديل ثم حسن ثم (تاز) ثم القرد إلى جانبه والذي نال مقعده الخاص أيضا، بينما هشام وحسين يعالجان آلة الأشرطة، وهديل تلاعب قطتها وحسن و(تاز) يناوشان القرد، وجد مراد و(تاكفا) أن يتحدثا قليلا قبل أن يبدأ العرض المنتظر، قال (تاكفا):

ـ " لا أصدق ما الذي يحدث.. "

وبعد ضحكة صغيرة أطلقها مراد:

ـ " ولا أنا، لكن لا بأس ببعض الجنون يا (تاكفا)، في عمرنا هذا.. أعتقد أنها ستكون تجربة رائعة، نتذكرها لاحقا ونضحك على أنفسنا.. "

_ " أصبحنا مثل الأطفال المشاغبين.. "

_ " أعرف.. " قال مراد وأردفها بضحكة أخرى، لكن (تاكفا) لم يكن يضحك إلا في حالات نادرة، لأن شعوره بالغرابة لا يفتأ يكبر ويكبر، فتنهد عميقا وهو يمسح الغبار عن الكرسي الذي بجانبه وعاد يغمغم:

_ " أرأيت هشام، نزِع الرباط عن كتفه وهو لم يشفَ بعد كما يجب.. "

_ " هو هكذا، لا يحب القيود أبدا، مهما كان نوعها... لكن، اسمعني، صدقا.. أفكر منذ فترة.. كيف قبِل بالدخول معنا في هذا، ثم ما قاله قبل قليل عن عدم وجود أية نية لديه في التراجع.. أعتقد أنه يخفي شيئا، وأن لديه هدفا خاصا يسعى لتحقيقه من وراء كل هذا، بعيدا عن كشف ما يفعله الحكيم والمحامي، أمر يخصه لا يريد من أي أحد أن يعرفه.. "

_ " فكرت في هذا أيضا، و إذا بدأنا في تركيب الأشياء فربما نصل إلى فكرة.."

_ " أخبرني في ماذا تفكر.. "

_ " انظر، الكثير من المجانين في المدينة لم يكونوا موجودين قبل أشهر، وهم غرباء عنها.. أشخاص فُقدوا، هناك من قام باختطافهم، وربما سيُختطف آخرون غيرهم.. والدته قد جنت كما أخبرتني، واختفت.. و والده في السجن،

نعرف أن الحكيم والمحامي قاما باختطاف أحد الذين فقدوا، ما لا نعرفه هو.. "

ـ " هو، هل لهذا الثلاثي علاقة.. بين الجنون والاختطاف والحكيم مع المحامي! "

ـ " صحيح.. إذا كانت هنالك علاقة بينهم، فأؤكد لك أن هشام يعرف أمورا مهمة لا نعرفها"

ـ " أعرف طبيعته جيدا، من المستحيل أن يفكر في إيذاء أحد، ولو أنه يعرف أمرا، ويعرف أنه سيفيدنا، لما تردد لحظة واحدة في إطلاعنا عليه.. "

ـ " لم أقل أنه سيؤذينا.. لكنني لست مطمئنا للأمر أبدا، لأكون صريحا معك.. "

ـ " لا ألومك، في الأصل لهذا كنت شرطيا بارعا، لم تكن ترتاح للأشياء التي تراها سهلة، فما بالك بكل هذا، أحيانا رأسي يكاد ينفلق عندما أبدأ في ربط المعلومات التي نملكها.. لكننا نتقدم كل يوم خطوة، و علينا الحصول على الصندوق في الأيام القادمة، قبل أن يحصل عليه الحكيم جمال عندها ستكون خطوة كبيرة حقا.. "

ـ " بالحديث عن الصندوق، ما بال تلك المرأة، ما الذي كانت تفعله هنا في رأيك؟ "

ـ " لا رأي لي في هذا، لا أعرف.. لكن آمل أن نعرف هذا أيضا، إن سار كل شيء كما ينبغي.. "

وفكر (تاكفا) لبرهة:

ـ " هل تعرف الشخص الذي قالوا أنه سيساعدهم؟ "

ـ " ياسين.. آه.. هل تذكر عندما أخبرتنا عن حادثة حاوية القمامة، الرجلان اللذان تشاجرا بسببها في الساحة الكبيرة؟ "

ـ " أجل، أذكر.. "

ـ " هو والده، أقصد الضعيف بينهما.. "

ـ " حقا.. "

ـ " أجل، ياسين كان يعمل معهم في وقت مضى في أمور مشابهة، ويعمل في المطحنة التي يملكها السيد (خوني)، عندما تراه تعرف طبيعته مباشرة، هو كسول جدا، ولا يتوقف عن التفكير أبدا كأن الماء يظل يغلي بداخل رأسه، ستراه يشبه (تاز).. يشبهه كثيرا، كأنه شقيقه الأكبر.. "

ـ " مريض؟ "

ـ " لا، هو هكذا بطبعه، منذ الصغر.. لا يحب أن يقوم بأي شيء أكثر مما ينبغي عليه أن يقوم به، تقريبا هو لا يخرج من المطحنة، حتى عندما لا يكون لديه عمل تجده جالسا في الزاوية.. يفكر.. "

وقطع ضوء ساطع لمع على الشاشة العملاقة حديثهما فجأة، وعندما التفتا، فقد كان واضحا أن هشام وحسين على وشك الانتهاء من اللمسات الأخيرة، وأن العرض على وشك أن يبدأ، ولم تمض غير لحظات حتى بان وسط الضوء المشع على الشاشة أرقام سوداء راحت تتغير نزولا من عشرة إلى واحد، وعندما كتب الصفر مكانها فإن هشام وحسين كانا يأخذان مكانيهما بجانبهم.

ابتسم (تاكفا) حتى تباعدت شفتاه كما لم تفعلا منذ فترة:

ـ " شارلي شابلن! " قال بحب بالغ.

ولم تكن حالة صاحبه مغايرة، إذ وضع ساقا فوق أخرى ولكم كانت سعادته كبيرة وهو يرى ذلك:

ـ " هأ.. أجل، (شابلن)، لم أتوقع هذا.. "

ـ " إذن مازالت الأشرطة موجودة على حالها، رائع، كيف تم تجاهل القاعة هكذا.. "

_ " بطريقة مبهرة! "

_ " مبهرة.. "

كان قد مر على العرض عشر دقائق، وكان (شارلي شابلن) _ في فيلمه _ الهروب من السجن _ على وشك أن يَتم إنقاذه من طرف سائق العربة بعدما قام الرجل صاحب اللحية الطويلة بركله ومنعه من صعود السلم، هذا بعد أن أنقذه شابلن من الغرق وقام بمساعدته، وهو فيلم مضحك جدا بل وبالغ الروعة، ككل أعمال (شارلي) الرمادية العجيبة.

نظر (تاكفا) إلى الصغار وبدو شاردين ومستمتعين جدا بما يرونه، كما ظلت أعينهم تلمع مع كل مشهد، وكان (تاز) أكثرهم ضحكا، ولا يكبح نفسه عن ذلك أبدا وينطلق يضحك بأعلى صوته بين لحظة وأخرى، كلما دعاه المشهد لذلك، وفيما نامت قطة هديل في حجرها، ظل القرد الصغير وهو جالس على الكرسي يفرش أطرافه الأربعة على المقعد يحدق بغرابة فيما حوله كأنما تم أسره في قبيلة لا يعرفها.

انتهى العرض بعد نصف ساعة، وقام حسين من مكانه صوب الآلة وشغل شريطا آخر، الشارع السهل، هكذا كان اسم الفيلم هذا المرة، ولم يكن أقل روعة من سابقه، ومر الوقت دون أن يشعروا بذلك، وحتى مراد و(تاكفا) لم

يتوقفا عن الضحك مرة بعد مرة، إلى أن قاموا من أماكنهم لمغادرة القاعة، وفي الخارج، وبعد أنا أعادوا غلق الباب كما كان، وبينما يعودون أدراجهم حاول القرد أن يقترب من القطة، فصاحت هديل في وجهه بغضب، جلس القرد وجعل وجهه إلى الجدار محزونا ولم يقم بعدها إلا لما تمكن (تاز) من إرضائه بعد نصف ساعة، حينها ضحك الجميع على هديل لما رفضت أن تصالحه، أو أن تمشي قريبا منه ولا حتى أن تنظر إليه مجددا، لكن القرد استمر يركض على أطرافه الأربعة خلفهم غير عابئ، يتلفت يمنة ويسرة كأن شيئا لم يحدث.

***

مع انقضاء أولى ساعات الصباح، كان الصغار يدلفون إلى المطحنة وهم يسعلون من أثر الطحين المتطاير الذي سد حلوقهم، كما أن الرحى كانت تدور وتصدر ضجيجا عاليا صم آذانهم.

رفع شاب طويل رقيق البنية كيسا مملوء بالقمح المطحون ووضع آخر مكانه في الحفرة المخصصة لذلك ونهض نحوهم يمد يده للمصافحة، كان له وجه يشبه وجه (تاز) كثيرا، حتى عيناه الصافيتان وخصلات شعره المتدلية على جبينه:

_ " مرحبا هشام.. تاز.. حسين.. حسين.. "

سلم عليهم تواليا وعاد يراقب آلته، وعندما سأله هشام عن العمل بصوت عالٍ بسبب ضجيج الآلة فإنه رد يصيح بصوت مماثل:

_ " جيد، رائع.. كما ترى.."

_ " وأنت، كيف حالك؟ "

_ " مثل هذه الحديدة، إذا سمعت ضجيجها فاعلم أنني بخير.. وإلا فسأكون مشغولا بإصلاحها، أنا أمرض عندما أصلحها.. لا أحب هذه الأشياء أبدا، إذا كنت سأصنع آلة! " هنا أدار مقودا معدنيا متصلا بها وعاد يضيف صارخا: " لن أصنع، لا، لن أصنعها، لن أصنع أي شيء، هل أنت سامع؟ لكن إذا كنت سأصنع آلة فلابد أن أحرص على صنعها بطريقة تجعلها لا تتعطل، أعني أنها إذا توقفت مرة، فإنها تتوقف إلى الأبد، هل أنت سامع؟ "

وهز هشام رأسه، ثم عاد بعد لحظات يصيح مثل الأول:

_ " ياسين! "

_ " نعم.. "

_ " أحتاج بعض الجرذان.. "

_ " ماذا؟ "

_ " جرذان.. أحتاج بعض الجرذان.. "

_ " آه، جرذان.. " صاح ياسين ثم أدار رقبته إلى الزاوية:

_ " هناك، ابحث خلف الأكياس فقط.. ستجد بعضها.. "

بعد ربع ساعة عاد (تاز) والتوأم وفي يد كل واحد منهم جرذ صغير يتخبط يمنة ويسرة، نظر ياسين إلى أيديهم ثم أخرج الكيس من الحفرة وأبدله بآخر ونفض يديه واستدار نحوهم:

_ " من هذه المرة؟ "

فأجابه حسن ناظرا إليه ببهجة:

_ " العمة فضيلة.. "

_ " زوجة المفتش.. ها.. زوجة المفتش؟ "

وهز حسن رأسه موافقا، فعاد ياسين يسأل:

ـ " لماذا هي؟ يوجد الكثير غيرها، ربما لن تدفع لكم! "

ـ " ستدفع.. " صاح هشام: " ستدفع يا صديقي، و إلا فسنجعلها تندم على ذلك.. "

هنا ضحك ياسين طويلا ثم رفع برميلا فوق كتفيه وصعد سلما أخذه فوق الآلة وجعل يفرغ ما فيه بداخل مكعب معدني كبير ، وعندما استأذنه الصغار بالذهاب بعدها فإنه لوح بيده نحوهم وعاد يمرغ يديه في القمح الذي سكبه :

ـ " حظا موفقا أيها الملاعين.. حظا موفقا.. ".

توازيا مع خروج الصغار من المطحنة، كان مراد يقلب دفتره الخاص بإعارة الكتب شاردا، كان يضع يده على فمه يتثاءب بين لحظة وأخرى، وكان (تاكفا) غير بعيد عنه يقف بين الرفوف يمرر أصابع يده على أغلفة الكتب الباردة، توقف وأخرج كتابا أرجواني اللون وتأمل غلافه لدقيقة كاملة، هتف بعدها ملوحا بالكتاب عند رأسه:

ـ " هل تعرفها؟ "

ونظر مراد رافعا وجهه عن الدفتر ومضيقا عينيه فيما يحمل (تاكفا):

ـ " الديدان! أجل.. "

وأنزل (تاكفا) الرواية وفتحها:

_ " عن ماذا تتحدث، هل قرأتها؟ "

وابتسم مراد للحظة وعاد ينظر في دفتره:

_ " أنت ما رأيك؟ "

_ " علاء.. " رد (تاكفا) مقلبا عينيه بين سطور صفحة: " هل هو بطل الرواية؟ يتردد اسمه كثيرا.. "

_ " أجل، هو شخصية ستحب أن تتعرف عليها حتما.. "

_ " أحقا؟ "

_ " صدقني.."

_ " لكن العنوان! "

_ " ما به.. صحيح أنه يبدو غريبا، لكن حتما ما كنت لتخمن أفضل منه لو كنت أنت كاتبها، الرواية وبطريقة ما، لا تحكي عن الديدان، حتى لم تذكر هذه الكلمة، ربما إلا مرتين فقط، لكن إذا أردت أن تحتوي القصة في كلمة واحدة فهي.. الديدان.."

_ " سآخذها معي.. هل يمكن؟"

_ " طبعا.. إذا.." هكذا حاول مراد أن يضيف شيئا، غير أن حلقه اختنق بما أراد قوله، ولذلك فقد التفت إليه (تكافا):

_ " ماذا؟ "

_ " لا شيء، أردت أن أقول شيئا.. لكن سأدعك تقرأ الرواية أولا.. "

_ " حسنا.. فليكن، بما أنك تقول هذا.. "

عاد (تاكفا) يمرر أصابع يده بين الكتب الأخرى:

_ " سنذهب اليوم إلى المقبرة، أليس كذلك! "

وغمغم مراد من عنده بصوت مثقل:

_ " بالطبع، بالطبع يا (تاكفا).. سنذهب، بعد أن نغلق المكتبة.. "

انزاحت الباب بعدها ودخلت فتاتان في العشرين من عمرهما، بحثتا بين الرفوف قليلا ثم توجهتا نحو مراد وكل منهما تحمل كتابا في يدها.

عندما دقت العاشرة، وصلت امرأة كبيرة السن إلى دكان العجوز الهولندي وهي تلهث أنفاسها، وقفت تمسك ركبتيها وأخذت تبربر:

_ " يوسف، يوسف.. اخرج لحظة.. "

واندفع العم يوسف من تحت سيارة مرفوعة بعد أن كان نصف جسده مغمورا تحتها، وقف يمسح يديه المتسختين على بذلته الملونة وصار يقول مسرعا:

_ " ماذا، ما الذي حدث يا سيدة فضيلة؟ تبدين شاحبة!، هل بك خطب ما؟ "

وأخذت المرأة نفسا عميقا خيل معه للعجوز الهولندي أنها أخذت كل الهواء الذي حولهما، ومضت تقول بحرقة:

_ " أحتاج الصغار يا سيد يوسف، أين هم الآن أخبرني؟ "

والتفت العجوز خلفه:

_ " هشام.. تاز.. " صاح بهما.

وخرج الاثنان، أحدهما من سيارة أخرى كان يعبث بداخلها والآخر من الغرفة الصغيرة:

_ " تفضل يا عم يوسف.. "

_ " السيدة فضيلة تريدكما.. "

واستقبلتها المرأة والدموع توشك أن تطفر من عينيها:

_ " هيا، هيا ستأتيان معي إلى المنزل.. " هللت وهي توشك أن تدفعهما أمامها: " ينبغي عليكما أن تركضا الآن بقوة، لكنكما لا تملكان مفتاح منزلي، أليس كذلك؟ "

_ " لا يا سيدتي.. "

_ " آه، لا تملكانه.. سنمشي معا إذن، هيا سيرا أمامي.. "

_ " لكن لماذا، يجب أن تخبرينا ما المشكلة؟ "

_ " إنها الجرذان، الجرذان تأكل بيتي.. الكثير منها، أرجوكما لا تجعلاني أتحدث بينما يؤكل بيتي.. "

هتف هشام يقول بعدها:

_ " أحضر الأكياس يا (تاز)، والقفازات أيضا.. أسرع.. "

هرول (تاز) إلى الغرفة الصغيرة، ومرت لحظات والمرأة مغتاظة تكاد تقضم أظافرها، حتى ظهر (تاز) وهو يحمل العدة يعانقها إلى صدره.

بعدها، وبينما هم يقتربون من بيت المرأة، وبينما هي تغلي وتصيح بذكر الجرذان كل فترة، فإن هشام و (تاز) كانا يضحكان خلسة حين كانت تلتقي نظراتهما، حتى إذا كان الوقت الذي وقفت فيه المرأة تفتح باب بيتها بيد مرتعشة، حتى إذ ذاك، فإذا بصوت هشام يرن من خلفها:

ـ " سينبغي عليك يا سيدتي.. أن تتركينا وحدنا، وجودك في الداخل قد يعطل عملنا، كما أن الجرذان تحب قضم السيقان العارية، كما تعرفين يا سيدتي.. "

و جمدت المرأة تنظر إلى ساقيها، وقالت بعد لحظة:

ـ " الحق معك.. وهذا أمر لا يجب أن يحدث، لن أدخل البيت حتى تخرجوا جميع الجرذان التي دخلت، اللعنة عليها من أين جاءت.. " ونظرت إلى البيوت القريبة: " جيران قذرة، مدينة قذرة، تفوو.. لم يبقَ لي في آخر عمري إلا أن أرى هذا، أشعر أنني سأموت بعد ربع ساعة.. يا إلهي.. "

وبينما تبتعد هاربة وهي تلوح بيدها:

ـ " افعلوا ما شئتم، سأذهب إلى السوق ريثما تنتهون منها.. سأتقيأ.. "

واختفت بعيدا في الزاوية بحركة عجائزية، حينها ضحك الصغيران عليها ثم استدارا الى الباب وقاما بدفعه إلى الداخل.

***

في المساء عندما كانت الشمس توشك أن تغرق في الأفق، اجتمع الصغار في الغابة لرمي الجرذان التي أمسكوا بها، كان (تاز) يخرجهم من الأكياس بينما صب هشام اهتمامه على ما كان يقولانه التوأم، ذلك لما راح حسين يحكي الأمر بحرص بالغ، ويهتف بحماسة:

_ " التقينا مراد و (تاكفا) عند المركز التجاري، كنا سنسرق المفتاح حينها، لكننا لم نستطع "

_ " دعنا من المفتاح يا حسين، أخبرني ما الأمر المهم الذي كنت ستقوله.. "

وابتلع حسين ريقه:

_ " كنت سأقول.. ها، كانا سيذهبان إلى المقبرة، لزيارة قبر زوجة مراد، طلبنا منهما أن نرافقهما فوافقا بسرعة.. "

_ " إيه.. "

_ " وقفنا عند القبر وقرأنا الفاتحة، ثم حضرنا جنازة شخص كانوا يقومون بدفنه في تلك اللحظة"

ضيق هشام عينيه ونظر إلى حسن فوجده يراقب الجرذان التي كانت تهرب وسط الأجمات القريبة، وعاد بعدها يدقق النظر في شقيقه الذي واصل يقول متلعثما من شدة الفرح:

_ " توجد نقود مخبأة في قبره يا هشام، ليس النقود فقط، بل الذهب أيضا.. أقسم أنهما قالا ذلك.. الكثير منها.. "

_ " مراد و (تاكفا) قالا هذا؟ "

_ " أجل.. بأذني اللتين في رأسي، سمعتهما.. اسأل حسن إذا أردت ذلك.. "

أخذ هشام يفكر للحظة، ثم لما اجتمع الثلاثة حوله قال حاسما قراره:

_ " سنذهب الليلة.. سنستعد وفقا لذلك، الباب مقفل صح؟ "

_ " باب ماذا.. "

_ " باب القبر.. "

_ " نعم.. "

_ " سنأخذ الفأس والمعاول.. ماذا أيضا؟ "

_ " هل نأخذ القرد معنا أيضا؟ " سأل حسن، لكن هشام لم يرد له جوابا، بل نظر في عينيه مباشرة والتفت عائدا:

_ " هات الصندوق يا (تاز).. "

ونظر حسن عند قدمي (تاز) فرآه يرفع صندوقا صغيرا برتقالي اللون جعل يمسكه بين يده ويتبع هشام من خلفه، وكذلك تبعهما شقيقه حسين أيضا، فما كان منه إلا أن ركض خلفهم وهو يصيح بالقدر الذي يُمكّن هشام من أن يسمعه لما كان يخرج من الغابة وهو يسبقه بخطوات عديدة:

_ " ماذا يوجد في الصندوق يا هشام، أخبرني.. ".

بعد ذلك، ارتمت الشمس خلف الجبل، وقعد القمر قعدته البيضاء في علياء السماء المظلمة، وكان البوم يضج في الغابة يراقب فرائسه الليلية وهي تركض بين الشجيرات الصغيرة، كانت المقبرة تطل على الغابة، و ضوء القمر ينتشر عليها فتسطع الأحجار فوق قبور أصحابها، لما كان كل هذا، ولما لم يكن من وقت آخر أنسب لفعل هذا، فقد كان الصغار يقتربون بحذر من القبر وهم يحملون عدتهم فوق ظهورهم وينظرون خلفهم في ترقب، كان هشام ثم حسين ثم حسن يليهم (تاز) يتتابعون كخيط نمل بين القبور بخطوات حذرة.. ينظرون خلفهم وفي كل جانب، كان القبر مبنيا على هيئة جميلة بالإسمنت والرخام وله باب حديدية، في مكان منعزل عن المقبرة، في الجهة الأخرى..

وقف هشام و(تاز) أمام الباب وأنزلا عدتهما وجعلا يعبثان بقفلها فيما انشغل التوأم بالمراقبة.

مضت عشر دقائق كاملة، حين بدأ هشام يتعرق بالفعل من أثر التعب والضغط الذي كان عليه، بين لحظة وأخرى، كان يطلب من (تاز) أن يناوله سلكا فيعبث به في القفل ثم يرميه بعدها، ثم يطلب المطرقة ويعيدها إليه بعد نصف دقيقة، ثم يأخذ نفسا عميقا ويطلب سلكا آخر وهكذا، فيما التوأم خلفهما يترصدان أي حركة قد تصدر من أي مخلوق مهما كان نوعه، هذا حتى هلل هشام يقول فجأة، أجل، قالها بفرح حاول إخفاءه، وحينها استدار التوأم خلفهما وكان (تاز) يدفع الباب بيده الصغيرة إلى الداخل.

وقف ثلاثتهم ينظرون إلى الضريح بعيون ذاهلة، حسن عاد إلى الخارج وحده لأجل الحراسة، كان الضريح مبنيا من الرخام الأبيض بين جدران أربعة، وسقف مرتفع.. ويعلوه صليب على الجهة المقابلة، وكان الصغار ـ حين رفع حسين فأسا تفوقه طولا ـ قد اتفقوا ـ دون المزيد من الأخذ والرد ـ على ضرب القبر في أقرب موضع، كذلك هوت الفأس على الرخام فخدشته خدشا خفيفا لا يذكر، وأعاد حسين حمل الفأس من وسطها وكرر الضربة مرة أخرى،

تنهد عميقا ثم رفع الفأس حتى وجهه وأوشك أن يقسم القبر نصفين حين هاله صوت شقيقه في الخارج لما صاح بصوت مرعوب خافت:

_ " توقفوا.. توقفوا.. هشام، هنالك أحد قادم.. "

وحينها، وبالسرعة المناسبة ألقى حسين بالفأس عند قدميه وكذلك ترك (تاز) معولين كان قد جرهما قبل ذلك مسافة طويلة حتى أوصلهما إلى الداخل، ألقى بهما فوق الفأس وركض الاثنان خلف هشام الذي كان وفي لمح البصر قد وقف مع حسن يشاهدان جسما عظيما أسودا قاتما يتحرك وسط الظلام قادما من الغابة يشق طريقه بخطوات واسعة نحو المقبرة.

كان المخلوق الضخم في حركاته يشبه (فرنكشتاين) شبها عظيما، فكان يحرك ذراعه الثقيلة ببطء ويضع خطوات يخيل للمرء أن الأرض تهتز معها لشدة قوتها، لاحظ الصغار أن المخلوق كان يسند معولا على كتفه ويمشي في اتجاه واحد كأنما يقصد مكانا قد قام بتحديده سلفا، وأراد حسن أن يقول شيئا إلا أن يد شقيقه التي ثبتت شفتيه عن أن تتحركا حالت دون ذلك، بعد لحظات فقط كان المخلوق قد وقف في منتصف المقبرة وأخذ يحفر قبرا كان التراب الذي عليه يرتفع بشكل واضح أكثر من الذين حوله، لحظتها لم يكن

لحسين أن يمنع شقيقه عن الكلام هذه المرة، بل هو نفسه من بادر إلى النطق قائلا وخفقان قلبه لا يتوقف عن التسارع :

_ " أليس هذا هو القبر يا حسن؟ "

_ " بلى.. أظن ذلك.. "

_ " ما الذي تعنيانه؟ " سأل هشام، فرد حسين:

_ " ألم أخبرك اليوم أننا حضرنا جنازة، هذا هو القبر، رأيناهم يلقون أحدهم بداخله.. "

كان الصغار يتنفسون بحذر وهم يقفون خلف بعضهم، ولم يقدر أي واحد منهم على تمييز وجه الرجل بسبب الظلام و لأنه كان يحفر موجها وجهه إلى الجهة الأخرى، فلم يكونوا يرون سوى معطفا عظيما تهتز كتفاه لأعلى وأسفل، في لحظة ما، وهم يراقبون ما يحدث، و إذ بصوت رفيع يرتفع خلفهم، كأن صاحبه يذبح، فجعل أوصالهم ترتعد رعبا، ولما التفتوا بعدها والذعر يملأ أعينهم، فإنهم رأوا القرد يئن من الألم بعدما علق جلد ظهره في سلك بارز كان مربوطا إلى سياج المقبرة، وجعل هشام يعاتب (تاز) إذ ذاك بصوت خافت:

_ " ألم تقل إنك ربطته يا (تاز)؟ "

ورد حسن والحيرة ترن في صوته:

_ " أقسم أني رب.. رب.. ربطته.. "

وانهال عليه حسين يقول معاتبا هو الآخر:

_ " لو ربطته لما كان هنا، هل أنت متأكد يا (تاز) من أنك ربطته.."

لكن (تاز) لاحظ شيئا لم يلاحظه أحد منهم، وكان عليه أن يخبرهم به، ومن شدة الهلع الذي أصابه مما رآه فإن لسانه قد تعقد بشكل مضاعف إذ جعل يتأتأ كأن روحه تسحب:

_ " الر..الر..الرجل.. اخ..اخ..اختفى، هه.. هه.. هشام، انظر.. " أخرج (تاز) تلك الحروف بصعوبة، وهو يشد هشام من كتفه، وعندما التفت الآخرون بعد ذلك حيث كان ينبغي على الرجل أن يكون موجودا فإنه لم يكن من شيء هناك سوى أن الجزء العلوي من تراب القبر كان قد تحرك من مكانه، هنا، وفي هذه اللحظة، طلعت في صدور الصغار برودة كالتي تطلع وتسير في جسد من هاله صوت قاتله حين يهمس من خلف رأسه، صاح هشام في رفاقه بصوت عال :

_ " اركضوا، هيا.. هيا.. اركضوا، هيا.. "

وانطلقت الأقدام الصغيرة في غير ما تردد، تخبط في الأرض يمنة ويسرة، تسرع تارة وتبطئ تارة، وتقفز تارة أخرى، يحاول أصحابها بذلك أن يتجنبوا دهس القبور التي كان عليهم تجاوزها للوصول إلى المكان الذي دخلوا منه أول مرة، وفي طريق هروبهم ولما كان القرد لا يزال مشغولا بتخليص جلده من السلك الذي ثقب ظهره، فإن هشام أمسك به بكلتا يده ورفعه كما ترفع الجراء وانطلق به نحو الغابة في غير إبطاء والآخرون يركضون من خلفه.

في البناء الذي يبقى فيه الصغار عادة يقضون ليلهم فيه، ذلك البناء المظلم الذي يقع وسط الغابة، والذي حينما انطلق الصغار ـ يركضون ـ فإنما قد انطلقوا يركضون نحوه لا إلى مكان غيره، ركع حسن يضحك مِلء فيه وسط الغرفة التي يقيمون فيها اجتماعاتهم عادة ووجهه لأعلى، بعينين مفتوحتين تنبثق منهما سعادة لا نهائية، بينا تهالك هشام و(تاز) وحسين عند الجدار و اتكئوا عليه بظهورهم وهم يلفظون أنفاسهم بصعوبة وقلوبهم تدق بسرعة تكاد تطيرها من صدورهم، رفع هشام عينيه بصعوبة ونظر إلى القرد الذي كان يحك ظهره قرب الفتحة التي تطل على الغابة:

ـ " لماذا تضحك يا حسن؟ "

سكت حسن حينها، وقال ناظرا إلى القرد ببهجة:

_ " أحب هذه الأشياء يا هشام، هذا القرد رائع.. "

ومد هشام عينيه نحو القرد للحظات ثم عاد يخاطب حسين لما رأى الرعب في وجهه:

_ " ماذا بك يا حسين؟ ".

ورد حسين واصفا شقيقه:

_ " هذا الطفل مجنون يا هشام، كاد يمسك بنا بينما هو يضحك.. سيقتل نفسه قبل أن يبلغ العشرين من عمره.. ".

بعد دقيقتين فقط قام هشام من مكانه وجعل يفتش بعينيه الزجاجيتين وسط ظلام الغابة، عن أي شيء مثير للريبة، كأن تتحرك إحدى الشجيرات مثلا، أو يرى ظلا كبيرا يأتي نحو المبنى، لكن لا شيء من هذا قد حدث، فعاد نحو رفاقه وكانوا يتأملون الصندوق الذي سرقوه من بيت السيدة فضيلة أثناء مطاردتهم للجرذان الهاربة، أثنى ركبتيه مثل الآخرين وأخرج سلكا من جيبه وراح يعبث بالقفل مثلما فعل بباب القبر قبل ذلك.

***

إن المرء ليتفصد جبينه حينما يسمع أخبارا كهذه، هكذا تفل العجوز الهولندي عند قدميه بعدما رتّل هذا الكلام وهو يمعن النظر في محرك السيارة، حك مقدمة رأسه:

_ " هل أخبرتم مراد و (تاكفا)؟"

ورد هشام:

_ " نخبرهما في المساء، ربما.. "

_ " لا تقل ربما، أخبروهما فورا.. هل أنت سامع؟ " صاح العجوز وصار يظهر في جبينه عرق من أثر القلق، ثم إنه التفت إليهم ونيته أن يصيح فيهم أكثر من هذا، إلا أنهم كانوا قد اختفوا ولم يعد لهم أثر، وكان الوقت عندها العاشرة صباحا، مضوا إلى شغل حصلوا عليه في بيت أحدهم، كان يتعلق بإصلاح ماء المطبخ، وبالنسبة لهم فإنه كان عملا سهلا تطلب العودة إلى حانوت الخردوات وشراء بعض المعدات فقط، ومن ثم فقد تم العمل في حدود الثانية عشرة، و قبض الصغار نقودهم وذهبوا إلى المطعم مباشرة.

جلس (تاز) يمضغ بقايا سمكة نيئة حصل عليها من بائع الأسماك لما كانوا يمرون أمام المركز التجاري القديم، فقد حصل عليها بطريقة لم يفهمها حتى رفاقه الذين كانوا يمشون أمامه، سأله حسين ليشبع فضوله:

_ " كيف أخذتها يا (تاز)، أخبرني كيف حصلت عليها.. "

_ " من.. من القط.. " رد (تاز) وهو لا يزال منهمكا فيما يفعل: " أخذتها من ف.. ف.. فم القط.. كان سيأكلها.. "

_ " وكيف حصل عليها، ألا تعرف؟ "

_ " لا يهمني.. "

في هذه اللحظات تحديدا، دخل مراد و (تاكفا) إلى المطعم صدفة، وأسرعا ينضمان إليهم وجعلا يتطلعان إلى عيونهم التي بدا واضحا أنها تخفي شيئا ما، وأوشك (تاكفا) أن يسألهم عما خلفهم لكن هديل ظهرت تركض فجأة وارتمت عند مراد تعانقه، ذهل مراد من جمالها وأبدى ذلك لها عبر كلمات لطيفة أثلج بها صدرها وأرغم ابتسامتها _ التي لم يكن أحد ليمل من مواصلة التحديق فيها _ على الظهور وبعث البهجة فيما حولهم ، كان يجلس في المطعم ثمانية أشخاص موزعين على الطاولات الأخرى، لكن لا يهمنا أمرهم، حصل كل من الرفاق عل طبق خاص به وملعقة وكل ما يلزم لوجبة

سائلة، وكانت هديل هي من تكفلت بكل ذلك تحت تشجيعاتهم، بينما تراقبها حياة من بعيد بحرص بالغ، نظر (تاكفا) إلى مراد فرآه يراقبها شاردا، فابتسم خفية ولم يرد إحراجه، تذكر حينها وجه الممرضة فأوشك أن يصيبه هم لولا أن هشام نطق يقول فجأة :

_ " أخذنا الصندوق يا مراد.. "

وحين استوعب مراد و (تاكفا) ما قاله هشام بعد أربعين ثانية، ولما جعلاه يكرر كلامه مرة أخرى، وحين هذا، فلم يكن أحد منهما قد توقف عن التحديق ببلاهة، وعجن مراد الفكرة في رأسه بما يكفي حتى أمكن له أن ينطق بعدها، بعينين نصف مغمضتين وملامح حائرة:

_ " صندوق ماذا؟ "

لكن هشام لم يكن يحب أن يكرر كلامه مرات كثيرة، فناب عنه حسين يقول موضحا:

_ " الصندوق الذي قلتما أن المفتش كان يخبئه في بيته، سرقناه البارحة.."

_ " وأين هو الآن.. انتظر، كي.. كيف فعلتم ذلك، ألم نتفق أن نخطط للأمر معا؟ أولم تخبرني أن ياسين سيساعدكم.. "

أجاب هشام:

ـ " كان الأمر سيطول كثيرا، ونحن كانت لدينا خطة جاهزة، ولم يكن لدينا الوقت لمراجعتها.. لكن أظن أن كيفية حصولنا عليه ليس مهما الآن، المهم أننا حصلنا عليه دون مشاكل.. هو الآن في حوزتنا، وهذا ما يهم الآن، أليس كذلك.. "

عند هذا، ارتد مراد على ظهر كرسيه ونظر إلى (تاكفا) الذي تنهد عميقا وشابك أصابع يديه فوق المائدة وجعل يقول برضا:

ـ " أين هو الصندوق الآن، هل في مكان آمن؟ "

ـ " في المبنى.. "

ـ " هل وجدتم شيئا بداخله؟ "

ـ " وجدنا.. أوراقا، وصورا، وعبوات غريبة... "

مجددا نظر الرجلان إلى بعضهما:

ـ " صور وعبوات غريبة! "

ـ " أجل.. " رد هشام وهو يستلم طبقه من يد حياة التي كانت تسلم طلبيات زبائنها في تلك اللحظة، وانتظرها حتى أنهت ذلك وغادرت إلى شأنها ثم عاد يتلو حديثه بنبرة من هان الأمر في عينه: " صور أشخاص كبار

السن، وأظنها صور الذين اختفوا في السابق، و مرطبانات زجاجية بها سوائل ملونة وأشياء تشبه فتات الأدمغة.. أما الأوراق فهي شهادات ميلاد وشهادات طبية وأظنها ترجع إلى أصحاب تلك الصور أيضا، قرأت تاريخ ميلاد أحدهم.. 1952.. "

حتى هذه اللحظة لم يكن بمقدور مراد و (تاكفا) أن يستوعبا الأمر ويتقبلاه بتلك السهولة التي ظنها هشام، أما من جانبهما، فإنه لم يغب عن فكرهما أحد أمرين، فإما أن يكون الصغار جاهلين بخطورة ما فعلوه وما وجدوه في الصندوق جهلا عظيما لا يعاتبون عليه لصغر سنهم، و إما أن يكونوا قد فهموا اللعبة أكثر منهما، وبذلك سيتعين عليهما أن لا يقللا من شأن الأفكار التي تخرج من تلك الأدمغة الصغيرة.

على هذا، غمغم مراد يقول بعدها:

_ " إذن فالمفتش سليم متورط معهما حقا! "

_ " هذا ما يبدو.. " ردد (تاكفا) خلفه: " أظن أننا الآن بتنا نملك ورقة لمحاورتهما.. "

_ " ماذا تعني؟ " التفت إليه مراد يقول بحيرة.

_ " أعني أنه سيكون باستطاعتنا الآن أن نواجههما وجها لوجه وأن نتحدث معهما في الأمر مباشرة، سمعت معي كيف قالا أنهما يبحثان عن الصندوق منذ مات المفتش، ومدى أهميته بالنسبة لهما.. "

_ " هل ستعثرون على جدي؟ " هكذا قاطعته هديل تقول بعد أن ظهرت أمامهم، وفي عينيها بريق أمل هد صدر الرجلين لأنهما لم يكونا واثقين من الإجابة، لكن (تاكفا) وضع يده على رأسها مبتسما وقال يطمئنها:

_ " سنفعل، سنجده قريبا.. أعدك يا صغيرتي.. " ثم إنهم لم يجدوا بدا من تغيير الحديث بعد ذلك.

في المساء، ولما كان الرفاق يدلفون إلى الغابة متوجهين إلى ما تبقى من منزل العائلة المسيحية، كان ثمة هواجس مخيفة تدور في صدورهم، ولما كان مراد و(تاكفا) يعرفان خطورة الوضع أكثر، فإن التي لديهما ما فتأت تتنامى كل لحظة، حتى لقد كان الواحد منهما يخاف أن يفكر في مصير المختفين طويلا، فدلفا خلف الصغار وليس في خاطرهما شيء غير الصندوق وما يحتويه من أشياء لا يفكر رائِيها سوى في جريمة بشعة ترتكب في الخفاء يند لها الجبين.

هكذا، صرف (تاكفا) النظر عن الغابة لما وقف إلى جانب مراد عند فتحة الجدار يطالعانها ريثما يحضر الصغار الصندوق من الغرفة الأخرى، ولأنه التفت سريعا وبمثل تلك الطريقة، فلأن حسن عاد يصرخ والهلع يملأ صوته، بعد لحظات فقط كان الجميع يقفون حيث كان يفترض بالصندوق أن يكون موجودا، بجانب وسادة هشام مباشرة، ذلك أنه فضل أن يحتفظ به بجانب رأسه قبل أن يغلبه النعاس في الليلة الماضية، ولقد وقف الصغار يطالعون بعضهم البعض بأفواه مفتوحة، حتى هذه اللحظة لم ينطق أي واحد منهم ليقول شيئا، من شدة الرعب الذي أصابهم، لكن حسن _ وكما سيوافقه شقيقه على كذبته المختلقة بعدها _ قد استدار نحو مراد و (تاكفا) وجعل يهتهت دون أن يقدر على إخفاء رعشات عينيه التي كانت تفضحه :

_ " القرد، لابد أن القرد أخذه.. "

_ " أجل، هو لا يكف عن اللعب بأشيائنا أبدا، البارحة أخذ فردة حذائي وهرب بها إلى الغابة.. "

_ " وأين هو الآن؟ " سأل (تاكفا).

ـ " في الغابة، سيعود عندما يتعب من اللعب، أو يمكننا أن نخرج للبحث عنه إذا أردتم.. " هكذا أكمل حسين كلامه ببراءة لاذعة، طامعا في أن يتم تصديقه.

لكن هشام ولما لم يكن قد رفع عينيه عن موضع الصندوق المفترض حتى هذه اللحظة، لأنه أدرك جيدا ـ بما يقتضيه الفهم ـ أن ما حدث ليس بالأمر الذي يجوز فيه الكذب أبدا، استدار هو الآخر ونظر إلى الرجلين بعينين ثابتتين ونطق هامسا يخشى أن يُسمع صوته:

ـ " الآن نحن واقعون في مشكلة.. "

وعندما أشرقت شمس اليوم التالي، كان كل شيء ينبئ عن نهار صحو جميل ذا سماء صافية، وقد شرب مراد و (تاكفا) قهوتهما مع العجوز الهولندي ثم خرجا نحو المكتبة يتبادلان الحديث حول القصة التي حكاها لهما الصغار في الليلة الماضية، فما كان قد حدث بعد أن أقر هشام بأنهم واقعون في مشكلة حقيقية، هو أنهم مشوا جميعا وتجمعوا عند حفرة الرماد وجلسوا حولها، وبفاهين مفتوحين، ووجهين حائرين، أصغى مراد و (تاكفا) السمع لهشام وهو يسرد عليهما تفاصيل ما حدث في المقبرة، بينما رفاقه الثلاثة يهزون رؤوسهم يأمّنون على كلامه بين لحظة وأخرى، وحتى عندما عاد القرد

بعدها وفمه ملطخ ببقايا الفاكهة، فلم يكن يبدو عليه أبدا أنه سرق صندوقا برتقالي اللون وأخذه معه إلى الغابة، وحينها زاد يقينهم أن الرجل الذي رأوه يحفر القبر قد تبعهم إلى المبنى وسرق الصندوق وعاد أدراجه بشكل دون أن يمس شيئا آخرا.

هذا وكان كل شيء بخير حتى العاشرة، لكن ولأن المصائب عادة لا تأتي فرادى، فقد وصل هشام ورفاقه رأسا إلى المطحنة وقد اختنقت أنفاسهم من التعب، استند هشام بيده على إطار الباب بينما وقف رفاقه خلفه وجعل ينادي بصوت مختنق:

_ " ياسين.. ياسين، اطفئ الآلة.. "

والتفت ياسين نحوه وكان كل لباسه ملطخا يكسوه الطحين في كل موضع، حتى أن زجاج عينيه هو كل ما كان يظهر من وجهه:

_ " ماذا قلت؟ "

_ " اطفئ الآلة وتعال لحظة.. "

نظر ياسين في وجوه الصغار فوجدهم يحدقون فيه بجدية، فسأل بتخاذل بالغ:

_ " لماذا؟"

_ " أخذوا والدك.. "

هنا مسح وجهه بيديه وأطفأ الآلة:

_ " انتظر، ما الذي تقوله، لم أتناول شيئا منذ البارحة، بطني يتشقق..."

وكرر هشام كلامه متضايقا:

_ " أقول أن والدك اختفى، هنالك من قام باختطافه.. "

_ " سمعتك.. "

_ " ولماذا جعلتني أكرر الكلام إذن؟ "

_ " لا تغضب يا صديقي، من الذي اختطفه، هل تعلم؟ "

_ " لا نعرف.. "

وهز ياسين رأسه مفكرا:

_ " ليكن.. "

_ " ما الذي تقصده ب.. ليكن، ألن تأتي للبحث معنا؟ "

_ " اسمع.. " غمغم ياسين بينما يمسح الطحين من بين أصابعه: " لن أبحث عنه أبدا، لكن إذا وجدتم من أخذه واحتجتم أحدا لضربه فلن أمانع.. تعالوا فورا وأخبروني.. "

_ " هكذا أجابني، ثم شغل آلته وعاد إلى العمل.. ونحن جئنا إلى هنا مباشرة.. "

_ " حسنا يا هشام، لا عليك، هذا الشاب مجنون حقا.. " رد مراد ثم حك رأسه ودار حول نفسه نصف دورة ثم تلى بعدها: " (تاز)، حسين، حسن.. تعرفون ما عليكم فعله الآن أليس كذلك؟ "

وهز الصغار رؤوسهم:

_ " ستبحثون في الشوارع، ستسألون رفاقكم، تتفقدون المصنع دون أن يكشف أمركم، حتى ابحثوا في الغابة، لكن بحذر.. قد يكون هذا الذي سرق الصندوق مازال يراقبكم، وإن رأيتم المحامي أو الحكيم فستبحثون عنا مباشرة وتخبروننا عن مكانهم، اتفقنا؟ "

مجددا أومأ الصغار برؤوسهم موافقين وانطلقوا إلى سبيلهم بينما تتبعهم عيون هشام ومراد وهم يختفون خارج المكتبة.

عاد مراد وجلس إلى مكتبه وأمسك جبينه وجعل يمسد شعر رأسه إلى الخلف بقوة، وعندما نظر بعدها فقد وجد (تاكفا) يدخل المكتبة ويمشي نحوه في تلك اللحظة، وقام الاثنان من مكانيهما، سأل مراد بقلق:

_ " ماذا يا (تاكفا)، أخبرنا؟ "

ورد (تاكفا) بينما يأخذ مكانه:

_ " لا شيء، تحدثت إلى المفتش الجديد، قدمت الشكاية، وسننتظر.. غير هذا، أوف.. "

_ " ما بك يا (تاكفا)، (تحدث) "

_ " عندما تركتك في الصباح تفتح المكتبة، ذهبت إلى المستشفى، سألت عن الحكيم جمال.. " وحملق مراد وهشام أكثر:

_" أخذ إجازة، لشهر كامل.. والمحامي، ساورني الشك فذهبت وسألت عنه أيضا، أخذ إجازته اليوم هو الآخر.. "

وهتف مراد وقد بان جليا وقع الخبر على وجهه:

_ " يا الله.. هذا يعني أنهما حصلا على الصندوق حقا، هما من قاما بسرقته!"

ولما سمع هشام هذا، فإن وجهه تلون وبدأت يده ترتعش بشكل طفيف حاول إخفائه، تدخل يسأل منفعلا:

_ " أنت متأكد؟ "

وأجاب (تاكفا):

_" هذا ما أخبروني به.. لماذا يا هشام، هل هنالك أمر ما؟ "

ـ " لا، أبدا.. سألت فقط.. "

أجاب دون أن يرفع وجهه، لكن ولما كان في نبرته ما يدعو لعدم تصديقه، فإن (تاكفا) أومأ برأسه مستغربا وعاد يقول معقبا على ما قاله مراد قبل ذلك:

ـ " ليس بالضرورة أن يكونا هما من دخلا إلى المبنى، ألم يقل الصغار أن الرجل الذي رأوه في المقبرة ـ وباعتبار أنه تتبعهم وسرق الصندوق بعدها قد كانت هيئته كبيرة، أعني يعرفون هيئة المحامي والحكيم، وهم لا يعتقدون أن أحدهما كان هو، أليس كذلك يا هشام؟"

ـ " بلى.. "

ـ " إذن.. لدينا المحامي والحكيم، وشخص آخر نعرف أنه كان مع الحكيم عندما حاولا قتلي، كلهم متورطون في هذا الأمر.. (بريكو).. و إذا كان هو من سرق الصندوق حقا، فالأمر كما قلت يا مراد.. لقد وقعت أيديهما على ما كانا يبحثان عنه حقا، لأنه يعمل معهما، ولذلك أخذا إجازتيهما في وقت واحد، لينهيا عملهما الشنيع أيا كان نوعه.. "

ـ " صحيح يا (تاكفا).. مازالت عمليات الاختطاف تحدث في وضح النهار، والمشتبه بهما قد أخذا إجازة، بعد أن حصلا على الشيء الذي نعتقد أنه كان يبطئ من تقدم عملهما، والآن حصلا عليه واختفيا حيث لا يمكن

العثور عليهما.. ثم يوجد أمر المقبرة، لماذا يحفرون قبرا تمت تغطيته قبل سويعات دقيقة؟ "

_ " هذا يقودنا إلى أمر واحد.. كما قلنا من قبل! "

_ " المتاجرة بأعضاء البشر! " غمغم مراد هازا رأسه ومُثبتا فكرة (تاكفا): " لابد أن هذا ما يفعلونه، أعطيك حكيما ومحاميا ورجلا شرسا ذا بنية جيدة يقوم باختطاف الناس تارة وحفر القبور تارة أخرى.. ماذا سيفعلون غير أن يقوموا ببيع أعضاء ضحاياهم؟ "

في هذه اللحظة، قام هشام من مكانه وغادر مباشرة، حاول مراد أن يسأله عن ذلك إلا أنه لم يستمع لصيحاته أبدا، بل لقد غاب في الخارج دون حتى أن يلتفت نحوهما، وحينها عاد أحدهما يقول للآخر:

_ " حقا أمره محير.."

_ " ليتني أعرف ما الذي يدور في رأسه.. "

_ " سنعرف، مسألة وقت فقط.. أتمنى ألا يقوم بشيء يؤذي به نفسه، الآن أتساءل إن كانت المرأة تعرف ما الذي كان يخبئه زوجها بداخل الصندوق طوال هذه المدة.."

_ " سنعرف، سنعرف هذا أيضا يا (تاكفا)، لكن ينبغي علينا أن نسألها أولا.."

هذا وأغمض مراد عينيه طويلا ورد رأسه على رأس المقعد.

في قبو مظلم ورطب وبارد، وقف المحامي لطفي _بعد أن نزل درجات سلم أسمنتي ومشى بضع خطوات فقط_ على ضوء مصباح معلق تحت سقف ينذر بالسقوط في أية لحظة، وقف أمام جثة تكاد تتعفن وقد ازرق لونها، يتأمل عيناها الجاحظتان وهما معلقتان بالمصباح كأنما أبهرهما نوره، لولا أن دماغ الجثة كان خارج رأسها موضوعا على الطاولة ويداها مبسوطتان بغير حركة على جنبيها، وقال بعد هنيهة، مادا رقبته ليرى:

_ " كيف الحال معك؟ "

_ " مثلما يجب أن يكون.. أين كنت، لماذا تأخرت هكذا؟ "

قال الحكيم هذا وجعل يضيق عينيه في الدماغ يتأمله كأنما يبحث فيه عن شيء محدد.

_: لا تسأل.. كان لدي عمل في المحكمة.. "

_ " أي عمل، أي عمل ..هذا يوم إجازتك؟ "

_ " صدق أو لا تصدق، في عمري هذا، بخبرتي هذه، بسمعتي، بمكانتي، لم يبقَ لي إلا أن يتم ابتزازي.. "

_ " ممن؟"

_ " لا أعرف.."

_ " ما الذي حدث.. "

_ " بشرط ألا تهزأ بي.. "

_ " تحدث يا رأس البغلة.."

هكذا أخذ المحامي كرسيا خشبيا وتهالك عليه متنهدا:

_ " لا أعرف، قبل أسبوع من الآن، جاءتني رسالة.. هل تسمعني؟ "

_ " إيه.. "

_ " لكنك تقطع الدماغ يا رجل.. "

_ " وهل أقطعه بأذاني؟ لا تُجنني.."

_ " المهم.. كيف أقول هذا، أحدهم التقط لي صورة مع ****.. وجدتها مع الرسالة.. "

_ " أحدهم التقط لك صورة مع تلك ال ****! "

_ " نعم.. "

_ " وأين كنتما؟ "

_ " في بيتي.."

_ " إذن فأحدهم دخل إلى بيتك والتقط لك صورة بينما أنت مثل الحمار **** تلك ال *****.. "

_ " طلبت منك ألا تهزأ بي من البداية.. لكن أمرا حيرني، الرسالة كتبت بخط سيء، كأن طفلا كتبها.. "

_ " لو لم أكن مشغولا حاليا لاهتممت بك أكثر من هذا و ما الذي طلبوه منك لقاء الصورة؟ "

_ " هنالك رجل في السجن، طلبوا مني أن أخرجه.. يبدو أنه ظلم أثناء المحاكمة ولم يجدوا من يتكفل بقضيته، تعرف العوائل الفقيرة.. "

_ " وأنت جريت مثل الأرنب وفعلت ما طلبوه منك تماما.. "

_ " ما الذي كان بإمكاني أنه أفعله، قالوا في الرسالة أنهم سينشرون الصورة في كل المدينة خلال يوم واحد.. "

_ " ههه.. بغلة، ليتهم فعلوا هذا.. انظر إلى ذلك الكلب، أطعمه إن كان هذا ما يطلبه.. "

ونظر المحامي خلفه، فكان ثمة رجل في الظلام قد لفت قطعة قماش حول فمه وهو يتلوى ويئن من الألم، كانت يداه مشدودتان لأعلى وهو شبه عار، ويظل يحك قدميه المربوطان إلى بعضهما يائسا:

_ " مضيف جديد! ومن هذا أيضا؟ " قال المحامي مضيقا عينيه في الرجل:

_ " لا يهمك من هذا، المهم أنه ليس أنت، أليس كذلك؟ "

_ " طبعا.. لكن هل مازلنا نأخذ المزيد بعد أن حصلنا على الصندوق، هل فسدت العينات بداخلها؟ "

_ " لم تفسد، لكن نحتاج للمزيد منها، لا أريد أن أفشل هذه المرة.. افعل شيئا ما وأسكِته.. لا أريد سماع صوته.."

هذا وهدأت حركات العم حمزة وخف أنينه بعد أن اقترب منه المحامي وأحكم ربط قطعة القماش حول فمه.

نحو الثالثة مساء، جاء حسن راكضا وقال بصوت سريع خلا من أية مقدمة:

_ " أسرعا، الآن سيخرج والد هشام.. "

_ " مَن، مِن أين، ما الذي تقوله يا حسن؟ "

ـ " (تاز) وأخي حسين هناك أيضا، سيخرج العم جلال من السجن أخيرا، هشام أخبرنا.. "

قال حسن هذا بينما مراد و (تاكفا) قد جمدا يسمعانه والحيرة تدب واضحة في وجهيهما، ثم ما كان بعدها إلا أن جمعا صفحتي الباب إلى بعضهما ومضيا رأسا إلى باب السجن الذي كان يقع على الطرف الشرقي من المدينة.

كان هشام ـ عندما وصل الرفاق ونظروا بأعينهم ـ يقف متيبسا، أمام بوابة السجن يحدق بعقل غائب، وكان يقف إلى جانبه (تاز) وحسين وقد التفتا إلى القادمين لحظة سماعهما ضجيج أقدامهم:

ـ " هش.. هش.. هشام.. " قال (تاز) يشده من ذراعه: " ان.. انظر.. مممم، من جاء.. "

والتفت هشام ناظرا، لكن مراد سبقه بالكلام حينها وهو يدنو إليه بفم باسم:

ـ " هل صحيح يا هشام، هل سيخرج والدك؟ "

أومأ هشام برأسه وعاد بوجهه نحو الباب مجددا، فنطق حسن:

ـ " هنالك أحد قادم.. "

وحينها كان يظهر خيال يتحرك من خلف شق في الباب المعدنية، وبعد ثانيتين فقط، حدثت ضجة صغيرة وفتحت الباب وظهر منها حارس يرتدي

بدلة رمادية وقف على جانب ويديه خلف ظهره، وتبعه رجل نحيف الطلعة يحمل حقيبة سوداء شبه فارغة، يرتدي ملابس رثة وتكسو ذقنه الدقيق شعرات قصيرة شاردة، كان شعر رأسه رطبا رغم كبر سنه، وله عينان صغيرتان تلمعان دون توقف، وقف يتأمل وجوههم، وحينما وقعت عيناه على ابنه أخيرا، فإنه نظر إليه كأنما قد رأى فردة حذائه القديمة، بتلك النظرة الخالية من أي مشاعر، لم يبتسم، ولا تحركت عضلات وجهه، إنما ظل يقف جامدا كصخرة باردة، وهكذا فإن هشام قد فهم سريعا كم أن والده لم يشتق له أبدا، ولكي يخفي شوقه لوالده وخيبته المريرة، شد على أسنانه واهتزت عيناه غيضا، لاحظ (تاكفا) ذلك لما استرق النظر إليه عن جانب:

ـ " بني!"

وشعر هشام أن قلبه قد تعثر، حتى لقد ظن لوهلة أن أحدهم ناداه هكذا، لكن العم جلال مسح فمه ونطق يقول بعدها:

ـ " أين هي أمك.. لماذا لم تأتِ لاستقبالي، حتى لم تأت لرؤيتي منذ دخلت السجن إلا مرة واحدة.. هل هي في المنزل؟ لا تقل لي أنها تزوجت مجددا.. تكلم يا ولد، لماذا تصمت هكذا، بالمناسبة أنت أيضا لم تكن تأتِ

لزيارتي، هل علمتك أمك على هذا؟ هاي، ارجع إلى هنا، هل معك نقود.. أيها الصعلوك المتسخ.. ارجع، لماذا تهرب؟ "

هكذا، أنهى الرجل لغطه بهذه الطريقة، ملوحا بيده خلف ولده وهو يراه يركض هاربا في الجهة الأخرى، بعدما لم يكن قد قابله لفترة طويلة، التفت مراد إلى الرجل وقال بصوت فيه حدة:

_ " لماذا تحدثت إليه هكذا، أليس هذا ابنك؟ "

قال مراد هذا وفي عينيه ما يوحي أنه يرغب كثيرا في ضربه، لكن الرجل نظر إليه متعتنا، بفاه مفتوح، ورد يقول بوقاحة:

_ " لا شأن لك بي يا رجل، هل جئت تعلمني كيف أتحدث إلى ولدي، ها؟ اذهب، هيا "

وأوشك مراد أن يفقد صبره وهم بالاقتراب منه لكن (تاكفا) أمسكه من يده وبث له كلاما هدأ من غضبه، وحينما استعاد نفسه ورزُن بعدها , ثم ذهب الرجل في سبيله والحقيبة معلقة بيده تكاد تلمس الأرض لطول حزامها.

في زاوية خلف جدار عتيق، نزل هشام على الأرض وبكى طويلا كما لم يبكِ منذ فترة طويلة، و لأن رفاقه وصلوا متأخرين فقد كان يمسح عينيه لحظتها، وسريعا دس رأسه بين ركبتيه وخفّت أنفاسه وتوارت رعشات صدره،

وظل يسمع حديثهم كأنهم يغمغمون بلغة أخرى لا يفهمها، ذلك أن فكره كان منصبا على رد فعل والده البدائي الذي ما تخيل أن يرى مثله، قال (تاز) يحاول طمأنة صديقه:

_ " هش.. هش.. هشام.. أر.. أر.. أرجوك.. لا ، تحزن.. " قال هذا وعيناه ذابلتان لأسفل.

وقال حسن بعده:

_ " دعك منه يا صديقي، لا يستحق.. "

ونظر إليه أخوه شزرا وقال يعاتبه:

_ " أحسنت، برافو.. لا يُشبع منك أبدا.. "

على هذا، مد الظل ساقه نحو الجهة الأخرى، وابيضت الأرض واصفرت، وحينما كان المساء ومالت الشمس إلى الأفق، وقف هشام عند الفتحة المطلة على الغابة ينظر بذهن شارد، إلى رفاقه وهم يلاعبون القرد في الأسفل وضحكاتهم تعلو قمم الأشجار القريبة، وكان مراد و(تاكفا) وهديل يأتون خلفه في تلك اللحظة، وقال مراد لما وقف عنده:

_ " أنت بخير؟ "

لم يقل هشام شيئا، لكنه التفت إليهم ونظر في عيني هديل طويلا، لمعت عيناه وترقرقتا، نادى رفاقه بعدها:

ـ "(تاز).. اصعدوا، يكفي لعبا.. "

اهتم التوأم بإشعال النار فيما انشغل (تاز) بتهدئة القرد بطريقته الخاصة، فأعطاه طعاما وحشره في الزاوية وأمره بعدم الحراك بعدها، والتم الجميع حول النار كما جرت العادة، وقص هشام عليهم ما قصه المحامي لطفي على الحكيم جمال في القبو، إلا أنه زاد عليه بإخبارهم كيف أنه حصل على آلة التصوير من بيت تلك العجوز التي ذهبوا لزيارتها قبلا، كان ذلك في اللحظة التي صرخ فيها المجنون وذهب مراد و(تاكفا) إلى الشرفة ليعرفا ماذا جرى، وحينها أيضا كانت العجوز قد غابت في المطبخ بدورها، فما كان منه ـ ولمعرفته السابقة بطبائع المحامي المشينة مع النساء وبعدما لمعت في ذهنه فكرة ابتزازه لما سمع حديثهم عن الصور التي التقطها الزوج المختطف ـ إلا أن وثب إلى الدرج وأخذ الآلة فدسها بين ثيابه وعاد إلى مكانه بخفة بالغة، وهكذا وبهذه الطريقة راقب منزل ضحيته حتى بانت له الفرصة ففعل فعلته وأجبر المحامي على إخراج والده من السجن بسرعة و دون دفع أي مبلغ، ودار الحديث بعدها مع رفاقه فقالوا أنهم وفي بحثهم عن العم حمزة،

لم يستطيعوا العثور على شيء يذكر، وحدثت ملاسنات بين الشقيقين كالعادة، وفي لحظة غفلة، تنقل القرد من مكانه زحفا حتى وصل عند هديل وجلس بقربها متمسكنا، ومد لها الرباط لتمسكه بيدها لكنها مالت على مراد واتكأت على ركبته خائفة، ضحك (تاز) قليلا وكذلك فعل التوأم، واقترب القرد أكثر ومد لها الرباط مرة أخرى، وكان في كل مرة يقترب زاحفا على مؤخرته، غير أنها رفضت أن تنظر إليه ، حينها أخرج هشام سلكا من جيبه و قام نحو القرد فجعل يعبث بالقفل للحظات ثم رفعه عاليا وألقى به عبر الفتحة نحو الخارج حتى استقر على غصن شجرة قريبة، كان الغضب باديا في وجهه، لكن القرد لم يكن الفرح قد بان عليه كما يجب، فلقد فشل في التودد إلى هديل، ولو تأمله الواحد إذن لفهم أن خيبته كانت تعادل خيبات البشر.

إذن وهم ينزلون الأدراج يغادرون المبنى، قال (تاكفا):

_ " كأنه ندم على ما فعل.."

ورد مراد:

_ " تقصد والده؟ "

_ " كأنه ندم على إخراجه، لم يعد يتحدث كما كان قبلا ، والحزن لا يفارق وجهه، عندما يتحدث، تشعر وكأنه مرغم على ذلك.. "

نظر مراد إلى هديل وشد على يدها:

_ " لم تكن صدمته بالشيء القليل أبدا، في هذه السن، يكتشف الإنسان أكثر ما يحزنه في الدنيا! بالتأكد سيفقد طعم الحديث أيضا.. "

_ " بالنسبة لذلك الأمر، ماذا سنفعل؟ "

_ " وماذا سنفعل، سننتظر حتى يخرج لنا شيء ما.. أثر، رأس خيط، لا أدري، كأن يرتكبوا خطأ ما! سنرى ما تفعله الشرطة أيضا، ربما يعثرون على شيء هذه المرة.. ".

هذا، وواصل الرفاق _ خلال الأربعة أيام التالية _ بحثهم، دون جدوى، فلم يظهر للمختطِفين ولا لضحاياهم أي أثر، وواصل الأطفال عملهم في الدكانة صباحا وحين كان يستدعونهم الناس مساء لتأدية بعض أعمالهم فقد كانوا يلبون فورا ويقبضون أتعابهم مباشرة، حتى ظهرت لهم مساء اليوم الرابع _ حين كانوا يعودون إلى وكرهم متعبين _ رسالة على جدار الغرفة التي يسهرون فيها، وقد كتبت بقطعة فحم وبخط سيء جدا، لكنه كان يمكن

قراءتها، وقف مراد و(تاكفا) بعد أن سارع حسن لإخبارهما، وقفا ـ بعيون مفتوحة وقلوب خافقة ـ يقرآن ما جاء فيها :

" اليوم على الساعة العاشرة.. قاعة السينما أحضروا الأشياء التي أخذتموها من الصندوق مقابل الرجل.. لا تخبروا الشرطة و إلا لن تروه مرة أخرى.. "

أعادا قراءتها ثلاث مرات أو أكثر، حتى هدأ الاضطراب الذي نشأ في صدريهما، وحينها التفتا إلى الصغار بنظرات سائلة:

ـ " ما الذي أخذتموه من الصندوق.."

ولما كانت نظرات الآخرين لا توحي سوى بجهل عظيم في الأمر، فإن هشام وحده كان يمط شفتيه لأسفل، وحينما كرر مراد سؤاله هذه المرة وكان في نبرته شيء من قسوة وجدية، فإن هشام دس يده في جيبه وأخرج ما فيه ومده لهما، دون أن ينظر:

ابتلع مراد ريقه:

ـ ما هذا ال.. "

ـ " عيون بشرية! " رد (تاكفا) بدهشة: " عيون بشرية حقيقية.. "

كانت أربعة أعين بيضاء موضوعة بداخل عبوة زجاجية بها سائل ملون لحفظها، وبينما أخذها (تاكفا) إلى يديه ليتفحصها جيدا فإن مراد كان ينظر إلى صورة صغيرة أمسكها بين سبابته و إبهامه، صورة بين إطارها طفل بوجه عجائزي، كانت من الغرابة بحيث سرت في جسده قشعريرة باردة، عاد يسأل:

_ " ما هذا؟ "

رد هشام:

_ " لا أدري.. "

في تلك اللحظات كان (تاز) والتوأم ينظرون إلى بعضهم يتساءلون عما يجري، لكنهم فهموا بما يكفي أن هشام عاد لوحده وفتح الصندوق مجددا، بما أنهم لم يروه وهو يأخذ أي شيء منه حينما كانوا معا وفتحوه أول مرة.

ناول مراد الصورة إلى (تاكفا)، ولبث الأخير يتأملها لبرهة:

_ " هشام، هلا أخبرتنا لماذا أخذتها؟ "

_ " لا شأن لك بهذا.. "

انحنى مراد على ركبة واحدة وأنزل يده على كتف هشام برفق بالغ:

_ " أرجوك يا هشام، أخبرنا ما الذي تعرفه، نحن هنا لمساعدتك.. "

وأدار هشام وجهه.

_ " ثق بنا، نحن هنا كلنا أخوة... لنضع مشكلتنا الكبيرة جانبا، إذا كان لدى واحد منكم مشكلة خاصة فعليه أن يطلعنا عليها، تعرف جيدا أنني و (تاكفا) لن ندخر جهدا في المساعدة.. هشام.."

حتى هذه الكلمة الأخيرة.. كان هشام لا يزال قادرا على أن يحبس دمعه، كانت عيناه مغمضتان وتنعصران بقوة، لكنه أفلت يد مراد ومشى إلى الغرفة التي ينامون فيها وعاد بعد لحظة حاملا في يده ملفا مده لتاكفا وتراجع خطوتين.

نظر (تاكفا) وقرأ وتفحص الأوراق ودقات قلبه تتسارع بشدة، وود لو أنه لم يقرأ.

كان تقريرا كما يلي:

نحتاج إلى امرأة، العينات يجب أن تؤخذ من امرأة لمقارنتها بعينات الرجل.. زوجها رجل فقير من حثالة المدينة.. ينبغي أن يدخل السجن أولا حتى لا يكون هنالك أحد ليسأل عنها.. سليم سيتكفل بهذا.. يمكن أخذ المرأة بعدها..

تم اختيار المرأة عشوائيا، غير أنها يجب أن تكون بصحة جيدة، بعمر مماثل.. الدماغ لدى المرأة في هذه السن يكون أكثر نشاطا..

تم استخراج العينات من دماغها.. خلايا الجلد لا تستجيب، ضعف في البنية، نقص الكولاجين، مستويات ال " p16 " عالية.. النتائج سلبية.. عينات الأنثى لا تصلح.. المرأة مثل الآخرين تماما، فقدت عقلها..

اهتزت عينا (تاكفا) لما انتهى، نظر بعدها إلى هشام كصنم، وجده يمنع نفسه عن البكاء بصعوبة:

ـ " من أين حصلت عليها؟ "

ـ " من الصندوق.. "

اقتربت منه هديل وشدت على يده، لم تكن تفهم شيئا مما يحدث، إلا أنها شعرت بحزنه، بدا لها ضعيفا لأول مرة، لرفاقه أيضا، نظر إليها بدوره، لاحظ مدى العطف والشفقة في عينيها، ترك يدها وغادر مباشرة، لم يكن يحب أن يظهر ضعفه أمام أحد، إلا أن ما كان بداخله كان لا يشبه الألم الذي يكون حينما يجرح المرء أصبعه، كان رغم صغر سنه يشعر أن الصخور تحترق بداخل صدره، كان يعلم أن أحدهم جعل أمه مجنونة، وأنه أجهش بالبكاء حتى ارتكز بيديه على الجدار عند الباب في الأسفل.

حينما نزل مراد خلفه بعد ذلك، وكان قد قرأ التقرير أيضا، عانقه ومسح عينيه حتى هدأ بما يكفي، غير أن شهقاته لم تتوقف، قال مراد ممسكا يد هشام لما كان يطأطئ رأسه لأسفل:

ـ " يكفي يا هشام، هذه الورقة لا تعني شيئا.. انظر، سينزلون الآن، يجب أن تكفكف دمعك، أنت فتى قوي كما نعرفك، الآن سنذهب إلى قاعة السينما، سنستعيد العم حمزة أولا ثم سنرى ما يمكن أن نفعله بعدها، هيا.. كن قويا.. "

عندما نزل الآخرون بعد ذلك قال (تاكفا) وهو يخبئ العبوة في جيبه:

ـ " حسين وحسن، أنتما رافقا هديل إلى منزل حياة وعودا بسرعة.. "

رفضت هديل أن تغادر وتتركهم في البداية، لكن مراد كان دائما يعرف كيف يقنعها بالطريقة المناسبة، فذهبت وقلبها معلق بصديقها، كان الوقت يشير إلى السابعة ونصف عندما عاد التوأم، كان الظلام قد هبط بما يكفي حين اجتمع الرفاق أمام المبنى، فيما جلس القرد يلعق ذيله خلفهم، تكلم مراد يقول بنباهة:

ـ " ما سنفعله الآن هو كالتالي، أنتم ستبقون هنا.." تحدث مشيرا إلى (تاز) والتوأم بيده، فاعترض حسين بسرعة:

ـ "وهل سيأتي هشام معكما؟ "

نظر مراد إلى هشام لحظتها:

ـ " أجل، سيأتي.. "

ـ " سنأتي نحن أيضا، لن نترك هشام وحده.. "

وأظهر الآخران ـ تواليا ـ تمسكهما بهذا الأمر بإصرار وعزم واضحين، كل بطريقته:

ـ " سنأتي.. "

قال حسن، فيما هز (تاز) رأسه دون أن يفتح فاه ظنا منه أن التأتأة لن تكون مجدية في وضع كهذا، عاد مراد يقول بحزم حينئذ:

ـ " لا تصروا أبدا، ستبقون هنا.. هيا إلى أعلى.. "

وصعد الصغار متذمرين وأخذوا القرد معهم، ووقفوا عند الفتحة في الأعلى يراقبون مراد و(تاكفا) وهشام وهم يبتعدون تحت جنح الظلام بين أشجار الغابة، قال حسن منزعجا:

ـ " يبدو أن هشام كان يبكي.. "

فقال حسين متنهدا:

ـ " بل بكى حقا.. "

_ " مسكين هش.. هشام.. ليتهم.. سم.. سم.. سمحوا لنا بالذهاب مع.. مع.. معهم.. "

كانت خطواتهم سريعة، حين راحوا يمرون بجانب المسجد الذي كانت تغلق أبوابه في تلك اللحظة، لاحظ مراد شيئا ما على وجه (تاكفا):

_ " في ماذا تفكر؟ "

_ " أفكر ألا نعطيهم كل شيء.. "

_ " ماذا تقصد؟ "

_ " سنعطيهم العبوة فقط، لن نعطيهم التقرير ولا الصورة.. "

_ " هل أنت جاد؟ "

_ " ربما نعطيهم الصورة إن سألوا عنها، هذا إن كانوا يعرفون ما الذي بقي من الصندوق أصلا، لاحظ ما كتبوه على الجدار _ أحضروا الأشياء التي أخذت من الصندوق _ لم يذكروا ماهي، لم يحددوا ماذا كانت.. في اعتقادي أنهم لا يعرفون ماذا بقي.. "

_ " ربما، في النهاية، الصندوق كان بحوزة المفتش الراحل لفترة طويلة.. أجل، من الواضح أنه هو من اهتم بجمع الأشياء التي كانت بداخله، في عمل خطير كهذا، وكونه مفتش شرطة، و إذا كانوا يوزعون الأعمال بينهم، فمن الطبيعي أن يهتم بأمور الأوراق وغيرها.. "

_ " حسنا إذن، ليكن.. "

بينما هشام يمشي بجانبهم، كان الغضب يتأجج في صدره مع كل خطوة، وكان يرسم في خيالاته من الصور ما لا يقدر الإنسان السعيد على تصوره، في لحظة ما، كان يضغط على مجامع يديه بقوة حتى يفتر هياجه، هكذا، حتى وصلوا إلى قاعة السينما، كانت الباب مفتوحة والقفل قد كسر وهو لا يزال معلقا عليها، و إن هذا قد أشعرهم باضطراب كبير جدا، وضع (تاكفا) يده على مقبض الباب وجذبها إليه بهدوء بالغ، أحدثت أزيزا، وعندما وقفوا بعد ذلك في الداخل، فإن صفوف الكراسي هي كل ما تبينوه بسبب الظلمة التي كانت تغطى القاعة، أدنى مراد يده وأمسك يد هشام إلا أن الفتى أفلتها، كأنه قال له يمكنني الاعتماد على نفسي ولست خائفا، لكن فجأة انتشر ضوء المصابيح وأنار جزءا كبيرا من القاعة بدءا من حيث كانوا يقفون نزولا حتى الشاشة الكبيرة، وبقيت بعض الزوايا مظلمة بحيث لا يمكن رؤية أي شيء

فيها، نظروا حولهم، وإن ذلك أوجس في نفوسهم خيفة، لكنهم تشجعوا وراحوا ينزلون الدرجات معا، كانت خطواتهم يُرد صداها وتسمع بشكل واضح بسبب الصمت القابع في كل زاوية، صاح مراد :

_ " هل من أحد؟ " مرة ثانية: " هل من أحد هنا؟ "

لكن لا شيء، فقط رمش أحد المصابيح في الأعلى قليلا ثم انطفأ دون رجعة، فجأة أفرد (تاكفا) يديه يمينا ويسارا واعترض طريق صاحبيه وهتف بصوت خافت:

_ " لحظة، انظرا.. "

وكان في الأسفل، أمامهما، عندما نظرا، كان ثمة شخص يجلس في الصف الأول لا يظهر منه سوى جزء صغير من كتفه، لم يتبينوا شكله جيدا، ولقد اقتربوا منه بحذر بالغ، وكم كانت دهشتهم عظيمة عندما رأوا زوجة المفتش جالسة هناك موثوقة اليدين والساقين وقد امتلأ فمها بقطعة قماش حتى لا يكون بمقدورها الصراخ أو الثرثرة.

وثب كل من مراد و(تاكفا) ينزعان عنها الأربطة، وظل هشام يقف خلفهما يراقب الوضع حتى لا تحدث مفاجأة، حينها قالت المرأة وهي تحك معصميها

اللذين كان الحبل قد ترك فيهما أثرا، قالت وكأن جلد وجهها يوشك أن يسيل على ركبتيها من شدة الذعر الذي أصابها:

_ " لنخرج من هنا حالا.. هيا أرجوكما، سيعود في أي لحظة.. "

وسألها مراد مستفسرا:

_ " من الذي سيعود؟ "

_ " ذلك الرجل، هو مثل الوحش، صدقاني.. أرجوكما، ساعداني على الوقوف، ولنهرب من هنا بسرعة.. "

وما أن مدت يدها حتى عادت فتهالكت على المقعد وقد ارتج قلبها الرخو الضعيف في مكانه، إذ أن صوتا ثخينا ومليئا بالحقارة قد صفق عاليا ودوى في أرجاء القاعة، وإن كان حدث للمرأة هذا، فلأنها عرفت صاحبه، دوى الصوت المرعب عاليا:

_ " ليقترب أحدكم إلى الظلام، ليكن الأعرج.. أحضر الأشياء وضعها على الأرض بهدوء بالغ.. "

بعد هذا، لمع الأمر سريعا في أذهانهم، إنهم ما زالوا غير قادرين على تحديد الأشياء التي فقدت من الصندوق وتسميتها بأسمائها، ولما كان (تاكفا) يحمل العبوة في جيبه منذ البداية ولما كان الصوت يقصده هو، فإنه

أومأ إلى مراد برأسه وراح يهبط الدرجات المتبقية، هتف مراد من خلفه بصوت خافت:

_ " كن حذرا.. افعل ما يطلبه فقط.. "

وبينما يتجه (تاكفا) _ رافعا يديه حيث يمكن رؤيتهما _ نحو ركن مظلم وكانت تنزل عليه ستارة طويلة من أعلى، وحيث قدر أن الصوت كان آت منه، فإنه صاح بدوره:

_ " هل العم حمزة بخير، هل هو هنا؟ "

لم يرد الصوت حتى بقي من المسافة مقدار خطوتين فقط:

_ " أغمض عينيك الآن واقترب أربع خطوات وضعها على الأرض بهدوء ثم عد إلى مكانك.. "

نفذ (تاكفا) ما طُلب منه حرفيا، ثم تراجع إلى مكانه وبقي الجميع ينتظرون أن يحدث شيء ما، لكن مضت دقيقتان حتى عاد الصوت مرة أخرى:

_ " الرجل خلف الستارة، يمكنكم أخذه.. قبل أن أنسى، لا تتدخلوا فيما لا يعنيكم مجددا، ابقوا بعيدين و إلا.. "

هكذا، كان صوتا جهوريا ذلك الذي صدح في أرجاء القاعة، ثم اختفى بلا رجعة، وعندما نزلوا بعد ذلك نحو الستارة ونظروا خلفها، فإنهم وجدوا الرجل

يرقد مغشيا وظهره إلى الجدار ويداه مرخيتان في حجره، رفعوه وضربوا وجهه قليلا ليفتح عينيه، تحسسوا نبضات قلبه ثم سحبوه إلى الضوء ووقفوا حوله، حينها قالت المرأة وهي تغطي فمها:

_ " المسكين، من فعل به هذا؟ يا إلهي.. "

ورد عليها (تاكفا):

_ " دعك منه يا عمة، الآن هل تخبريننا ما الذي حدث لك أنت، من الذي ربطك هكذا، وكيف دخلت إلى هنا؟ "

أنزلت المرأة يدها وبان عليها أثر الصدمة فتلكأت في الرد قليلا، ثم مضت تقول حين بدا أنها قدرت على ترتيب أفكارها:

_ " لم أعرف ما الذي حدث، كنت واقفة في الخارج، عندما جاء أحدهم فجأة وأغلق فمي وعيناي بيديه من الخلف وأمرني بعدم الصراخ و إلا فسوف أتعرض للأذى، ثم سمعت أحدا آخر يضرب قفل الباب حتى كسره ثم أدخلوني وربطوني واختفوا بعدها، ومضت نصف ساعة لم أسمع فيها أحدا حتى جئتم أنتم.."

هكذا قصت المرأة عليهم ما وقع لها وفي عينيها من المسكنة مما يدفع المرء لمعانقتها، لكن إذا كان هذا كل ما رغبت في حدوثه _ بعد التمثيلية

الصغيرة التي قامت بها ـ فإنه قد خاب ظنها، إذ أن الواحد من الرفاق قد كان يعرف بقدر الآخران تماما كم أنها ليست إنسانة بريئة إلى ذلك الحد الذي جاهدت نفسها لتظهره أمامهم.

ـ " إذن فعلى الأقل، كان هنالك شخصان! "

ـ " هذا ما فهمته.. "

ـ " ألم تري وجه أي واحد منهم؟ "

ـ " أبدا.. "

فرقع صوت في الأعلى فجأة، كأن أحدهم ضرب الباب بقوة، هم هشام بأن يركض ليتفقد الأمر لكن مراد أمسكه في آخر لحظة.

ـ " دعك يا هشام، لا نعرف كم عددهم، قد يكون الأمر خطيرا، الآن تحديدا فلنتجنب مواجهتهم قدر استطاعتنا.. "

ـ " لكنها فرصتنا، كيف سنعثر عليهم مجددا؟ "

ـ " سنعثر عليهم، انظر، هل سنترك الرجل هنا طريحا لوحده ونطاردهم؟"

رأى مراد في عيني هشام لمعانا غريبا، كانتا تهتزان بشجاعة، كأنه كان يحن لفرصة لقائهم، ثم إنه ساءه كثيرا أن يضيعها هكذا، إلا أنه في النهاية هدأ وتراجع عن فكرته، التفت (تاكفا) إلى المرأة:

_ " هل تخبريننا أيضا، ما الذي دفعك في مثل هذا الوقت للقدوم إلى هنا؟"

وهمهمت المرأة خائفة:

_ " ماذا، أنا؟ لا، كنت أمر من هنا فقط، ولا أدري لماذا توقفت فجأة، ثم.."

و لم تكمل كذبتها، لأن العم حمزة كان يفتح عينيه في تلك اللحظة، فأقعده مراد و (تاكفا) وأنصتا إليه لما راح يتمتم بغير هدف:

_ " أين.. أين أنا، الظلمة.. من أنتم، ها.. لماذا وجوهكم بشعة هكذا، هل أنا ميت؟ لا؟ حسنا، لكنني متأكد من أنني سأموت من الجوع بعد لحظة.. "

واتكأ بيديه على كتفيهما: " ساعداني على الوقوف ، ساعداني.. ".

عندما خرج هشام بعد ذلك_ وكان آخرهم_ وقف ينظر بحسرة، لبضعة ثوانٍ، حتى ناداه مراد:

_ " هشام، لماذا وقفت هكذا.. "

والتفت نحوهم، كان مراد و (تاكفا) يحملان الرجل بينهما يجرانه كسنبلة ذابلة، فيما تمشي المرأة خلفهم، تأملهم هشام جيدا، فكر فيما يمكن أن تكون زوجة المفتش قد جاءت لفعله، لكن رأسه أوجعه بشدة، زم شفتيه ثم تنهد وأسرع يلحقهم.

***

الحادية عشرة، وكان قد مضى على حادثة قاعة السينما يومان، عندما راح مراد و (تاكفا) وهشام يخرجون من منزل العم حمزة بعدما اطمأنوا على صحته وأنه بات يقدر على الوقوف على قائمتيه لوحده دون أن يسقط، وتحدث مراد يسأل هشام عن والده، فلم يرد الأخير سوى بضحكة مكتومة:

_ " ما بك لا تجبني؟ "

_ " لا أعرف، لا تسألني.. لم أره منذ ذلك اليوم الذي خرج فيه من السجن.."

_ " أحقا؟ "

_ " أجل، ربما عاد للشرب مجددا، لديه رفاق أوفياء جدا، يقضون وقتهم خلف المركز التجاري، وفي الليل هناك يمضغون الكسرة بالشراب بدل اللبن.. "

_ " ألم تبحث عنه؟ "

ـ " هأ.. هل أنا الذي سأبحث عنه؟ ليذهب حيث يشاء.. "

ـ " لا تقل هذا.. " هتف (تاكفا) وأمسك الفتى من كتفيه حتى ثبته مكانه ونظر في عينيه وراح يقول بثقة: " أعدك أننا ما إن ننتهي من هذا، سنلتفت إلى والدك، سنجلسه في مكان ما ونتحدث إليه، سنجد له عملا ومنزلا ليستأجره وستعودان كما كنتما قبلا.. ستعود حياتكما إلى سابق عهدها.."

ـ " وهل تعرف كيف كانت حياتنا، كما تقول ـ في سابق عهدها ـ؟ " وكان رد هشام قد فاجأ الرجلين بالقدر الذي جعل جسديهما يقشعران كأن بردا أصابهما، حتى إنهما تسمرا ينظران إليه ببلاهة دون أن يقدر الواحد منهما على أن يأتي إلى مقدمة رأسه بكلمة مناسبة يجوز قولها، ذلك حين مضى هشام يتم كلامه ببلادة بالغة:

ـ " كانت توجد أمي أيضا، وإن عاد المنزل فمن يعيد أمي؟ أعرف أنها ذهبت دون رجعة.. " وسقطت من عينه دمعة حارة، لكن كأن جيشا من الرجال الشجعان كانوا يتحدثون بداخله، فلم ينهار كما توقعا، إنما نحى يدي مراد عن كتفيه وقال بتذمر:

ـ " حتى أنا لا ينبغي أن أبقى هنا طويلا، المهم.. أين كنا سنذهب؟ "

قال (تاكفا):

_ " اذهبا أنتما وسألحق بكما.. "

ورد مراد:

_ " إلى أين؟ "

_ " سأمر على العم يوسف، ينبغي أن أسأله سؤالا.. "

_ " لا تتأخر.. "

_ " سآتي بسرعة.. "

في وقت الغداء تقريبا، كان (تاز) والتوأم يجمعون المفاتيح الملقاة على أرضية المحل ويأخذون يعلقونها في أماكنها، وكان العجوز الهولندي يخرش أذنه عند المدخل يحدق في السماء ولسانه خارج فمه، وراح يقول مضيقا عينيه:

_ " أين ستتغدون الآن؟ "

رد حسن:

_ " في المطعم يا عم يوسف.. "

_ " هاه.. حسنا، أظنها ستمطر.. "

وقال حسين يجيب هذه المرة:

_ " لكننا في الصيف يا عم يوسف.. "

_ " ألا تأتي الشمس في أيام الشتاء وتحرق رؤوسنا؟ "

_ " بلى.. "

_ " ثم ألسنا في آخر أيام الصيف؟ "

_ " نعم.. "

_ " دعوها تمطر إذن.. في هولندا كنا.."

_ " الم.. المطر جيد.. أحب.. أن.. أن.. أن ألعب تحته.. وعند.. وعن.. وعندما يتبلل.. شع.. شعري.. "

_ " أحسنت يا (تاز).. المطر يغسل الهواء عندما ينزل، يغسله من الدخان، يغسله من الكذب، ومن الكلام السيء أيضا، لا تنسوا هذا.. الآن هيا، اذهبوا إذا أردتم، كلوا حتى تمتلئ بطونكم ثم ارجعوا.."

انطلق الصغار بعدها، حسن أدار رقبته نحو كتفه وجعل يصيح بينما يهرول خلف صاحبيه:

_ " لن نرجع في المساء يا عم يوسف، لدينا عمل.. لا تنتظرنا..".

كان (تاكفا) يصل مسرعا في تلك اللحظة عندما فرقع صوت الطرقات على الباب وتردد صداه في أذن المرأة بشكل مزعج، لم تحب سماع شيء كهذا طوال فترة ما بعد موت زوجها، فإذا كانت لديها قائمة بالأشياء التي باتت تكرهها، فحتما سيكون قدوم الضيوف مكتوبا عليها، وفي أعلى القائمة أيضا، أطفأت النار وخرجت من المطبخ تسب وتلعن بينها وبين نفسها، وحينما فتحت الباب ورأت وجوههم، فقد كان ثمة ما أثار حماستها للبكاء، لم يكونوا رجال شرطة، لكن حتى هؤلاء، في المساء الفائت ظنت أنها تخلصت منهم ونجت، وهاهم الآن يأتون حتى باب بيتها، سعلت وجعلت عينيها تذبلان في لمحة عين كأنها تدربت على ذلك لأشهر، فسألها مراد ـ بأقل قدر ممكن من الفضاضة ـ أن تسمح لهم بدخول بيتها، فنظرت إلى أحذيتهم :

ـ " دعوها هناك، دعوها.. لن أموت في آخر عمري بتراب الأحذية.. "

مشت خلفهم وجلست تضم ركبتيها:

ـ " هل سيطول الأمر؟ "

فرد مراد بعد أن شابك أصابع يديه وبعد نحنحة صغيرة:

_ " سيدة فضيلة، جئنا إلى هنا.. لنسألك عن شيء بالغ الأهمية، وسيكون من الجيد أن تتعاوني معنا.. "

نقلت عينيها بينهم بقلق:

_ " لم أفهم؟ "

حين قالت هذا، أخرج (تاكفا) الصورة من جيبه ورفعها أمام وجهها، ودخلت الصورة في عينيها كفتات الجمر الحارق، شعرت أن قلبها قد تشقق، ويبست أعضائها:

_ " م.. مم.. من أين.. " ارتعشت شفتاها: " من أين حصلتم عليها؟.. "

وهمت واقفة وجعلت تدنو إلى الصورة كالمومياء المصرية، كان خليط من الرعب والشوق يرتسم في وجهها المجعد، دارت في ذهنها الأشياء وتلخبط فكرها، لكن (تاكفا) سحب الصورة، جمعت المرأة يديها عند صدرها وفهمت أنها لن تمسها بتلك السهولة:

_ " أرجوك يا سيدتي، اجلسي، اجلسي حتى نتفاهم بشكل جيد.. "

وجلست المرأة.

_ " من الذي في الصورة؟ "

_ " ولدي! " قالتها كأن قطرة ماء سقطت، بآلية، بلا خوف ولا تردد، ثم اهتزت عيناها وامتلأتا دمعا.

نحن كقراء، إذا نظرنا إلى الصورة بألوانها، كما رأتها المرأة، فسنكون قد رأينا طفلا في السادسة من عمره، في وجهه من التجاعيد ما ليس في وجه من عاش سبعين خريفا، ينظر بعيون ذابلة تحفها الترهلات ويسقط جلدها عن كل جانب، له خداه يسيلان وله ذقن متدل وأذناه كبيرتان و شائختان بغرابة، نظر (تاكفا) إلى الصورة في يده، إلى ذلك الوجه الذي يحمل حكاية مدينة بكاملها، كان طفلا مصابا بمتلازمة الشيخوخة المبكرة، هكذا تأكد (تاكفا) مما أخبره به العجوز الهولندي عندما ذهب ليسأله عن أمرها:

_ " أين كانت هذه الصورة؟ "

لكن المرأة لم تنطق.

_ " لم تكوني تعرفين مكانها أليس كذلك؟ سنعطيك إياها بشرط.. "

ابتلعت ريقها.

_ " ستجيبيننا على كل سؤال نطرحه عليك دون مراوغة.. "

_ " أعطني الصورة أولا.. "

_ " لا.. لكن أعدك أننا سنعطيك إياها إذا أجبتنا.. "

_ " أرجوك أعطني إياها، أرجوك يا ولدي.. لم أره منذ مدة طويلة، أرجوك إنه ابني، أعطني إياها.. "

ظلت تترجاهم لأكثر من دقيقة، حتى قال مراد في النهاية، قال وهو يربت على ركبة (تاكفا):

_ " أعطها إياها، لن تهرب بها.. يكفي أن تجيبنا.. "

بعد أن لفت المرأة الصورة بكفيها، وفعلت بها ما تفعله الأم بوجه فقيدها في الكفن، أنزلت يديها اللتان خبأت الصورة بينهما في حجرها ومسحت عينيها المحمرتين شاهقة:

_ " اسألوا، ما الذي تريدون معرفته؟ "

_ " ما نريد معرفته يا سيدتي هو.. أن تخبرينا عما تعرفينه عن الأعمال الخفية التي كان يقوم بها زوجك مع المحامي لطفي والحكيم جمال.. "

وطأطأت المرأة رأسها لبرهة، وعندما رفعته, كان الهواء الذي تستنشقه يحرق صدرها، زفرت زفيرا عظيما وتنهدت:

_ " أخبروني أولا كيف حصلتم على صورة ابني؟ "

_ " من الصندوق البرتقالي.. لا تسأليني كيف فعلنا ذلك.. "

هنا نظرت المرأة إلى هشام نظرات ذات معنى:

_ " ذلك الصندوق، كان يحتفظ به زوجي ويضع فيه أشياءه الخاصة، لم يجعلني أفتحه أبدا منذ أن ابتاعه.. في البداية كنت أظنه يضع أوراق العمل بداخله.. عندما مات ابننا قبل خمسة عشر سنة لم يكن يظهر على زوجي أنه تأثر ذلك التأثير الذي كاد يفقده عقله مثلما حدث له قبل فترة قصيرة من وفاته.. ظل يهذي باسمه، وكان مرضه قد اشتد في تلك الليلة، ناداني إليه وقال اجلسي، رأيته يمسح دموعه، جلست بجانبه وأردت أن أفهم ما الذي يحدث، لأن الحكيم جمال عندما جاء لمعاينته في ذلك المساء قال إنه تسمم من شيء أكله، وأن الحمى سترافق زوجي لليلتين أو أكثر، أعطاه دواء وأخبره أنه لا حاجة له بالمستشفى.. وظل زوجي يخبرني أن أثق في الحكيم لأنه صديقه ويعرفه منذ مدة طويلة، لكن عندما لمست جبينه ظننت أن الماء المغلي يمشي في رأسه، كان جبينه حارا جدا، وظل يسعل وهو يخبرني.."

لم تقدر المرأة على المواصلة مباشرة، بكت قليلا ثم عادت تقول بعدها:

_حتى أعماله التي كانت تبقى، كان يأتي بها إلى البيت لكي يقوم بها ويتسنى له رؤية ابنه وهو يتمرغ على الأرض أمامه، في تلك الليلة أخبرني أنه فعل أمرا سيئا.. سيئا جدا، أخبرني أنه سعى مع الحكيم جمال خلال السنوات الماضية لصنع دواء يمنع الشيخوخة.. "

شهقت مجددا وانفجرت باكية، نظر مراد و(تاكفا) إلى بعضيهما ذاهلين لشدة وقع ما يسمعانه، ولأن الصورة قد أوشكت أن تتضح لهما، وقد كان مرعبا جدا أن يتضح لهما الأمر على هذه الصورة البشعة، وحين تمالكت المرأة نفسها، فقد شخرت قليلا ومضت:

ـ " قال إنهما فعلا أشياء سيئة جدا للوصول إلى عقار يحقق حلمهما، لم يخبرني بها، ربما لم يجد وقتا، لكنه قال إنه كره ذلك المرض الذي أخذ ابننا إلى درجة أنه كره أن يصيبه، كره أن يصير عجوزا، وعندما وجد من يشاركه هوسه فقد دعمه وعمل معه بسرية تامة ولسنوات طويلة، حتى ظنا أنهما حققا شيئا.. "

ـ " هل كان العقار الذي صنعاه هو الذي تسبب في.. " سأل (تاكفا).

ـ " أجل.. هذا ما حدث، قاما بتجربته، وحدث ما حدث.. لم يشأ الحكيم جمال أن نأخذه إلى المستشفى خشية أن يفضح أمره، وربما لأنه كان متأكدا من أنه لا فائدة من ذلك.. ففي النهاية، ومما فهمته من كلام زوجي، أنهما استعملا موادا غير معروفة في الوسط الطبي، موادا غريبة لم يتطرق إليها أي أحد قبلهما.. "

ـ " إذن لا تعرفين من أين كانوا يأتون بتلك المواد، ليس لديك أية فكرة؟"

_ " لا.. "

_ " حسنا، أكملي.. "

_ " عن هذا الأمر، لا أعرف شيئا غير هذا.. أعرف أنهما كانا يحاولان صنع دواء يمنع الشيخوخة، ولم ينجحا في ذلك.. وأن زوجي توفي بسبب ما كانا يصنعانه، عندما كان على وشك الموت لم يستطع إخباري أين وضع الصورة، كان قد أخذها قبل ذلك ووعدني بإرجاعها، وعندما سألته عنها، خرجت روحه.. ولم أرها مرة أخرى إلا الآن فقط، لم أفكر أبدا في فتح الصندوق لأني لم أكن أملك مفتاحه، ولم أرد كسره.. "

أخذت الصورة إلى فمها وقبلتها مجددا.

_ " الآن هل أجبتكم؟ "

_ " أمم.. الحكيم جمال، هل جاء لزيارتك بعد وفاة زوجك؟ "

_ " مؤكد أنه جاء.. مرتين ربما.. "

_ " هل سألك شيئا بدا لك غريبا أن يسأله؟ "

فكرت المرأة:

ـ " ربما في المرة الثانية، عن شيء.. عبوة.. ربما، سألني إن كنت قد رأيت زوجي يضع عبوات زجاجية في مكان ما في المنزل.. لكنني لم أره يفعل ذلك.."

نظر الرجلان إلى بعضهما، وأردف مراد وهو يعود بعينيه نحوها:

ـ " أكملي.. "

ـ " هنالك أمر آخر.. "

ـ " نعم! "

ـ " أخبرينا ما الذي كنت تفعلينه في ذلك الوقت أمام قاعة السينما.. بصدق.. "

ارتسم وجوم جديد على وجه العجوز وخفضت بصرها، نظرت إلى الأرض في أماكن متعددة، كأنما تفكر ثم ثبتت بصرها في مكان وغمغمت شاردة:

ـ " كن.. كنت.. سأحكي لكم، سأحكي لكم شيئا لا أظن أنه بقي في المدينة من يتذكره.. قبل أربعين سنة، كنت لا أزال شابة صغيرة، في التاسعة عشرة، وكانت تسكن بجوارنا عائلة مسيحية، هنا بجوار هذا المنزل.. " وأشارت بيدها: " ابنهم في العشرين من عمره أيضا، وكنا نلتقي بين الحين والآخر.. صارحني بحبه في ذلك المساء، عندما أخبرني أن عائلته تبني بيتا

في الغابة، لأنهم باتوا يشعرون أن الناس هنا يتعاملون معهم بطريقة مختلفة، وعدني أنه سيحرص على مقابلتي دوما، وكان الجيران لا يحبون رؤيته يتجول بالقرب من هنا، و عندما مضى شهران على انتقالهم إلى الغابة.. "

_ " انتظري، لحظة.. هل تقصدين ذلك البناء المنسي في الغابة؟"

_ " أجل.. بعد شهرين لم نكن قد التقينا كثيرا كما وعدني، لكنه جاء يوما وأخبرني أنه سيتزوجني.. " سكتت لبرهة، تنهدت: " حتى عائلته لم توافق.. عائلتي، وكل من سمع بالخبر، حدث الكثير من اللغط، ثم تقرر أن الأمر لن يحدث، أنا منعت من الخروج من المنزل لأشهر، كان عقابا لي لأن عائلتي فهمت أني كنت ألتقيه سرا، بعد هذا، اشتد تعامل الناس مع عائلته، بعث لي رسالة مع صديقتي أخبرني فيها أنهم سيغادرون المدينة دون رجعة، هو لم يوافق.. بل أصر على البقاء كثيرا، لكن رأيه لم يغير قرار العائلة، في رسالة أخرى أقترح أن نهرب معا.. عندما عادت صديقتي بعدها، أخبرتني أنها شعرت بالخوف من ردة فعله عندما علم إجابتي.. انقطعت الرسائل لشهر كامل، في الرسالة الأخيرة كان قد كتب كلمة واحدة " وداعا " بخط كبير، في منتصف الورقة، ظننته سيرحل، وكنت محقة، لكن ليس بالطريقة التي

ظننتها، في مساء اليوم الذي وصلتني فيه الرسالة، أعلن خبر وفاته بقاعة السينما، كان قد جلس في المكان الذي كنا قد شاهدنا فيه فيلما قبل ذلك، عندما انتهى بث الشريط ونهض الجميع، هو بقي ولم ينهض، كان السم قد تغلغل في جسده، لقد قتل نفسه ببساطة، منذ تلك الليلة، وبعد أن أخرجوا جثته، غادرت عائلته وتركت المنزل الذي خسرت ثروة لبنائه، فارغا، لم تعد إليه أبدا، ولم نسمع إلى أين ذهبوا، أما قاعة السينما فلم تفتح منذ ذلك اليوم أيضا، أغلقت أبوابها في تلك الليلة، وأقسم الناس على عدم دخولها مجددا، باعتبارها أصبحت مكانا يثير الغثيان لمجرد ذكره.. "

_ " وأنت أصبح من عادتك الذهاب إلى هناك وتذكر الأمر من وقت لآخر! "

_ " هذا ما يبدو.. ماذا أفعل، كيف أنسى شخصا قتل نفسه من شده حبه لي، كيف أمحوه من ذاكرتي، كنت قد نسيته بعض الشيء وأنا بجانب زوجي، لكن عندما تركني هو أيضا، وقعت كفة ذلك الشاب على رأسي مجددا.. "

عندما خرجوا من بيت السيدة، قال مراد مفكرا:

_ " عبوة بها أربعة أعين تطفو في سائل غريب، ظلوا يبحثون عنها منذ وفاة المفتش. "

_ " بات واضحا ما الذي يفعلونه.. "

_ " بات واضحا، لكن ليس بما يكفي، ليس قبل أن نرى بأعيننا.. "

_ " وماذا عن حكاية العائلة المسيحية! "

دور مراد عينيه وأومأ بفمه:

_ " لا أدري كيف لم نسمع بالأمر قبل الآن، على كل، كنا صغارا جدا حينئذ، هشام.. أرأيت الآن لماذا بقي ذلك المبنى لكم؟ "

ورد هشام بعد أن كان لزم الصمت لفترة طويلة:

_ " رأيت، أجل رأيت.. يعني حتى لو أعدنا تلميعه فلن يسكنه أحد.. رائع، ليبقَ إذن.. "

وتذكر مراد شيئا:

_ " آه، (تاكفا)، لم تخبرنا لماذا ذهبت عند العم يوسف.. "

_ " سألته عن الصورة، إن كان يعرف بأمر هذا الطفل، قال إنه يتذكر من الأمر القليل فقط لأن الطفل لم يكن يخرج من المنزل، كان الصغار عندما يرون وجهه يسخرون منه كثيرا، وقد أحزن ذلك والديه دوما، بقدر ما أحزنه، في النهاية، في سن السادسة، مات الطفل بجلطة دماغية.. قد يكون هذا أثر في نفسية والده كثيرا، إلى درجة جعلته مهووسا، وفعل ما فعله.. "

وقف هشام ينتظر أصحابه عند مدخل الطريق المؤدية إلى المزرعة الصغيرة لنصف ساعة، كان الوقت نحو الخامسة، وقد أصبحت السماء لا ترى، لأن السحب الرمادية افترشتها بالكامل، وأخذت الريح تداعب قمم الحشائش فتميلها، وجاء التوأم يتبعهما (تاز) من خلفهما وهو يفتح فمه للسماء يلتقط أولى القطرات الباردة، كان القرد يمشي بينهم ثم يأخذ ينتظر (تاز) حتى يلحقه، ثم يبتلع (تاز) ما جمعه من القطرات فيفتح فمه ويتوقف مرة أخرى، وهكذا، يأخذ القرد ينتظره مرة أخرى، حتى صاح حسين في صاحبه لما أحس بانزعاج مما يفعله، ركض (تاز) خلف التوأم وهو يطارد القرد الذي أخذ يجري أمامه فرحا، حتى وصلوا عند المدخل، والتفت هشام نحوهم.

" أين كنتم هكذا؟.. "_

رد (تاز): "عند ال..سك...السكة"_

" أعرف يا (تاز)، أعرف أنكم كنتم عند السكة، لماذا تأخرتم هكذا.. "_

" لقد تت.. "_

قاطعه حسين:

" تشاجرنا معه، يا له من سارق "_

" لماذا، ماذا بعتم له؟ "_

_"مروحة معدنية وبطارية سيارة.. ونصف مقعد.. هذا فقط، انظر.." وأخرج من جيبه بعض الدنانير : " بعد أن وضع البضاعة في الشاحنة، أعطانا هذا وقال أنه أكثر مما ينبغي.. طلبنا منه أن يعيد لنا أشياءنا لكنه رفض، عضه (تاز) من يده ثم ضربنا سيارته بالحجارة وهربنا.."

" هل حقا عضضته يا (تاز)؟.. "_

وأومأ(تاز) برأسه

" لكنه هكذا ربما لن يشتري من عندكم في المرة المقبلة"_

نطق حسن:

" ليكن، ونحن أيضا سنرفض أن نبيع له"_

ورد عليه شقيقه::

" كيف لن تبيع له إذا هو لم يأتي ليشتري منك يا أخي؟"_

" سهلة "_

" كيف سهلة؟"_

تدخل هشام يقول ليفض ملاسنتهما التي قدر لو أنه تركها فسوف تدوم لنصف ساعة أخرى:

ـ" لا يا حسن، في التجارة، في كسب المال.. الناس تفتح الجبهات، قدر ما تقدر.. ولا تغلقها.. الآن هيا بنا.."

كانت المرأة تحمل كومة تبن بين ذراعيها وتذهب بها نحو أبقارها، وعندما سمعت خشخشات الصغار من خلفها، وزعت التبن تحت الرؤوس الكبيرة ذات المناخير الواسعة والقرون الحادة والتفتت إليهم تقول وهي تتنهد بسعادة:

ـ " هاه.. جئتم إذن، رائع، انتظروا قليلا هنا حتى أعود، حسنا؟ "

بعد دقيقتين عادت المرأة وبيديها أربعة أكواب بها لبن بارد، توقفت قليلا تنظر إلى القرد الذي كان يطارد الدجاجات ثم واصلت مسيرها:

ـ " لتبرد بطونكم.. "

قالت وهي تسحب يديها الفارغتين إلى خصرها، بعد أن ناولت كل واحد منهما كوبا، ثم نظرت للسماء الغائمة:

ـ " ستتوقف بعد لحظة.. "

بعد دقيقة واحدة، كانت القطرات القليلة قد اختفت هي الأخرى، كما قالت تماما، وغمغمت بعدها:

ـ " ربما في الليل، ستمطر.. بغزارة.. "

بعد أن شرب الصغار اللبن، أعادوا لها الأكواب وشكروها بما يتوافق مع فضلها، ثم انطلقوا إلى شغلهم، أخرج التوأم البقرة يجرانها من الحبل الملفوف حول رقبتها من الحظيرة وربطوها عند عمود كهرباء خشبي كان ينطلق من الأرض بجانب سور المنزل، (تاز) وهشام كانا يجران الثور أيضا، أوصلاه خلف البقرة مباشرة وتركاه وشأنه، وعندما كانت المرأة تعود من الداخل في تلك اللحظة فقد وقفت بجانبهم تقضم أظافرها، ظلوا يراقبون الثور البليد وهو يتناول القشات القليلة المتساقطة عند قائمتي البقرة الخلفيتين في انتظار أن يفعل شيئا، لكن بعد أن طال بهم الانتظار، ولما بدا أن الأمر لن يحدث من تلقاء نفسه، فإن هشام تقدم نحو الثور وجعل يمسح على مقدمة رأسه وكتفيه بحذر، كانت الأنثى تمضغ ما بقي في فمها تحدق إلى الفراغ أمامها ببلاهة، طلب هشام من (تاز) أن يفعل مثله، وعندما أمسك (تاز) بزمام الأمور في المقدمة، ذهب هشام إلى الخلف وأنزل رأسه تحت الثور وجعل يفعل شيئا، كان الأمر سريعا، وحينما عاد هشام وطلب من (تاز) أن يبتعد حالا، فإن الأخير قد ترك الحبل من يده وهرول نحو أصحابه، وشخر الثور بعدها ورفع شفته الغليظة لأعلى مبرزا صفا من الأسنان الكبيرة المتسخة، ثم اقترب من

أنثاه أربعة خطوات وجعل يشتم رائحتها، وعندما لم تجد الأخيرة مفرا، ولأنها لم تكن تقدر على الاعتراض أو إبداء رأيها فإن الثور اتخذ وقفة الجواد فوق التل وجعل يشخر لعشرين ثانية حتى ارتخت عيناه ونزل راضيا عن الكون بأجمعه.

كانت سعادة المرأة عظيمة، بحيث أنها صفقت بيدها وقبلت هشام على خده، ونظرت إلى الحيوان الذي كان يُقتاد بالحبل ذليلا إلى الحظيرة، حيث سيربط كما كان قبل ذلك، وقالت المرأة بفم عريض باسم:

ـ " الآن يمكنني بيعه.. "

ونظر إليها هشام من أسفل:

ـ " متى سيأتون لأخذه؟ "

ـ " ربما الآن، وربما بعد ساعة! "

ـ " ستحصلين على واحد آخر؟ "

ـ " أجل، خمسة عشر شهرا، تعرف، عندما لا تلد البقرة ذكرا، أشتري من المربي عجلا صغيرا وأربيه حتى يكبر، ثم أعيد بيعه، منها ليلقحهما ومنها لأكسب المال من بيعه، وحتى تلد البقرة مجددا، أو تصبح العجلة جاهزة، يكون العجل قد أصبح جاهزا، بعد أن يلقى اهتماما خاصا به.. "

ـ " تعرفين المربي منذ فترة طويلة؟ "

ـ " ليس منذ فترة طويلة، كان السيد (خوني) يرسل نفس الشخص لسنوات، لكنه لم يعد يأتي.. "

ـ " تقصدين العم مسعود! "

ـ " وتعرفه أيضا.. "

ـ " عملت لبعض الوقت في المزرعة.. أعرف أنه كان يجيء إلى هنا، الآن لم يعد يأتي أليس كذلك؟ "

ـ " لا.. "

ـ " أظنه طرد من العمل.. "

استدار الصغار ذاهبين بعد أن أدوا عملهم، بوجوه متجهمة، حالهم حال من قبض قليلا، لكنهم لم يكونوا يأبهون للمال إذا كان الأمر يتعلق بعمل ينطوي على مغامرات صغيرة، أو رؤية أشياء غريبة كالتي رأوها، المرأة المزارعة لم تعرف الطريقة المناسبة لجعل الثور يقترب من البقرة في الوقت الذي لا تكون لديه رغبة في ذلك، لكن هشام كان قد عمل في حظيرة السيد (خوني) لفترة، عندما كان في سن أقل، وعكف على إطعام الأبقار ووضع أجهزة الحلب في أثدائها، وكذا جمع الفضلات من تحت حوافرها بالمجرفة لساعات

طويلة، وشاهد في أحيان كثيرة كيف كان العم مسعود يقوم بهذا العمل من وقت لآخر.

الآن كان الصغار قد قطعوا نصف الطريق، وكانوا يمشون متجاورين يتبادلون أطراف الحديث ويضحكون على القرد الذي كان يطارد الجراد أمامهم، وظهرت فجأة شاحنة زرقاء تأتي نحوهم، كانت تهتز على الطريق ويعلو صوتها كل لحظة، وقد مشى الصغار يتتابعون على جانب واحد عندما اقتربت منهم، كان السائق ـ ذو اليدين الثقيلتين اللتين كان يضعهما على المقود بتخاذل ـ كان لا ينظر لشيء ـ بعينيه الناعستين اللتين تشبهان عيني البومة ـ سوى إلى الطريق الملتوية التي كانت تظهر أمامه، ولما لم يكن قد التفت إلى الصغار، فإن ذلك كان بالنسبة إليهم كهدية إلهية، ذلك أن السائق الذي كان يجلس خلف المقود كما قد تجلس أي قطعة معدنية، هو نفس الرجل الذي شاهدوه في المقبرة، ولقد عرفوه من رأسه الخشن ومعطفه ذي الياقة العريضة.

جلس القرد في الطرف المقابل من الطريق يتابع الشاحنة بعينيه مندهشا، ثم رفع ذيله وركض على قوائمه الأربعة خلف الصغار الذين كانوا قد خفضوا رؤوسهم وتقاربوا فيما بينهم وراحوا يمشون متخفين يتبعون الشاحنة.

عندما وصل الصغار بعدها، كان الرجل قد ركن الشاحنة بجانب جدار حجري ونزل عنها وذهب يتحدث إلى المرأة بشأن الثور فجعلا يتبادلان أطراف الحديث وهما يشيران إليه بين لحظة وأخرى، كان قد أوقف الشاحنة بحيث جعل مؤخرتها نحو مربط الثور وفتح بابها، أما الصغار فاختبؤوا خلف الجدار وأخذوا يراقبون بحذر، وبأنفاس يمكن سماعها، في لحظة، استدار الرجل نحوهم، نظر قليلا ثم مشى يقصد الشاحنة حتى صعد على متنها، وخرج بعد لحظة يجر عجلا صغيرا وأنزله من على متنها ودفع به نحو المرأة وهو يتمتم بكلام لم يقدروا على سماعه، ولما كان الصغار قد رأوا ملامح وجهه كاملة لأول مرة، فإن ذلك قد بعث في صدورهم الصغيرة خوفا مضاعفا، كان شعر رأسه كثا مهملا، وله عينان كعيني البومة يعلوهما حاجبين غليظين وله أنف عريض كهرثمة السبع، وفم فظيع يخفي تحته رتلا من الأسنان الصفراء الوسخة، وعندما ربطت المرأة العجل في مكانه، أخذ الرجل الثور من حبله وجره متجاهلا عناده حتى أصعده إلى الشاحنة وأغلق عليه وعاد بعدها فسلم المرأة مبلغا من المال ونفض يديه وارتد عائدا، في تلك اللحظة، وعندما ذهبت المرأة لتتفقد أسنان العجل الصغير الذي انضم لعائلتها، تراجع الصغار خلف

السور واندسوا عن عيني الرجل حتى صعد وجلس خلف المقود، ثم وما إن رعد المحرك حتى نطق هشام يقول أمام أصحابه:

ـ " انظروا، لن يخرج أي واحد منكم قبل أن تذهب الشاحنة.. "

فنطق حسين يقول بعده:

ـ " نعرف هذا يا هشام، الغبي وحده من سيفعل هذا.. "

ـ " جيد، أنا الآن سأذهب، ولا تخبروا أي أحد، سأعود مع شروق الشمس، ربما, (تاز) أمسك القرد ولا تدعه يتحرك.. "

ـ " أين ستذهب، أين.. "

وقبل أن يكمل حسين كلامه، كان هشام قد تحرك خطوتين من مكانه، وصاح حسن خلفه:

ـ " لا تركض أمام الشاحنة يا هشام، ستدهسك، إنها مصنوعة من المعدن.. "

ـ " ارجع إلى مكانك.. "

ورجع حسن خلف السور وجعل يطل من فوق رأس أخيه الذي كان يزم شفتيه ينظر تحت الشاحنة يراقب علّ الرجل يكون قد نسي شيئا فينزل مجددا في أي لحظة.

تسلق هشام الباب المعدنية بخفة واعتلى ظهر الشاحنة بجانب الثور ولم يعد له أي أثر بعد ذلك، نظر أصحابه عندما كانت الشاحنة تبتعد عنهم لكنهم لم يتبينوه أبدا، فلم يكن يظهر سوى رأس الثور وسط الظلام في الداخل، ووقف الصغار حائرين بعدها، وقال حسين يعاتب شقيقه التوأم:

ـ " من أين عرفت أنه سيركض أمام الشاحنة أيها الأخرق! "

ـ " ألم تكن الخطة تقضي أن يذهب أحدنا أمام الشاحنة فيركلها حتى يراه الرجل فينزل منها ويركض خلفه! "

قال حسن هذا وسكت بعدها، فلاحظ أن (تاز) وشقيقه ظلا يطالعانه بدهشة، دون أن يقول شيئا، فمضى يتم كلامه:

ـ " ثم يصعد الآخرون فينزلون الثور ويعيدونه إلى المرأة! وعندما يتعب الرجل من المطاردة، يعود فيأخذ شاحنته ويذهب، ويكون الثور قد بقي هنا! "

نطق حسين وقد أحس أن دماغه تشنج من أثر ما يسمع:

ـ " أخبرني لماذا نظهر أمام الرجل ونركل شاحنته، ولماذا يبقى الثور هنا؟ "

ـ " لأنه يخص العمة خديجة يا أخي.. "

ـ " هاه، أخبرني يا حسن، هل رأيت الرجل يعطيها شيئا؟ "

ـ " أجل.. "

ـ " وماذا كان، أخبرنا؟ "

ـ " نقود، نقود يا أخي.. "

ـ " رائع، ولماذا تريد أن نعيد لها الثور بما أنها أخذت النقود إذن؟ "

هز حسن كتفيه بلا مبالاة وقال:

ـ " لا أدري، لأنها ستعطينا نقودا إن فعلنا ذلك! لنقل أنه عمل، ثم إن عاد الرجل بعدها وسأل، سنقول للعمة خديجة أن تخبئه، ونحن سنخبره أننا رأينا الثور يسقط من الشاحنة في الطريق وقد هرب إلى الغابة.. "

زادت دهشة حسين إلى الحد الذي شعر معه بالغضب:

ـ " حسن، هل تعرف من هذا الرجل؟ "

ـ " لا.. "

ـ " وأنت يا (تاز)؟ "

وهز تاز رأسه أن نعم، حينها عاد حسين ينظر إلى شقيقه بحيرة:

ـ " يعني، أنت حقا لا تعرف ما الذي كنا نفعله قبل لحظة!!"

ـ " وماذا كنا نفعل؟ "

ـ " ألم نكن نختبئ منه يا حسن؟ "

ـ " أجل، لكن حتى لا يرانا عندما ننزل الثور من الشاحنة.. "

شد حسين رأسه وتأفف طويلا، ثم استدار حول نفسه دورة كاملة:

ـ " متى رسمت كل هذا في رأسك؟ "

ـ "متى؟ عندما طلب منا هشام أن نخفض رؤوسنا ونتبع الشاحنة.. ظننت أن هذه هي الخطة، لكن لماذا تغضب مني هكذا؟ "

ـ " لا يهم يا حسن، حقا لا يهم.. هشام الآن في.. "

ـ " سي.. سي.. سيكون بخير يا حسن، لا.. لا تق.. لا تقلق.. ألا تع.. تع.. تعرفه؟.. سي.. سيعود.. غد.. غد.. غدا كما قال لنا.. "

ـ " أجل يا (تاز)، سيعود، لابد أن يفعل.. حسن، أين القرد، ألم يكن معك؟"

ونظر حسن حوله:

ـ " كان.. لكنني لا أدري الآن إلى أين ذهب.. "

لم يجد حسين ما يقوله بعد هذا، إنما نظر إلى (تاز) نظرات ذات معنى واستدار إلى الطريق يتأفف.

***

مع اشتداد الظلام في الخارج، أشعل الصغار الثلاثة النار وجلسوا حولها، وأخذ حسن يلاعب القرد متناسيا ما حدث، لكن (تاز) ذهب عند الفتحة ووقف يتأمل السماء الغائمة، كان الهواء باردا، ورؤوس أشجار الكاليتوس تتمايل يمنة ويسرة، ظل (تاز) ينظر بقلق، ويدعو ألا يصيب صديقه أي مكروه أبدا، وقف حسين بجانبه:

_ " أنت بخير؟ "

_ " هل هشا.. هشام بخير؟ "

_ " لا أدري يا (تاز)، لكن هذا ما أرجوه مثلك.. "

بين حسيس النار الخافت، بدأت السماء تمطر، واختلطت أصواتهما بشكل بديع يصعب وصفه، وصعدت رائحة التراب من الغابة، ومد (تاز) يده إلى الخارج كي تصيبها القطرات الباردة:

_ " سي.. سيجد.. مكا.. مكانا ليبيت فيه.. أنا مت.. متأكد من هذا.. "

مرت بضع دقائق، وتراجع الصغيران نحو النار مجددا، بعدما تسارعت خيوط المطر أكثر وتعالى صوتها، وكان بعضها يسقط على سقف قصديري يغطي بيتا صغيرا كان ينام فيه كلب الحراسة عندما كان حيا، لكن هشام وجده المكان الأنسب للاختباء في ظل ظرف كهذا، واستعمله.. صوت المطر على السقف القصديري لم يكن يقلق راحته، إنما رائحة بقايا عظام الكلب المتعفن كانت توخز أنفه وتزعجه بشدة، تذكر كيف كان العم مسعود يأتي إلى الكلب كل صباح ليضع بقايا الطعام عند قائمتيه الأماميتين ثم يحك رأسه بيده الخشنة ذات الأصابع المنحنية ويعود بعدها إلى عمله، لكن بعد أن حل هذا القائم الجديد على الحظيرة، لم يعد أحد يهتم لأمر كلب الحراسة حتى مات وحيدا في مرجره، نظر هشام إلى بقاياه بشفقة وحال لسانه يقول إن الإنسان إذا ما غدا كلبا في وفائه لطباعه المشينة فإنه لا يعود في حاجة إلى كلب حراسة، استند على قائمتيه وأطل برأسه يسرة ثم يمنة، كان الظلام حالكا وثقيلا، والمطر يشتد، ولا شيء يعلو فوق هزيمه، وكان ضوء قد أنير بداخل الحظيرة اليسرى التي بها البقرات. فيما كانت بوابة الحظيرة التي فيها الثيران مغلقة لا يظهر إن كانت المصابيح بداخلها منارة أم مطفأة، فكر قليلا فيما ينبغي عليه فعله، وفي لحظة، خرج وركض بسرعة نحو المستودع واختبأ

خلف البوابة، أطل إلى الداخل بحذر، معظم الأبقار نائمة، ولا أحد غيرها في الداخل كما بدا له، إذن مشى نحوها على الأضواء الخافتة التي تصدرها المصابيح القليلة في الأعلى، أخذ قلبه يخفق بقلق، وركبته الوساوس التي يجب أن تركب أي شخص كان ليكون في مكانه، فعندما كانت إحدى الأبقار الواقفة تموء أو تحرك ساقها فتصدر صوتا، كان هو ينظر هناك بشراسة ويدق قلبه أكثر، مشى يفرد ذراعيه يمنة ويسرة، ورأى صبيا صغيرا يخرج من خلف إحدى الأبقار الواقفة، فهم هشام أنه على الأرجح كان يتبول، ثم راقبه وهو يعود إلى مؤخرة الحظيرة دون أن ينظر خلفه، اختفى الطفل بجانب غرفة صغيرة كان هشام يعرفها على أنها كانت مكتب السيد (خوني) عندما كان يأتي إلى الحظيرة من وقت لآخر، اقترب منها ووجد بابها مفتوحا والمصباح مُنار، مشى خارج المستودع ونظر إلى الأرجاء وعاد بسرعة.

دخل الغرفة بحذر، كان كل شيء يبدو مرتبا، فوق سطح المكتب أوراق و حاسوب قد تم تشغيله وتركه، اقترب ليتفقده، لكنه وجد شيئا أنساه أمر الحاسب تماما، لقد رأى خلف المكتب حفرة كبيرة مظلمة تنزل بداخلها درجات إسمنتية لا تظهر نهايتها، فاقترب ووقف يشد بابها المفتوح يطل برأسه لأسفل، بدت عميقة جدا، كأنها بئر مملوءة بماء أسود، حاول أن يتذكرها، لكنه

في النهاية أقسم لنفسه أنها لم تكن موجودة، عاد مجددا وأقر أنه يمكن أن تكون قد وجدت بالفعل ولم يرها في الوقت الذي كان يعمل فيه هنا وكان يتردد من وقت لآخر إلى المكتب، ففي النهاية، الحفرة لا تصنع لكي يراها كل من يمر بجانبها، إلا إذا كانت قبرا، قال في نفسه، هز رأسه بعنف، ثم وفي اللحظة التالية، ودون تفكير زائد، نظر حوله ليتفقد الوضع ثم عاد نحو الحفرة المظلمة ووضع قدمه على أول درجة وراح يغرق بداخلها.

عندما راح جسده يختفي صعودا في الظلام الأسود، كان ثمة رائحة غريبة تنتهي إلى أنفه لم يعرف إلى أي شيء يشبهها، بعد عشر درجات فقط، اختفى ضجيج المطر وحل مكانه هدوء رهيب وصمت لاذع، حينها استطاع أن يلمح ضوءا في الجهة المقابلة، كان يشبه أن غرفة ما تقف على نحو خمسين خطوة وذلك بابها، وعندما راح يقترب منها شيئا فشيئا على أطراف أصابع قدميه وفاردا ذراعيه كالأجنحة، كان يقدر على سماع دقات قلبه وأنفاسه، بينما يضيق عينيه نحو الضوء و تناهى إلى سمعه صوت قطرات ماء تنزل على الأرض بشكل منتظم، بين القطرتين ثلاث ثوان، هكذا حاد عن مساره وقرر أن يتبع الصوت بدل النور بما أنه أعمى، ولم يفاجئه أن شيئا اعترض طريقه بل قام بعد أن كاد يسقط على وجهه وواصل سيره الثقيل إلى

حيث لا يدري، مد يديه أمامه وجعل يتحسس ذلك الشيء الواقف أمامه، في البداية ظنه جسدا بشريا، ظنه كذلك حتى وضع يده على وجه الرجل الميت، كان جسده باردا ومتيبسا وعاريا كصخرة، وكانت قطرات المطر تنزل على جزء رقبته العلوي ثم تنزل إلى ذقنه وتسقط لأسفل عند قدميه على الأرضية الإسمنتية، شد هشام فمه وتراجع إلى الخلف وهو ينظر إلى الجسد العاري برعب بالغ، ذلك أن العين البشرية تعتاد على الرؤية في الظلام بعد خروجها من الضوء و دخولها إياه بنسبة معينة، وقد ساعده الضوء القريب أيضا، عندما كان يعود أدراجه كان قد نسي ذلك الشيء فتعثر به مجددا وهذه المرة سقط على مؤخرته وأوشك أن يصيح بأعلى صوته، كانت ذراعا بشرية أيضا، لرجل آخر ميت وسط أرض الحفرة، تيبس ينظر فزعا، وأنفاسه تختنق. وسط النور هذه المرة، ظهر جسد كبير قاتم اللون يحمل بيده شيئا يشبه الساطور وقد وقف يصيح كثور هائج:

ـ " من هناك؟ أيها الصبي الملعون الوقح.. " وراح يمشي نحو المكان الذي ظن أنه سمع فيه صوتا: " كم مرة أخبرتك ألا تنزل إلى هنا، ألا تتربى أبدا؟ تعال إلى هنا، سأجعلك تشبع من هذا المكان.. "

في الوقت الذي عبر فيه الرجل عن سخطه بقوله كل هذا، ومن شدة خوفه، ظن هشام ـ وبعد أن عرف شخص الرجل الذي يأتي خلفه ـ أنه لا محالة سيفشل في الهروب منه حتى و إن تمكن من أن يركض سبعين ألف خطوة، بيد أنه شعر أن ساقيه ترجعان به إلى الوراء، لم يقدر على تحديد مكان الدرجات التي نزل منها، فقط وحدها حفنة الضوء التي تنزل من الأعلى، من مصباح المكتب كانت تجعله يظن أنه في المسار الصحيح حيث يذهب، لكن أكثر ما أقلقه أن الرجل توقف عن الصياح وبدل ذلك بدأت خطواته تصبح سريعة مسموعة، فهم أنه بدأ بالركض خلفه، وفي غمرة هذا، ولما كان هشام يشعر أن الدم بدأ يتخثر في وجهه، فإن أكثر ما تمناه في تلك اللحظة أن تمسك يداه بحبل قوي يرفعه لأعلى فيفر بجلده في لمح البصر، وبينما يؤمن طفل صغير في الثانية عشر من عمره أن الموت يركض خلفه في هيئة رجل ثقيل الجسد مسلح بساطور مهيأ للذبح، إذ بقدمه تتعثر في أول درجة من درجات السلم ويسقط الدرجات ويصاب وجهه.

نهض متألما وأمسك ساقه المجروحة بصعوبة، ولم يلحظ أن الخطوات الهائجة قد انمحت ضوضاؤها وحل محلها شيء آخر، لقد أخذ الرجل يصيح فجأة ويسب ويلعن كأن شيطانا ركله على ظهره، فإذ به يقف مكانه وسط

الظلام ويروح يضرب في الهواء ويبربر بكلام غير مفهوم نصفه: " ماذا تكون أنت أيها الشيطان.. أيها الملعون.. ما الذي فعلته بوجهي... " ونصفها الآخر لم يستطع الفتى الصغير أن يتبينه.

لم يود هشام أن يأبه لأمر الرجل أكثر من ذلك، إنما وقف وانطلق كالسهم يتسلق الدرجات بقوائمه الأربعة.

ركض بين الأبقار حتى خرج من الحظيرة ووصل إلى مرجر الكلب واختبأ بداخله مرة أخرى، لم يكن لديه الوقت ليفكر في مكان آخر، فالمرجر يقع خارج الحظيرة وحيدا تحت المطر، تماما حيث يفترض أن ينام أي كلب حراسة، لكن أكثر ما عزز ثقة هشام بقراره، أن الرجل قد ظنه أحد العمال الصغار الذين يفترض بهم أن يكونوا نائمين في أفرشتهم في وقت كهذا، وأنه لن يقع في عقل الرجل أن يخرج للبحث عنه في الخارج تحت كل هذا المطر، بين الأفكار التي كانت تتراقص في دماغه الصغير وتفسيراته لما جرى، وما قد يجري، سمع فجأة صوت خشخشات تأتي من مسافة قريبة، في وضع كهذا لم تعد تقدر شجاعته على ضبط دقات قلبه ولا على دحر الهلع الذي أصابه، فانسحب إلى الزاوية وانكمش على نفسه، وجعل ينظر إلى مدخل المرجر بشراسة، بعينين تهتزان خوفا.

والشمس تشرق في الصباح، كانت آخر بقايا سحابة عظيمة تنمحي في عرض السماء الباردة، كأنما لم تمطر بالليل، و إن كان شيء يدل على سقوط المطر فإنما هي حفر المياه على الطرقات و آثار الطين على الأرصفة، انطلق الصغار يغدون إلى الدكانة وقد وضعوا أيديهم في جيوبهم وطأطأوا رؤوسهم صامتين كأنما يساقون إلى محاكمة، كان القلق يعصف بصدورهم الصغيرة، ومن حين لآخر يروح الواحد منهم يركل حجرا أمامه من شدة الندم والقلق، عندما اقتربوا من الدكانة كانت ثمة سيارة تغادر في تلك اللحظة، وقد لاحظ الصغار شيئا غريبا، إذ بدا لهم جميعا _ كما ظنوا _ أنهم رأوا رأس العجوز الهولندي من خلف الزجاج الخلفي للسيارة.

في الدكانة كان العجوز لم يرتب أدوات العمل كما يحب أن يراها، حتى أنه لم يكن موجودا، نظر الصغار و إذ بالمفاتيح ملقاة على الأرض وعلى طاولة العمل وكذا قبعة العمل قد تركت في الزاوية، لكن لم يكن يبدو أن أي شيء قد سرق، وقف الصغار ينظرون إلى بعضهم وقد خاف الواحد منهم أن يسمع رأي صاحبيه في الأمر، لكن حسين نطق في النهاية فقال بقلق:

_ " هل نذهب إلى الشرطة؟ "

وقال حسن:

ـ " رائع يا أخي، فكرة حسنة.. "

ثم عاد حسين يوبخه:

" ليست فكرة حسنة يا أخي الغبي.. بما أنها أعجبتك، صدقني ليست فكرة حسنة.. "

قال (تاز):

ـ " لنخبر مر.. مراد و (تاكفا) "

وهتف حسين:

ـ " رائع يا (تاز)، أنت من يجب أن ننصت إليه في هذه اللحظة، لنقم بغلق الدكانة أولا.. "

ركض الصغار متوجهين إلى المكتبة بأقصى ما قدرت سيقانهم الضعيفة على حملهم، كانت المكتبة تبعد على الدكانة بنحو ربع ساعة مشيا على الأقدام، أو خمس دقائق جريا، لكن كان هنالك شيء لابد من أن يحدث، في هذه القصة. ففي خضم ذلك الركض الحثيث وتطاير الطين من خلف الأقدام الصغيرة، ظهر على الرصيف جيش صغير من الأطفال الغاضبين واعترض طريقهم، تزحلق حسين وكاد يصطدم بهم لولا أن (تاز) شده من قميصه، وحين

عدل وقفته ونظر بصفته أصبح قائد المجموعة في غياب هشام، فإنه رأى خطرا محدقا به وبصاحبيه اللذين تفرقا عن يمينه وشماله.

كان الفتى السمين يتقدم فرقته هو الآخر، وكان خلفه ثلاثة آخرون يجمعون قبضاتهم وينظرون بعيون متقدة، ونطق الفتى السمين يقول بحدة:

_ " هيه، أيتها الفراخ الصغيرة، أين ذلك المتباهي، هل ترككم لوحدكم في مثل هذا اليوم العسير؟ "

ورد حسين بنبرة الواثق من نفسه:

_ " يوم عسير، أجل، لكن على من يا ترى؟ "

_ " هأهأهأهأ.. " قهقه الفتى السمين وهو يمسح تحت أنفه: " سأرى إن كنت ستتحدث هكذا مجددا عندما أضع قبضتي في عينك.. وعدتكم في المرة السابقة أنني لن أجعلكم تفلتون من يدي في المرة المقبلة، ها هي المرة المقبلة.. "

شد حسين من وقفته وتمتم لصاحبيه بكلام يشجعهما، لكن الفتى السمين كان لديه شيء آخر ليقوله قبل أن تبدأ المعركة:

_ " تاز.. " صاح بنظرة ماكرة.

وشد (تاز) نظريه نحوه، و فعل حسن وحسين ذلك أيضا، بانتباه بالغ، لما واصل فريد يقول فرحا:

_ " أحضرت لك شيئا يا صديقي، احزر على ماذا عثرنا؟ "

قال هذا ونظر خلفه، وبعد ثانيتين فقط كان يخرج من خلف السور فتى آخر يجر كلبة بنية اللون خلفه، ومشى بها حتى أوصلها عند قائده ومد له الحبل وتراجع إلى مكانه:

_ " ماذا، ألم تعرفها؟ "

الآن ما كان يحدث في صدر (تاز)، لهو شيء يشبه تماما ما يحدث لقارورة بلاستيكية فارغة عندما تُرفع فوق النار، لقد أحس أن نارا أوقدت في قلبه وصارت تلفعه وتخرقه حتى بات ينكمش على نفسه، بمثل ذلك الألم، ظل يتفرس الكلبة النعسة، كان واضحا أنهم أمسكوا بها عشوائيا في طريقهم وأحضروها معهم.

ركل الفتى السمين الكلبة وعاد يقول ناظرا إليها بإذلال وتذمر:

_ " هيا، اهجمي عليهم، اهجمي، هيا أيتها الحيوانة.. "

ثم رفع عينيه الخبيثتين إلى (تاز) وصار ينظر إليه باحتقار بالغ. هازا كتفيه لأعلى:

ـ " أرأيت.. إنها تعرفت عليها منذ البداية، حنان الأم، ماذا أفعل! "

وأفلت الحبل من يده ووجه لها ركلة عظيمة انطلقت على إثرها تنبح هاربة كأن ذيلها يحترق، والتفت الجيشان بعدها نحو بعضهما، وصارت طبول الحرب تدق تحت صدورهم، واضطرم الإصرار في عيونهم اللامعة، وما هي إلا ثواني، حتى كان فتات الطين يتطاير من فوق أجسادهم المتكورة فوق بعضها، كانت معركة غير متكافئة في العدد، لكن حاجة فريقنا للفوز كانت أشد من حاجة الفريق الآخر، إذ كان مصير هشام والعم يوسف يشع بين أعين أبطالنا مع كل لكمة يوجهونها، أو أخرى يلقفونها، أو مسكة يُمسكونها، أو سقطة يسقطونها، وهكذا مرت دقيقتان منذ التحام الفريقين حتى وصلت سيارة كانت تمر بجانبهم، ونزل صاحبها بخطاه المدروسة، فخورا واثقا، شاعرا بقيمة جيوبه، وصل عندهم وضرب الأرض بعصاه ضربتين فتوقفت الحرب على إثرهما، ونظر الصغار فإذ به السيد (خوني) بشحمه ولحمه، وبدلته الغالية.. واقفا ينظر نظرات صخرية، مثل تمثال نحته رجل يكره نفسه، تفرس

وجوههم المغبرة المضروبة ما شاء أن يتفرسها ثم جمع يديه خلف ظهره وراح يقول بتعال:

ـ " ما الذي يحدث هنا، فريد، أخبرني.. "

وأبعد فريد قبضة (تاز) عن صدره واعتدل واقفا بسرعة:

ـ " سي.. سيدي.. "

ـ " لماذا أصبحت تتحدث بشكل متقطع هكذا، هل شربت من ريقه؟ "

ـ " لا يا سيدي، لم أشرب.. "

ـ " إذن؟ "

ـ " كنا.. "

وتجاهل السيد خادمه ومشى نحو (تاز) وجعل يدقق النظر إليه أكثر:

ـ " ألست أنت الفتى الأبكم؟ "

ولم يتجرأ (تاز) على أن يحاول الرد عليه مخافة ألا يسعفه لسانه فيجعل من نفسه أضحوكة وسط الصغار أقرانه الذي كانوا ينتظرون هذا بعيون لهفة، وكان أن عاد السيد (خوني) يقول بعد أن ذاق ذرعا:

ـ " ما بك ألا تجرب أن تتحدث؟ انتظر، أظنني أعرف ما المشكلة.. "

واقترب منه مادا يده: " لابد أن لسانك التصق.. " وصفعه على وجهه صفعة

خاطفة: " الآن سيكون قد انفلت من مكانه، أخبرني لماذا تتشاجرون هكذا؟ "

وثارت حمية صاحبيه إثر هذا، فاحمر وجه حسن وصاح حسين غاضبا بينما يتخذ وضعية من يوشك أن يهاجم:

_ " لماذا ضربته أيها الوحش الخنزير الحاقد، ابتعد عنه و إلا.. "

في تلك اللحظة، كان (تاز) يرفع نفسه عن الأرض حتى إذا استقام واقفا ثم نظر إلى الرجل بعينين حمراوين تفيضان دمعا، نظر إليه مسلحا بيتمه وضعفه وقلة حيلته، نظر إليه أيضا بكبرياء بالغ، قائلا في نفسه أنا لن أبكي بصوت عال، ستنزل دموعي رغما عني، لكنني لن أصدر صوتا، وهذا ما حدث، فإن (تاز) مسح تحت أنفه وشخر شخرة وتراجع خطوتين حتى وقف مع صاحبيه اللذين كانا يحترقان للانتصار لصاحبهما، لكن يد الرجل كانت من القوة بحيث لو لوح بها، إذن لعصفت بهما كما تعصف الريح بأوراق الشجر، عاد السيد فركب سيارته وصاح في أتباعه أن يذهبوا إلى شأنهم، وهكذا فعل الصغار المعتدين ومشوا يتتابعون خلف قائدهم ناحية السور الذي كانوا قد ظهروا منه أول مرة.

نظر السيد (خوني) إلى الصغار المغلوب على أمرهم نظرة فيها من الشفقة مثل ما يبقى من الطعام في قصعة جلس عليها أشعب، لم يقل شيئا.. إنما جعل زجاج النافذة العاتم يرتفع تلقائيا في وجوههم وغادر بعدها، والتفت التوأم إلى (تاز) يتفقدان وجهه، كان أثر الصفعة لا يزال باقيا على خده الأيسر، فيما أصيب جبينه الأيمن من أثر السقطة، لكن جرحه في النهاية لم يكن جرحا من النوع الذي يهتم اليتيم لأمره لشدة تكراره.

بتلك النفوس المجروحة واصلوا سيرهم نحو المكتبة بعدما نفضوا ملابسهم، وقد كان أصابهم إرهاق وعطش فوقفوا أمام المركز التجاري يطلبون الماء من المقهى، وبينما هم ينتظرون دورهم، إذ بيدين تمسكان بهم من الخلف وتهزهم هزا عنيفا، وضج من أمسكهما كضبع غاضب:

ـ " تعالوا إلى هنا أيها القردة الصغار الملاعين.. "

لوى الصغار أعناقهم ليروا صاحب الصوت فكان بائع الطيور نفسه، والذي كان يملك القرد فيما سبق، قبل أن يسرقوه منه بعد كثير من الترصد، وقفوا الآن أمامه خاضعين لا يقوى أحد منهم على الحركة بسبب التعب الذي أصابهم

_ " أين الحيوان المسكين، هاه.. أين أخذتموه، أم ظننتم أنكم ستفلتون بفعلتكم، أبدا، ستحاسبون عليها مثل الراشدين تماما، هيا بنا الآن إلى الشرطة.. سأعلمكم كيف تسرقون قردا في المرة المقبلة... "

كان والد هشام يجلس في زاوية المقهى يحرق سيجارة، ظل يتأمل الوضع صامتا، إلى حين لوى رأس السيجارة فوق صينية صغيرة على الطاولة وقام فمشى بين الجالسين حتى وصل إلى الرجل فأمسكه من ياقته ورجه رجة عنيفة أفلت على إثرها الصغار من يديه ودفع به إلى الخارج، ثم صاح بائع الطيور وقد كاد يسقط على وجهه:

_ " ما الذي دهاك يا رجل... "

ووقف العم جلال ينظر إليه كبومة:

_ " هل أنت متأكد من أنك تريد أن تعرف؟ "

ورد بائع الطيور مغمغا:

_ " أجل، أريد أن أعرف لماذا تدفعني هكذا، ما شأنك بي؟ "

_ " أنت ما شأنك بالصغار؟ "

_ " هل أنت المسؤول عنهم؟ "

_ " اعتبرني كذلك.. "

ـ " هاه، جيد.. ينبغي أن تدفع لي ثمن القرد الذي سرقوه مني.. "

ـ " الآن؟ "

ـ " أجل! "

ـ " الآن في هذه اللحظة؟ "

ـ " أجل، وليكن.. "

لم يدع العم جلال بائع الطيور ينهي كلامه ويخبره عن ثمن القرد حتى دمغ جبينه بضربة أسقطته أرضا على جانبه كحمامة ميتة، وطفق يحدثه:

ـ " اعذرني، لربما أكون قد دفعت لك أكثر مما ينبغي، لكنني رجل كريم في مثل هذه الأمور عادة، ابحث عني إذا أردت المزيد، ولا تعبث مع الصغار مجددا.. "

قال هذا وذهب لشأنه تاركا إياه يتأوه على الأرض لوحده والناس تضحك عليه من داخل المقهى.

انطلق الصغار مجددا في رحلتهم المتعبة نحو المكتبة، حتى إذا بانت لهم بابها أخيرا وخفت أقدامهم قال حسن يسأله شقيقه:

ـ " هل آلمك الضرب يا أخي؟ "

_ " فريد، ذلك النتن.. أعتقد أنه وسع فمي إلى الحد الذي يسعني أن ألد به طفلا.. "

والتفت إلى (تاز):

_ " وأنت يا (تاز)، هل تأذيت؟ "

وهز (تاز) رأسه نافيا، لكنه وضع يده على وجهه خفية يتحسس أثر الجرح الذي أصابه لما صفعه السيد (خوني) على وجهه وأسقطه أرضا.

هذا، وعندما دخلوا المكتبة مسرعين يفتحونها كما تفتح القلاع وجدوا مراد و(تاكفا) منكبين في التفكير كأن على رأسيهما الطير الجياع، وقفوا يلهثون وقد تخدرت أطرافهم، بملابسهم المتسخة.. ونطق حسين والهلع يملأ صوته:

_ " أخذوا العم يوسف.. أخذوا.. "

وسأل (تاكفا) بنصف ذلك الهلع:

_ " من الذي أخذه، تحدث يا حسين، تحدث، أخبرنا.. "

وأخذ حسن دور أخيه الذي كان لا يقوى على قول شيء من العطش:

_ " لا نعرف، سيارة، لكننا لا نعرف! هشام أيضا لم يعد منذ البارحة.. "

_ " ماذا؟ تحدث ببطء يا حسن، أخبرنا من البداية ما الذي حدث.. "

***

كان من الرائع أن تشتغل السيارة الموبوءة بالصديد من أول مرة، فبينما مراد صاحب السيارة نفسه قد دهش لذلك جدا ونظر إلى (تاكفا) الجالس بجانبه نظرة عجب، فإن الصغار في الخلف كانوا ليس في العالم من هو أكثر حماسة منهم، لأن مغامرة عظيمة كانت تلوح في الأفق، وتفل مراد عن يمينه بينما ينعطف عند شارع ضيق:

_ " حسين.. أخبرني مجددا، لماذا قرر هشام أن يتسلق الشاحنة لوحده؟ "

_ " لكنني لم أخبرك بهذا.. "

_ " أخبرني الآن.. "

_ " لا أعرف، قال فقط ابقوا في أماكنكم ولا تتبعوني.. لكنه لم يعد، وكان يفترض به أن يعود قبل ساعة.."

سأل حسين عند هذا:

_ " كيف نعرف أن تلك الشاحنة تذهب إلى مزرعة السيد (خوني)؟ "

وأجابه شقيقه:

_ " هل يمكن يا ترى، لأن اسمه مكتوب عليها؟ "

_ " آه، فهمت، شكرا يا أخي.. "

_ " على الرحب.. "

مرت فترة صمت. وقال (تاكفا) يستذكر كلام العجوز الهولندي.

_ " أتذكر أنه تحدث عن هذا، عندما اجتمعنا في بيته، قال إن الدور سيأتي عليه أيضا.. "

ورد مراد بعجب.

_ " حقا، قالها.. " .

بعد ربع ساعة نطق مراد يقول مجددا وقد أخذ منه الشرود مأخذه:

_ " يجب أن نصل في الوقت المناسب، لابد أن نصل في الوقت المناسب.. "

ونظر إليه (تاكفا):

_ " لماذا أنت قلق هكذا، هدئ من روعك.. انتبه للطريق.. "

_ " لا أقدر، لا يمكنني أن أهدأ.. العم يوسف! " ورج مراد رأسه بعنف خلف المقود: " الآن باتوا يختطفون الناس في وضح النهار! أي جرأة هذه؟ "

ونطق حسن يقول بتهور:

_ " جاءوا في الصباح الباكر، لم نلتقِ بأي أحد يتجول بالقرب من الدكانة عندما وصلنا.. "

ونظر مراد إليه عبر المرآة فوق رأسه:

_ " كم كانت الساعة؟ "

_ " السابعة، ربما! "

_ " لكنكم تأخرتم، لماذا لم تأتوا على الفور وتخبرونا؟ "

مجددا، هم حسن بأن يجيبه، إلا أن كوع شقيقه الذي انغرس في خصره منعه من ذلك، والذي أجاب بدلا عنه بقوله:

_ " كان علينا أن.. "

لم ينطق حسين بكامل كذبته، ذلك أن أضواء سيارة قادمة نحوهم قد أخذت تومض بشكل متقطع، فوجد أن ينبه مراد لها بدلا من ذلك:

_ " مراد، انظر.. "

وتوقفت السيارتان على مقربة، ونزل من السيارة الغريبة من كان عليه أن ينزل، وأما الصغار الثلاثة الجالسين على المقاعد الخلفية فقد ألصقوا وجوههم بالزجاج وقد امتلأت صدورهم غبطة، ثم في لحظة، لم يقدروا على أن يتمالكوا أنفسهم وراحوا يقفزون إلى الخارج.

كان التعب من أثر الليلة التي قضاها هشام باديا على وجهه وحركاته، وأما القرد فلم يكن أحسن منه حالا، إذ كان يعرج في مشيته، وقد أخذه حسن بين يديه يتفقده فيما اجتمع حسين و(تاز) حول هشام يسألانه عن حاله، وكانت السيارة التي أوصلت هشام قد غادرت لتكمل طريقها، حين وصل مراد و(تاكفا) إليهم:

_ " هشام، هل أنت بخير؟ "

_ " بخير.. "

عاد مراد يسأل وفي وجهه روع قد طفح:

_ " أين كنت هكذا؟ "

وأشار هشام بذراعه ومتوجها بوجهه نحو مكان بعيد خلف الجبل:

_ " المزرعة.. "

_ " هل رأيت العم يوسف؟ "

_ " لا، لم أره.. "

_ " ألم تأتي أي سيارة إلى المزرعة هذا الصباح؟ "

_ " أتت واحدة.. "

_ " من كان بداخلها؟ "

ـ " لم أنظر، كنت مختبئا خلف صخرة، عندما خرجت إلى الطريق لأبحث عمن يوصلني.. رأيتها فاختبأت بسرعة.. "

هذا وعادوا جميعا فركبوا السيارة وانطلقوا مجددا، وأخذ هشام يقص عليهم ما حدث معه، بداية من وصول الشاحنة إلى المزرعة وقفزه فوقها وبقائه هناك مختبئا طوال المساء حتى سقط الظلام ثم نزوله من عليها ودخوله الحظيرة وقيامه بتلك الجولة الخطيرة التي عشناها معه بداخل القبو المظلم، وصولا إلى حيث عاد هاربا واختبأ بداخل مرجر الكلب وظهور القرد في شكل مفاجأة عظيمة لم يتوقعها، هذا بعد أن كان صوت الخشخشات التي أحدثها قبل وصوله قد أرعبته رعبا عظيما انحبست على إثرها الدماء في وجهه لما ظنها تعود إلى الرجل الذي كان يطارده:

ـ " إذن فالقرد قد أنقذك؟ " سأل (تاكفا)

ورد هشام يتأمل القرد وقد أرخى جسمه في حجر (تاز):

ـ " لولاه لما خرجت من هناك أبدا.. نمنا معا بعدها، من الجيد أنها كانت تمطر.. "

ـ " وذلك الرجل، ألم ترَ وجهه؟ "

ـ " لم أره بسبب الظلام .. لكنك تطرح الكثير من الأسئلة، أغلب حديثك أسئلة.. "

أجاب مراد عن صاحبه:

ـ " هذا ما تفعله الشرطة في العمل، ربما لأنه اعتاد على هذا.. "

وأومأ (تاكفا) مبتسما:

ـ " ربما.. "

وقال هشام بعده:

ـ " لنعد إلى العم يوسف، هل اختطفوه حقا! "

وقال حسين يجيبه:

ـ " صحيح يا هشام، رأيناهم بأعيننا.. "

ـ " ماذا رأيتم؟ "

ـ " رأينا سيارة تقف أمام المحل، لكنها غادرت بسرعة.. "

ـ " رأيتم سيارة تقف أمام المحل، تأخذ العم يوسف؟ " قالها هشام لما لم يقتنع بما يسمع.

ـ " آه، ليس هكذا، أنا فقط لم أعرف كيف أخبرك أننا متأكدون من أن العم يوسف كان بداخلها.. "

ـ " يعني لم تجدوه في حانوته؟ "

ـ " لا.. "

ـ " وهل ذهبت إلى بيته، بحثتم في المقهى؟ "

ـ " أبدا.. "

هنا لم ينتبه مراد لنفسه فضغط على المكبح بسرعة فكادت رؤوسهم تضرب الأشياء التي أمامها، وطفق (تاكفا) يتذمر على طريقته:

ـ " ما بك يا مراد، ما الذي جعلك تفعل هذا؟ "

ـ " اعذروني.. " قال مراد والتفت إلى الأطفال خلفه: " إذن فلستم متأكدين من أنه كان بداخلها! "

وارتسم على وجوه الصغار ما يوضح أنهم كذلك فعلا، إذ انكمشوا على أنفسهم وأصبحت نظراتهم مترددة، ولم يجد حسين إلا أن يرمي بالأمر على شقيقه ليخلص نفسه:

ـ " حسن قال إنه رأى رأس العجوز من خلف الزجاج الخلفي للسيارة.. "

وتمتم حسن بصوت ذائب:

ـ " أجل، أظنني رأيته.. "

أغمض مراد عينيه مطولا وعاد فاتكأ على ظهر المقعد متنهدا، فقال (تاكفا) لما رأى منه ذلك:

ـ " مع هذا سنذهب.. "

ونطق هشام من الخلف يقول بعده:

ـ " سأوافق (تاكفا) على هذا، في رأيه , فلنكمل ما بدأناه .. "

وتفاجأ (تاكفا) لكلام الصغير الذي لم يسبق له أن اتفق معه في صغيرة ولا كبيرة، أما مراد فالتفت وقد أخذ رأي هشام اهتمامه، وواصل الصغير يبدي السبب:

ـ " هنالك شيء لم أخبركم به، في القبو وقبل أن ألتقي بالرجل الذي طاردني، لمست وجه رجل ميت، أظن أن يديه كانتا معلقتين لأعلى، أيضا تعثرت قدمي بأحد آخر.. كانت تصدر منهما رائحة عفنة، أظنهما ميتان منذ أيام.. "

لم يكد أحد يصدق ما يسمع، حتى لم ترغب نفوسهم في تصديق ذلك، لكنهم نظروا إليه بذهول ورهبة، ثم لم يجد مراد ـ ودون إهدار المزيد من الوقت ـ بدا من أن ينهض بسيارته وينطلق بهم كالسهم الجارح مخلفا وراءه ذيلين من الأتربة، ثم إنهم وفي خضم الطريق ظهر أمامهم شيء لم يتوقعوا

ظهوره أبدا، لقد كانت تلك الشاحنة تأتي نحوهم من مسافة بعيدة، لكن ونظرا للسرعة التي كانوا يمشون بها فإن المسافة بين المركبتين أخذت تقصر وتصغر بسرعة، وطلب (تاكفا) من الصغار أن يخفضوا رؤوسهم مخافة أن يتعرف من في الشاحنة عليهم وتحدث أمور لا تحمد عقباها، واستطاع (تاكفا) أن يلمح من كان بداخلها، قال بصوت تخنقه الدهشة عندما صار بمقدوره أن يلمح مؤخرتها تبتعد على المرآة الجانبية:

_ " اللعنة، الحكيم جمال، أما الذي كان يقود الشاحنة فلا أعرفه! "

_ " الذي رأيناه في المقبرة، ومتأكد من أنه نفس الشخص الذي كان في القبو ليلة البارحة... " نطق هشام يقول فجأة، ورد عليه مراد بتوتر:

_ " نظرت إذن، ألم أقل لكم أن تخفضوا رؤوسكم.. اسمه (بريكو) على ما يبدو.. "

وقال (تاكفا) بعده:

_ " اخفض السرعة قليلا.. هذا يصب في صالحنا، لنأمل ألا يكون هنالك أحد غيرهم.. "

_ " أرجو هذا.. سنرى عندما نصل.. "

_ " ما الذي يخططون لفعله الآن يا ترى؟ "

ـ " ومن يعرف؟، بما أن ما نعرفه عنهم أنهم يقومون بأمور شيطانية، فلابد أن الشياطين وحدها تعرف ماهي خطوتهم التالية.. "

ـ " اخفض السرعة يا مراد و إلا فلن نصل إلى هناك أبدا.. "

راحت الأرض تنبسط أمامهم شيئا فشيئا.. وظهرت أمامهم بيوت متفرقة وقطع صغيرة من الصوف الأبيض تتحرك وسط الحقول المربعة.. وكان أول ما يظهر من مزرعة السيد (خوني).. سقفي الحظيرتين اللتين يقف تحتها البقر، والمنزل الصغير الذي يقف خلفهما.. وعندما اقتربوا كفاية.. صار بإمكانهم أن يروا أجساما صغيرة تتحرك في الخارج، وقال هشام أنهم الأطفال الذي يقومون على خدمة البقر، ودخل مراد الطريق الترابية وأوقف سيارته على مقربة، وعندما نزل الجميع بعدها، فإن (تاكفا) قال بلهجة الضابط الآمر:

ـ " أنتم امشوا خلفي أنا ومراد، وكونوا حذرين، اتفقنا! "

وهز الصغار رؤوسهم ومضوا خلفهما، وبقي القرد عالقا لوحده بداخل السيارة يراقبهم من خلف الزجاج بكآبة.

كان العمال الصغار بعضهم مشغولين بتنظيف ما تحت البقر وبعضهم الآخر يطعمها، وكان آخرون يقومون بكنس الأرضية على اتساعها، وظهر

طفل يهرول نحوهم من الجهة المقابلة وهو يصيح بصوت مبهم، وإذ به لما اقترب منهم قد وقف ينظر مترددا، وسأله هشام:

_ " ما بك يا خالد ما الأمر؟ "

ورد الطفل مشيرا بذراعه نحو المكان الذي ظهر منه فجأة:

_ " السيد لطفي يهرب، هناك خلف المنزل.. أسرعوا.."

ولم يضيع مراد و(تاكفا) وقتا أكبر من الذي تطلبه الأمر حتى كانا يشقان طريقهما بين الأطفال الذين كانوا يحملون المكانس والمجارف ويتحركون مقنعي رؤوسهم كالدمى وراحا يخرجان من الجهة الأخرى من الحظيرة، وانطلق هشام ورفاقه لينضموا إلى المطاردة، إلا أنهم لم يقدروا على اللحاق بهما، ولم يستغرق مراد وقتا حتى كان يلتف حول المنزل.. وحينها رأى رجلا يوشك أن يحشر نفسه بداخل سيارته، وأسرع (تاكفا) وركل الباب قبل أن يتمكن المحامي لطفي من غلقها فارتدت بعنف حتى كادت تنخلع من مكانها، وأمسك مراد بعنق سترته ونتره إلى الخارج، وعندما وصل (تاكفا) متأخرا وهو يعرج ويصيح في صاحبه فقد وجدهما يتخبطان فوق بعضهما:

_ " ثبته يا مراد، ثبته لا تدعه يتحرك.. "

وهكذا، انقضا عليه معا وثبتا يديه خلف ظهره وهو آخذ في التنفس والشخير والهيجان كخنزير بري غاضب.

لما وصل الصغار لاهثين، كان الرجل جالسا يتكئ على عجلة سيارته فيما مراد و(تاكفا) واقفان على رأسه، والتفت (تاكفا) إليهم قائلا:

ـ " حسين، حسن، ابحثا عن شيء نربط به يديه بسرعة.. "

وسريعا وجد الصغيران أمامهما سلكا يستعمل لربط حزم التبن فناولاه إياه فأخذه وجعل يربط به يدي المحامي:

ـ " سيؤلمك قليلا، لكن لا حل آخر لدينا.. "

ورفع الرجل عينيه الغاضبتين إليهم ومضى يقول في حنق:

ـ " إليكم عني، ما الذي تفعلونه بي هكذا، ألا تعرفون من أنا؟ ... "

وأجابه مراد رابط الجأش بنظر صارمة:

ـ " بطل المدينة، المنقذ الأول، صاحب الحقيبة رفيع المستوى، المحامي ـ لطفي غراز ـ أو لنقل.. المتستر الأول على جرائم الاختطاف التي باتت تحدث في وضح النهار أمام العلن.. "

وزمجر المحامي أكثر هذه المرة:

ـ " انظر إلي جيدا، تحدث بأدب، لا تتحدث بكلام لا يفهم! من تكون أنت لتتهمني بكل هذا، ستندمون كثيرا على ما فعلتموه بمحام قدير مثلي، ستندمون شر الندم.. "

ونقل عينيه بين الصغار واحدا تلو الآخر يتأملهم فكأنما لم يكن قد انتبه لوجودهم قبل ذلك، لكن ولما لم يكن لديهم وقت لإضاعته في محاولة حمل الرجل على الاعتراف بأفعاله فإن مراد التفت حينها إلى الصغار يسألهم:

ـ " هل السيارة نفسها؟ "

وأجاب التوأم بصوت واحد:

ـ " هي نفسها، أجل.. "

وقال (تاكفا) يخاطب الرجل:

ـ " أين هو العجوز الذي أخذتموه صباح اليوم؟ "

كان واضحا من أن مواهب السيد المحامي قد خانته في تلك اللحظة، فهو لم يقدر حتى على نفي الأمر أو اختلاق كذبة يقولها، عكس ما كان يفترض به أن يفعل نظرا لطبيعة عمله، إنما أرخى عينيه وابتلع ريقه وظل ينظر ببلاهة، ثم قال في النهاية بعد أن ظن أنهم لن يتركوه وشأنه:

ـ " أما أنت فأتذكرك.. " قال موجها كلامه إلى (تاكفا): " كنت شرطيا، أليس كذلك؟ "

وأثنى (تاكفا) ركبتيه وقرب وجهه من وجه المحامي:

ـ " الحق أنني أنا من أتذكرك جيدا، ألم تقم بحقني بشيء ما في المستشفى، أو على الأقل حاولت ذلك؟ "

وما إن سمع المحامي كلام (تاكفا) حتى سرت في جسده قشعريرة باردة، واتسعت عيناه وظهر حلقه وهو يتحرك كأنما تنزل فيه حبة لوز كبيرة، ولم يمهله (تاكفا) أن يتناول صدمته إذ عاد على الأثر فقال له:

ـ " ما كان ذلك الشيء، ها؟ هل هو مادة تجعل الروح تطلع مباشرة، أم تجعلها تخرج لتقوم بجولة في الخارج لوقت معين ثم تعود إلى جسدها؟ "

وكان رد فعل المحامي وهو يسمع كلام (تاكفا) في هذه المرة أيضا، أنه أغمض عينيه بقوة وزم شفتيه فيما يدل على أنه يتأسف على شيء ما:

ـ " قل، هل أخطأت الجرعة؟ "

ـ " للأسف، أجل.. "

واعتدل (تاكفا) واقفا:

ـ " حاولتم قتلي إذن! "

ـ " يا لشدة غبائي.. " قالها المحامي وهو يطوي عنقه نحو كتفه وبصوت خافت لا يسمع.

ـ " لا تجري الأمور كما يراد لها دوما حتى أنا عندما أردت أن أقوم بعملي وأعود إلى بيتي، وجدت نفسي فجأة أهوي من ارتفاع ثلاثة طوابق لازلت أتخيل الأمر يوميا، لم تكتفوا بهذا، بل جئتم إلي وأنا في حالة يرثى لها.. في غيبوبة.. وحاولتم إنهاء الأمر تماما! أيها ال.. "

أسرع مراد فأمسك (تاكفا) وأبعده عن المحامي، لكن قطرات الدم ظلت تسقط بين قدميه بعدما تلقى ركلة قوية على فمه، لم يتمالك (تاكفا) أعصابه إلا بصعوبة، وحين فعل ذلك فإنه كان يقف على بعد عشرة أمتار كاملة، أما مراد فعاد نحو المحامي وسأله عن وجهة صاحبيه اللذين غادرا بالشاحنة، فقال المحامي مطأطئ الرأس منكسا يحرك فكه بصعوبة:

ـ " إلى المدينة.. "

ـ " أعرف أنهما ذاهبان إلى المدينة، أسألك ما الذي ينويان فعله؟ "

وما نبس المحامي بكلمة.

ـ " متى سيعودان إذن؟ "

ـ " لم يخبراني.. "

ونطق حسن يقول من حيث لم يدري أحد:

ـ " هل أركله يا سيد مراد؟ "

ـ " قف مكانك يا حسن، ارجع إلى الوراء، هيا.. " صاح مراد في الصبي ثم انحنى نحو الرجل وأمسك ياقته بقوة: " اقسم، إن لم تتحدث فلن أمنع صاحبي عنك هذه المرة.. " قالها مراد وقد تأجج الغضب في صدره وبان الشرر في عينيه ناصعا: " قم الآن، هيا.. "

ووقف المحامي بصعوبة ومشى أمامهم، وعاد مراد يسأل:

ـ " أين قلت إنك وجدت ذلك القبو يا هشام؟ "

هنا ارتعدت مفاصل المحامي وصار ينظر كثعلبة، حتى لقد نزل كتفاه اللذان كان ينفخهما أينما حل وارتحل وجعل يمشي أمامهم مذللا مخذولا.

ورد هشام على سؤال (تاكفا):

ـ " هناك في الداخل.. "

ـ " أنتم ابقوا هنا، حسين وحسن ابقوا هنا، وأنت يا (تاز) اذهب إلى الجهة الأخرى، و إن رأيت أي شيء يتحرك نحونا فأسرع وأخبرنا.. "

وهكذا تفرق الصغار الثلاثة إلى أماكنهم وجاء (تاكفا)، وأخذوا الرجل من عنقه إلى غرفة مكتب السيد (خوني) وأمروه بأن يفتح الغطاء الذي يغطي الحفرة وقد كانوا أغلقوه بقفل قوي جدا.

_ " في الجيب الأيسر.. " قال المحامي.

ودس مراد يده في جيبه فأخرج حفنة مفاتيح وفتح القفل ورماه إلى الزاوية، ونظروا إليها فكانت كما وصفها هشام تماما، لا تشبه شيئا أكثر مما تشبه بئرا مملوءة بماء أسود.

_ " كيف تنيرون المكان في العادة؟ " قال مراد بحدة، ورد المحامي:

_ " تحت المكتب، ضع يدك تحته زر صغير.. "

فجأة، اشتعل المكان وبانت درجات السلم المؤدية لأسفل، جعلوا المحامي يتقدمهم ونزلوا خلفه في ترقب وحذر.

كان مراد و(تاكفا) يتوقعان أن يريا جثتين إحداهما معلقة من ذراعيها والأخرى مطروحة على الأرض كما أخبرهم هشام قبلا، لكن حتى هشام قد ذهل لعدم وجود أي منهما، وذهب يتأمل المكان حوله بفمٍ فاغر، كان المكان ليس إلا حفرة واسعة جدرانها عبارة عن تراب مدعم بعوارض خشبية وأرضها من الإسمنت وفي كل ناحية توجد سلاسل تهبط من عوارض معلقة على

السقف وتنزل في الهواء حيث يمكن تعليق أي شخص من يديه ليبقى واقفا، هكذا كانت الحفرة بسيطة تصعد من وسطها درجات السلم نحو الأعلى لتؤدي إلى الخارج، فارغة أرضيتها إلا من كومة ملابس رثة تم تجميعها بإهمال في الزاوية.. يبقى أن أهم شيء فيها كان الباب التي يقف في مواجهتهم، والذي كان هشام قد رأى (بريكو) يخرج منه قبل أن يقوم بمطاردته.

التفت مراد إلى المحامي:

_ " ألم يكن يوجد شخصان ميتان هنا، أين هما الآن؟ "

ورد المحامي بعجرفة:

_ " وهل هنا مقبرة؟! "

أخذ (تاكفا) نفسا عميقا حتى يتمالك نفسه ثم مشى إلى الباب القائمة وسط الجدار أمامهم وجعل يعبث بقفله، وأثار اهتمامه أنه لم يكن بابا خشبيا بسيطا بحيث يناسب المكان، بل تم وضع بابا صلبا من الألمنيوم ذا طراز حديث وقفل متين يستحيل فتحه دونما الأداة المناسبة، تراجع للخلف خطوتين وقال يخاطب الرجل المكبلتين يداه خلف ظهره:

_ " ماذا يوجد خلف الباب؟ "

لم ينطق المحامي، فتقدم مراد نحو الباب بدوره وأخذ يشد مقبضه بقوة:

ـ " حتما، كل شيء خلفه، تبدو كباب لإحدى المخابر السرية الأمريكية! هشام، المفاتيح عندك أليس كذلك، هاتها.. "

وأخذها من يده ورفعها في وجه المحامي:

ـ " أيها يكون مفتاح هذه الباب؟ "

ـ " لا أملك مفتاحه.. "

ـ " سأتأكد بنفسي " قال مراد وانهمك في تجريب المفاتيح واحدا بعد الآخر إلى أن انتهى منها جميعها ثم ألقى بها عند قدميه وعاد نحو الرجل فوضع يده خلف عنقه وقال ناظرا في عينيه مباشرة:

ـ " اكذب قدر ما تقدر، اكذب، في الأصل هذا ما أنت في حاجة إليه في هذه اللحظة.. " تركه وشأنه والتفت إلى صاحبه: " لنعد إلى الخارج الآن ونفكر فيما ينبغي لنا فعله.. "

و وافقه (تاكفا)، ودفعا الرجل أمامهما صاعدا درجات السلم حتى بانت جبهته المفلطحة عند المكتب، فأعادوا غلق الحفرة ببابها الصغيرة وأجلسوه على الكرسي وتركوه لوحده.

كان هنالك طفل يمر بجانبهم يأخذ دلوا فارغا إلى مكان ما فناداه (تاكفا) ليأتي عنده:

_ " ما اسمك؟ "

_ " حسام.. "

_ " منذ متى وأنت تعمل هنا؟ "

_ " أربعة أشهر.. " كان الطفل يتحدث بفخر، وهو يحمل الدلو بكلتَي يديه كما حملت ذات الرداء الأحمر سلة الحلوى إلى جدتها.

وتريث (تاكفا) قليلا:

_ " كم شخصا يعمل هنا، أعني كم يوجد من شخص كبير يتجول هنا في المزرعة؟ "

وفكر الطفل للحظة:

_ " السيد (بريكو) وهو يبقى في ذلك المنزل _ أشار بيده إلى المنزل الريفي الوحيد القابع خلف الحظيرة _ في هذه الأيام أصبح صديقاه يأتيان إلى هنا بكثرة.. "

_ " السيد (خوني) ألا يأتي؟ "

_ " ليس كثيرا، ربما مرة في الشهر فقط، لكنه يبقى ساعة واحدة ثم يذهب بعدها.. كل الأعمال تركها إلى السيد (بريكو)، هو من يتكفل بكل شيء هنا.. "

_ " ها، هل تعرف إلى أين ذهب السيد (بريكو) قبل نصف ساعة؟ "

_ " سيحضر ثورا جديدا، أخبرنا أنه سيغيب حتى المساء، وأن نهتم بالأبقار جيدا.. "

نظر الصاحبان إلى بعضهما نظرات ذات معنى، ثم قال (تاكفا) لمراد وهشام:

_ " إليكما ما سنفعله.. هشام، أليس لديك صديق هنا، ذلك الذي حذرنا قبل هروب المحامي، اذهب واسأله وتأكد مما أخبرنا به هذا الصبي، بعدها سيبقى أحدنا، أنا أو أنت يا مراد، هنا لمراقبة المحامي، و سنقوم بتفتيش المنزل لربما نجد شيئا ذا أهمية، فيما يواصل (تاز) والتوأم القيام بالمراقبة، كما قلت، سنفتش المنزل ريثما نفكر فيما سنفعله قبل أن يعودا.. "

قال مراد:

_ " اذهبا أنتما، و أنا سأبقى.. "

_ " ليكن، إذا حاول الهرب فلا تتساهل معه، اضربه حتى يفقد وعيه.. تعرف كيف تفعلها أليس كذلك؟ "

_ " على الرقبة، من الخلف هكذا.. " ومثل مراد الأمر بيده.

_ " جيد، الآن هيا بنا.. "

كان الوقت يشير إلى الثانية عشرة، وكان الأطفال يتركون العمل ويذهبون لتناول الغداء حينها، عندها عاد هشام من عند صاحبه:

_ " صحيح كل ما قاله.. "

_ " جيد، حسنا لندخل.. " وركل (تاكفا) الباب بقوة فتكسر القفل وانخلعت من مكانها، دخلا وظلا يفتشان المنزل قرابة الساعة ولم يتركا شيئا يمكن تحريكه إلا وحركاه من مكانه، ولا درجا يمكن فتحه إلا وبحثا بداخله، لكنهما لم يعثرا على شيء يذكر، في النهاية، كان المنزل بمجمله مثالا عن منزل الرجل العازب، فناهيك عن الأثاث القليل بداخله فإنك تكاد أن لا تجد به شيئا يؤكل، لكن كانت هنالك قنينة ماء في المطبخ وكأس نظيف بجانبها، استعملاهما ليرويا عطشهما وخرجا بعدها بخفي حنين.

وقفا بجانب سور الحظيرة ينظران إلى المكان في حيرة، قال (تاكفا) وهو يحك أذنه ذاهبا:

_ " سأرى مراد.. "

انقلبت ساعة أخرى، وشعر المحامي بجوع شديد غنت عليه بطنه، التفت إليه (تاكفا) وكان يسند رجله على الجدار:

_ " هل أنت جائع؟ "

_ " لماذا، هل ستطعمني بيدك؟ "

_ " لا يمكنك تخيل مدى رغبتي في فعل هذا.. "

وسكت المحامي ولم ينطق إذ فهم مقصد (تاكفا)، ثم قال بعد دقيقتين:

_ " جلبتم المشاكل لأنفسكم ليس إلا.. "

_ " هل ترى هذا؟ "

_ " أجل، وأرى نهايتكم أيضا.. "

_ " وكيف ستكون برأيك، سيئة أليس كذلك؟ "

هز المحامي رأسه لأسفل وأعلى ببطء وهو ينظر إليه بخبث، كان مراد يستمع إليهما نعسا، لكن دخول هشام بتلك الطريقة أيقظه بالكامل، وهد راحته.. لما اندفع يقول بضراوة:

_ " أليس هذا.. "

ونظر المحامي إلى يده فكادت عيناه تنطلقان من مكانيهما، قال مراد وهو يأخذ عن هشام المفتاح الصغير ذا اللون الفضي:

_ " أرني، أين وجدته؟ "

_ " في السيارة، فتشتها ووجدت حقيبته، كان بداخلها.. "

وضرب مراد جبينه بيده الأخرى، نظر إلى صاحبه:

_ " كيف فاتنا هذا، لم نبحث في السيارة!! "

ورد (تاكفا) وهو يأخذ المحامي من كوعه:

_ " صح، أين قد يخبئ المحامي أهم مفتاح يملكه إن لم يخبئه في الحقيبة.. انزلا أنتما وجرباه ثم سأنزل بعدكما إذا صدق الأمر.. "

نزل مراد وهشام وغاصا في الحفرة، وبقي (تاكفا) مع المحامي مثبتا إياه من إبطه أمام الفتحة، وجاءه صوت من الأسفل بعد نصف دقيقة.

كانت نظرات الذهول في أعينهم لما فتحوا الباب ورأوا ما خلفه شديدة جدا، حتى لقد وقفوا يحدقون بأذرع مرتخية، فيما يرونه.. كان الباب يؤدي إلى رواق أبيض نظيف محصور بين صفين من الغرف ذات الأبواب الزرقاء الناصعة..

وإن المكان كان يشبه المختبر السري أكثر من أي شيء آخر، وبينما يتقدمون في الرواق قال مراد ذاهلا يبتلع ريقه:

" هل هذا.. مختبر؟ "

_ أجل.. هو كذلك.. " كان الواحد منا ليجيبه.

راحوا يتقدمون تباعا، مراد ثم المحامي يليه (تاكفا) وبعده مباشرة هشام الذي كان يتوقف عند بعض الغرف _ التي احتوت نوافذ يمكن الرؤية من خلالها _ على أطراف أصابع قدميه يحاول أن يرى تلك المعدات الغريبة التي تقبع خلف المربعات الزجاجية، وتوقف بهم مراد عند إحداها وجرب أن يدير مقبض بابها.

ووجدوا أنها عبارة عن مختبر حقيقي لم يخلو من أي أداة قد يحتاجها مخبري متمرس، من أدوات لتجربة المستحضرات وآلات القطع الحادة والمنظار المجهري، رفع (تاكفا) قنينة زجاجية كان بها أشلاء بيضاء تتطاير وسط سائل أصفر شفاف ونظر إليها مشمئزا من منظرها و أعادها إلى مكانها، و في الزاوية الأخرى من الغرفة كان مراد يتفقد أشكالا من الزجاج على شكل لوالب وخطوط ومكعبات وكرات متشابكة تقبع بداخلها سوائل ملونة،

ثم جمعهما صندوق زجاجي صغير موضوع فوق طاولة منفردة وجعلا ينظران إلى عينات غريبة تشبه الديدان الميتة بداخله، كانت رائحة المكان تشبه رائحة الكبريت إلى حد بعيد ، وقد أغلق هشام أنفه بينما أخذ يراقب حركات المحامي بعد أن أوصاه (تاكفا) بذلك، وإنهم لو التفت أحدهم إليه _ إلى المحامي _ وسأله عن رأيه في الأمر إذن لأخبرهم أنهم يحسنون صنعا بمواصلة العبث في المكان هكذا، ذلك أن تلك الرائحة لم تكن شيئا يستحسن الوقوف بقربها أبدا، وإن الحكيم جمال نفسه لم يكن ليجرؤ على دخول الغرفة دون أن يعد العدة لذلك من قناع التنفس وبدلة الوقاية، ولهذا فإن المحامي كان لا يخطط أبدا لمحاولة تحذيرهم، إنما سعادته كل سعادته كانت في أن يسقط إلى جانبهم _ في أي لحظة _ مغشيا عليهم حتى يعود صاحباه من سفرتهما وينقذاه من أيديهم، لكن ولأن المياه تقطر من حيث دقت المسامير فإن صوتا غريبا أخذ ينسكب من باب إحدى الغرف المغلقة تماما قد جرهم إلى الخارج بسرعة حال دون إصابتهم بالدوار ثم اختناقهم وسقوطهم أرضا كما كان المحامي يأمل، (تاكفا) آخر من خرج من الغرفة وأغلق الباب خلفه، وأخذ يسوق المحامي أمامه حتى وصل به إلى مصدر

الصوت الذي أتى ضعيفا يسكنه الوهن، شد مراد مقبض الباب فكان صلدا لا يتحرك:

_ " هل لديك المفتاح؟ "

"التزم المحامي الصمت"

التفت مراد إلى هشام وطلب منه أن يحضر حزمة المفاتيح التي كان قد ألقى بها عند المدخل سابقا، وسريعا عاد بها هشام وسلمها له:

_ " أيها هو؟ "

نظر المحامي إلى الحزمة في يد مراد:

_ " لا أعرف.. "

دفعه مراد عن طريقه:

" ابتعد.." وأسرع يجربها، ولم يدخل غير اثنين حتى تكشف الأمر في الثالث وانفتح الباب فقام بدفعها إلى الداخل.

إذا كنا قد رأينا _ في مكان ما _ غرف المجانين البيضاء التي تصنع بحيث يستحيل على المجنون أن يجرح نفسه بداخلها _ إلا إذا واتته فكرة أن يفعلها بأسنانه _ فستكون هذه مشابهة لها بقدر كبير جدا، لأنه إذا كان هذا المخلوق الشبه عار و البائس المسكين الذي ظل يئن حتى هذه اللحظة، إذا كان هذا

المخلوق مطروحا بتلك الطريقة التي تشبه نومة الدودة، إذ يجمع ركبتيه إلى وجهه، فليس لأنه ضرب رأسه إلى الجدار اليابس فآلمه، فلم يكن هنالك من جدار بمواصفات كهذه، بل حزم من الصفائح الناعمة تحوط كل الفراغ في الغرفة ومن جهاتها الستة، لم ينظر إليهم ولا رابه وجودهم إلا بقدر ما يروبه دخول الهواء من فتحة التهوية، أو شدة النور التي كانت ترشح بها مصابيح الرواق والتي لم يكن يصل إليه من نورها شيئا، فالظلام كان لحافه الدائم، فلم يكن ثمة في الغرفة جهاز يمكن أن يصدر نورا، في الأصل لم يكن في الغرفة سواه وسرواله القصير الذي يلبسه.

هكذا ابتلع (تاكفا) ريقه متوترا وأخذ يقترب منه على مهل، لمسه على ذراعه، ولم يتحرك، خاطبه مراد بصوت خافت:

_" (تاكفا)، بحذر.. ".

كان المسكين يرقد إلى الجهة الأخرى، فكرر (تاكفا) فعلته، وفي هذه المرة سكت أنينه والتفت برأسه نحوهم، ومن خلال الضوء الذي تسلل من الرواق إلى الغرفة، كان بمقدورهم أن يروا وجهه بالقدر الذي جعلهم يفزعون للوهلة الأولى، فعينا الرجل كانتا حمراوان بشكل غريب وشعره طويل وفمه متيبس كأنما تمت خياطته منذ أشهر، قام المخلوق البائس على قائمتيه

بصعوبة.. تراجع معه الجماعة إلى الخلف حذرا فأخذ يحك جلد بطنه ويخرشه بعصبية، وتمتم كلاما لا يفهم، ثم ودون أن يعيرهم اهتماما، عاد فانطوى على نفسه ونام كما كان قبلا وهو يقول كلاما بينه وبين نفسه.

خرجوا من غرفته بعد أن أيقنوا أن مصيره في أحسن الأحوال سيكون إلى أرصفة الشوارع، وأخذوا يفتحون المزيد من الغرف، فلم تكن جميعها مغلقة، وكانوا في كل غرفة يفتحونها، كانوا يجدون رجلا أو اثنين يرقدون بمثل تلك الرقدة أو مطروحين على أسرة بيضاء بعيون مغمضة وأذرع مرخية تملؤهما آثار غرزات الإبر وتغطيها الضمادات الطبية.

في آخر الرواق على جهة اليسار كان ثمة غرفة أخيرة لم يفتحوها، وكان أمر العجوز الهولندي لم يغب عن فكرهم حتى تلك اللحظة، فتوقعوا أن يجدوه بداخلها، وكانت غرفة منارة ومجهزة بشكل كامل لإجراء أعقد العمليات الجراحية، حتى أن السرير في وسطها لم يكن خاليا، لقد وجدوا العجوز راقدا عليه بغير حركة، وجهاز التنفس على وجهه، لكن بطنه كانت لا تزال تتحرك، وفهموا أنه إنما تم تخديره لأجل أن يكون جاهزا لما سيُفعل به لاحقا، وأسرع الرجلان يحملانه عن السرير ويأخذانه إلى الخارج.

أجلساه على أرض القبو وجعلا ظهره إلى الحائط وأخذا يصبان الماء على رأسه ويضربانه على وجهه، إلا أنه كان لا يقدر على تحريك جفن عينه، ناهيك عن أن يتحدث إليهما، حتى إذا يئسا من أمره تعاونا عليه وحملاه بينهما وراحا يصعدان به درجات السلم، كان المحامي قد ربط وترك في إحدى تلك الغرف قبل أن يتم غلقها عليه ليبقى مكتوف الأيدي وسط الظلام لوحده، قال (تاكفا) يسأل هشام بينما يحمل العجوز من ساقيه فيما تولى مراد أمر المقدمة، قال يسأله:

_ " هل تحسن القيادة؟ "

_ " أجل.. "

_ " ينبغي أن نعيده إلى المدينة، يجب أن يدخل المشفى حالا.. "

ورد هشام وفي نبرته ما يوحي أنه لن يتراجع عن رأيه:

_ " أنا لن أذهب، سأبقى هنا، حسين أيضا يعرف كيف يسوقها، اطلب منه هذا.. "

_ " حسنا، ليكن.. " رد (تاكفا) دون معاندة، ثم توجهوا بالعجوز الهولندي إلى سيارة مراد وأرقدوه على المقاعد الخلفية، ووصل حسين في تلك اللحظة، وخاطبه (تاكفا) و هو يقول والعرق يتصبب من جبينه:

_ " هل تعرف ما الذي عليك فعله؟ "

_ " أعرف، أعرف دعوني أتولى هذا.. " و التقط المفتاح من يد مراد ووثب خلف المقود وقال و هو يشغل السيارة: " هل أخبر الشرطة؟ "

_: " لا تفعل، لا تخبرهم، انظر إلي جيدا.. اذهب به إلى المستشفى مباشرة، اسألهم أولا إن كان الحكيم جمال هناك أم لا، نعرف أنه أخذ عطلة، لكن لا شيء يمنعه من العودة إلى هناك، إن لم تجده فبها ونعمت، و إن وجدته هناك فخذ العم يوسف إلى منزل حياة، تعرف أين تسكن، أليس كذلك؟ ستتكفل به هي ووالدها.. "

_ " أعرف أين يقع منزلها.. "

_ " رائع، الآن اسمعني مرة أخرى، طلبت منك أن لا تخبر الشرطة، لا تفعل هذا حتى منتصف الليل، إن لم نعد حينها فاذهب وأخبرهم، اتفقنا؟ "

_ " اتفقنا.. "

ضرب مراد مؤخرة سيارته بينما ينطلق بها حسين، وقال بعد أن اطمأن لقيادته:

_ " فقط آمل ألا تتعطل به في منتصف الطريق و إلا.. "

نظر (تاكفا) خلفه وقال بدهشة:

_ " انظرا.. "

ونظر مراد وهشام فوجدا القرد يقف على قوائمه الأربعة وقد انتصب ذيله لأعلى يراقب السيارة وهي تغيب في الطريق الملتوية كأن أمرها يهمه تماما مثلهم، بمثل تلك النظرة التي إذا رآها المرء كاد يؤمن أن القرد يعرف جيدا ما الذي يوجد بداخل تلك السيارة، والتقطه هشام بين ذراعيه فيما أردف (تاكفا):

_ " نزلنا من السيارة ولم ننتبه لأمره أبدا.. "

_ " أيها المشاغب الصغير، وأنت أيضا تريد البقاء هنا! " قال هشام، وقد جعلهما كلامه هذا يبتسمان في النهاية لأنه لم يعتد على قول كلام لطيف كهذا أمامهما، خاصة وأنه قاله أول مرة لقرد لا يفهم، أما هشام فعاد يسبقهما وهو يحك رأس القرد الذي أنقذه من براثن ذلك الغول البشري في ظلام الليلة الماضية.

مع حلول وقت الظهيرة راح الصغار يعودون إلى مراكز عملهم بعد أن ملؤوا بطونهم.. كان (تاز) وحسن كل في موقعه يقومان بالمراقبة، وكان تاكفا قد شعر بالملل فنزل إلى القبو لوحده، وهناك أخذ يتجول بين الغرف يتفقدها، وناداه المحامي لطفي من خلال زنزانته عندما سمع وقع خطواته في الرواق،

ولم يكلمه (تاكفا)، بل دخل المختبر وأخذ يتأمل المكان شاردا، وقادته عيناه إلى مكتب صغير يقبع في الزاوية، لم يكن قد وضع أي شيء فوقه إلا أن نفس (تاكفا) حدثته أن يفتح الدرج ويرى ما بداخله، وقد كان محقا في ظنه، وجد رزمة من الملفات المكدسة فوق بعضها فأخذ واحدا منها وجعل يتفحص الأوراق بداخله.. بينما تتوسع عيناه شيئا فشيئا.

في الأعلى، كان مراد وهشام يجلسان حول المكتب يفكران بصمت مطبق، عندما ظهر (تاكفا) من فتحة القبو يصعد حاملا الملفات بين يديه ووضعها أمامهما، فقال مراد يسأل:

_ " ما هذا؟ "

_ " ملفات الضحايا، انظر.. " قال (تاكفا) وبعثرها فوق سطح المكتب، وانهمكوا في تقليبها وفتحها.

_ " هشام، ما بك؟ "

سأله مراد لما رأى الغرابة فيما يفعل، وإنه لو كان يجوز أن يُطرح السؤال مرتين إذن لسأله (تاكفا) أيضا، لشدة الحيرة التي أصابتهما حين نظرا إليه فوجداه يقلب الأوراق تماما كمن يعرف عما يبحث، كان يرمي بالتي يبحث فيها على الأرض ثم يعود فيفتح ملفا آخر ويفعل به مثل الأول، وكرر مراد

سؤاله، ومجددا لم يجب هشام إذ بدا أنه لم يعد يسمع أو يشعر بما يحدث حوله، فكان أن أمسكه (تاكفا) من معصميه وثبته ونظر في عينيه مباشرة.

_ " ما الذي يحدث معك، لماذا ترمي الأوراق هكذا؟ اهدأ.. "

وصاح هشام وهو يفلت معصميه:

_" دعني.. " وعاد يبحث كما كان قبلا، وكانت الأرض _ عندما توقف أخيرا _ قد امتلأت بالأوراق وصور الناس الذين تم اختطافهم، وجمد هشام مكانه أخيرا لما أمسك بورقة طائشة رآها فجأة، أخذ ينظر إليها بيدين مرتعشتين وعينين تنظران ببلق، و بخوف أيضا، وبتوقع، وبكل شيء لا ينبئ بخير، تحرك (تاكفا) حتى وقف خلف الصبي ونظر بنفسه.

أخذ هشام المفاتيح من فوق المكتب ونزل بسرعة إلى القبو دون أن ينطق كلمة واحد،

وعندما استلم مراد الصورة من يد (تاكفا) وأخذ ينظر إليها، فإنه فهم الأمر بسرعة، ولذلك فقد أحس أن قطعا حدث في نياط قلبه، وراح القلق يتدفق إلى مقدمة رأسه بغزارة، بل ظل ينظر داهشا بفمٍ فاغر، ثم نظر إلى (تاكفا) نظرة جعلته يقول كل شيء حتى دون أن يتكلم.

كان هشام يحبس دموعه وهو يركض بداخل القبو متوجها صوب الرواق مباشرة، أخذت شفتاه ترتعشان أيضا، وفي داخل صدره كان يحس كطفل يتيم يرى لصا وهو يركل وجه والدته التي ماتت منذ ساعة، لقد سرقوا منه والدته، كان يحس كذلك أو أكثر، في خضم هذا، صاح (تاكفا) إذ لم يكن يقدر على الركض بمثل السرعة التي انطلق مراد بها.

_ " المحامي، أسرع يا مراد، أسرع، أسرع.. سيقتله، أمسكه ولا تدعه يفعل شيئا.. "

عندما دخل هشام الرواق هائجا، نظر أول ما نظر إلى المخبر على يمينه، أخذ سكين جراحة وعاد به نحو الغرفة التي يفترض أن المحامي محبوس بداخلها، لكن مراد كان يصل في تلك اللحظة، فأمسكه عند الباب ومنعه من فتحها، وصاح هشام بغضب:

_ " دعني، دعني يا مراد.. "

_ " اهدأ.. "

_ " قلت لك دعني، تبا لك اتركني.. سأقتله، أقسم أني سأقتله، دعني.. "

_ " لن أسمح لك بفتحها، أنت لا تعرف ما الذي تفعله.. "

_ " ابتعد، اتركني وشأني.. "

وإن هشام حتى وإن كان قالها والدمع يطفر من عينيه، إلا أن مراد أخذ جرأته وقام بصفعه، بالنسبة إلى هشام، أما بالنسبة إليه قد كانت أي شيء إلا أن تكون صفعة، فلم يشعر بأي ألم، بل كان كمن ألقي كأس ماء بارد على وجهه، فهدأ وتسمر في مكانه وصار ينظر في عيني مراد كأنه لا يعرفه، سقط السكين من يده وتردد صداه على طول الرواق البارد، ووصل (تاكفا)، فوجد مراد يعانق الفتى يضمه إلى صدره.

مع حلول الرابعة مساءً، كان قد مضى وقت طويل منذ ذهب هشام إلى صخرة بعيدة وجلس عليها وحيدا، فيما ظل مراد يخرج من وقت لآخر ليلقي عليه نظرة، قبل أن يعود إلى القبو مجددا، ففي الأسفل كان إلى جانب (تاكفا) قد أخرجا المحامي من سجنه وأخذاه إلى غرفة المختبر وقيدا أطرافه الأربعة إلى كرسي وجعلا يعيدان التحقيق معه مجددا، وهذه المرة قررا أن يستعملا سياسة مختلفة، لقد قررا أنه لم يعد هنالك من داع للأدب، لا وجود لحسن الضيافة، حتى أن شفته السفلى كانت تنزف في هذه اللحظة، عندما تفل الدم عن يساره وعاد ينظر بوجه متوعد:

_ " لا أعلم. عما.. تتحدث... "

_ " ما الذي فعلتموه بوالدة الفتى؟ " كرر (تاكفا) سؤاله.

_ " قلت لك.. لاااا أعلم.. " وكرر المحامي جوابه.

دخل مراد الغرفة، فقال (تاكفا) محبطا:

_ " الآن يكفي هذا.. " وأخذ يلتفت حوله كأنما يبحث عن شيء ما.

_ " عن ماذا تبحث؟ "

_ " سلك تمديد! "

_ " هناك، خلف المكتب، أظنني رأيت واحدا.."

خلال دقيقة واحدة، أخذ (تاكفا) السلك فوضعه تحت حذائه وسحبه لأعلى بقوة حتى انسل المقبس لوحده فأدخل أحد طرفي السلك في المأخذ ووضع الأخر عند قدمي المحامي، والذي لما رأى ما يحدث حوله وما هو سائر إليه فإنه ابتلع دمه حتى دون أن ينتبه، نظر عند قدميه العاريتين وبدأ يرتجف وبان عليه الهلع بشكل واضح فأخذ ينظر حوله ويتباكى.

_ " ما الذي تفعلانه أيها المجنونان التعيسان؟ "

_ " ما يجب أن نفعله.. " قال (تاكفا) ببرود وأثنى ركبتيه أمام المحامي بينما يمسك طرف السلك في يده:

_ " ما الذي.. فعلتموه.. بتلك المرأة؟ "

ـ " انتظر، انتظر.. أرجوك لا تفعل، أتوسل إليك، لا تفعل، سيقتلني إن أخبررر..رر.. " وبرقت عيناه في الأعلى، ومازال جسده يهتز كأن شيطانا يلبسه، لأربعة ثوان كاملة، حتى رفع (تاكفا) السلك عن قدمه.

ـ " فكر كيف ستنجو من هذا أولا، بعدها فكر إن كان سيقتلك.. "

لهث المحامي طويلا وسال عرق جبينه، ثم بان له أن يتحدث أخيرا، وأصغى مراد و(تاكفا) السمع لما يقوله:

ـ " اختيرت عشوائيا.. "

ـ " لماذا؟ " صاح (تاكفا) بغضب.

ـ " لتحل محل.. لتحل علي اللعنة أولا، انظر، أنا لا أقدر على التنفس، دعني أتحدث، فقط لا تضع السلك علي مجددا، كنت أقول، أووه.. ما نفعله هنا، ما يفعله الحكيم جمال هنا، أنه يريد صنع عقار يؤخر الشيخوخة، أتسمع، يؤخر الشيخوخة، لقد قلتها مرتين لأنك، لأنكما ربما لا تصدقانني، نحن لا.. هكذا... "

ـ " تحدث يا عديم الإنسانية.. "

ـ " أنا أتحدث، المرأة، تلك المرأة تم اختيارها عشوائيا، الكثير من العجائز لا يعطون نتائج مرضية، انظر.. هناك، أجل، هناك، ذلك الجهاز.. " ونظر مراد

و(تاكفا) إلى جهاز غريب كان يقبع خلفهما: " جهاز ليزر، أجل.. للجلد، الحكيم جمال يقيس به جودة جلد أولئك الناس، يضع ذراع أحدهم هكذا و.. " و حاول تمثيل الأمر بيديه، إلا أن ذراعاه كانتا ثقيلتان خلف ظهره: " لا يهم، عندما يأتي جمال بعجوز إلى هنا يجعله ينام لأربعة أيام كاملة في إحدى تلك الغرف.. سأخبركما أولا عن السبب الذي دفعه إلى فعل هذا.. "

_ " تقصد ابنه الذي فارق الحياة في سن مبكرة؟ نعرفها، تجاوزها.. "

_ " تعرفانها، حسنا، جيد.. ليكن، كنت أقول أنه يأتي بالرجل فيجعله ينام لأربعة أيام كاملة تحت ضوء ساطع، ثم يحضره إلى هذا السرير، تعرف.. الشيخوخة الداخلية والشيخوخة الخا.. الخارجية، لأن.. هنالك اثنتان، الحكيم.. يعمل على فهم الأمر، مرة يفتح رأس أحدهم، ومرة يفتح ظهر آخر، لكي.. لكي يأخذ الجينات، هل تعرفان الجينات؟، تعرفانها.. سيعرف بها، لماذا نصير عندما نكبر، لماذا نصير... مثلا ال.. الجلد، لماذا يموت الجلد ولا يتجدد بسرعة، لكنه يريد أكثر.. ألا يشيخ من الداخل، الذين تفتح.. تفتح رؤوسهم، يفيدون في هذا"

تدخل مراد هنا ليسأل:

_ " أولئك المرضى، ماذا حل بهم، لماذا تغيرت تصرفاتهم هكذا؟ "

ـ " لأن.. أولئك لديهم جروح في أدمغتهم.. "

نظر مراد إلى (تاكفا):

ـ " الصبي الذي أعطاكم إياه السيد (خوني)، كان لديه جرح فوق أذنه!! هل تذكر؟ "

ـ " ذلك الصبي، لم يتأذى، أراد الحكيم فقط أن يأخذ منه.. شيء، لا أدري، لكن الكبار الآخرين، لقد عبث كثيرا برؤوسهم، عندما يكونون ممدين هنا، أراه يشرط أدمغتهم في أماكن محددة.. ربما لهذا السبب، هم لا يعودون كما كانوا.. "

ـ " والمرأة، هل فعل بها هذا أيضا؟ "

ـ " أجل، المرأة.. لأنها.. لأن جلدها يشيخ أسرع من جلد الرجل، فيما الرجل يشيخ دماغه أسرع من دماغها، أشياء مثل الكولاجين، الإلاستين.. لا أعرف، تعلمتها هنا فقط، أراد المقارنة، أخذ المرأة من بيتها وجاء بها إلى هنا.. "

ـ " وأين هي الآن، هل مازالت على قيد الحياة؟ "

ـ " لا أعرف، (بريكو) أخذها.. إلى، إلى، سأموت، أرجوكما.. ربما إلى المدينة الجديدة، أعرف أنه أخذ بعضهم إلى هناك أيضا.. "

ـ " أولئك المجانين الذين في المدينة، هل كانوا هنا أيضا؟ "

ـ " من؟ ربما، لا أعرف.. أجل، بعضهم كان هنا.. "

ـ " لكن لا أحد يتعرف عليهم، هم.. " وبدا أن مراد قد تنبه لأمر ما: " يا إلهي.. " وألقى على (تاكفا) نظرة ذات معنى وعاد يخاطب المحامي: " أنتم لا تأخذون رجالا من مدينتنا فقط!! "

ـ " لا.. من المدينة الجديدة أيضا، أخذنا.. " فقال (تاكفا):

ـ " يعني.. الذين تأخذونهم من مدينتنا، إذا فقدوا عقولهم تأخذونهم إلى المدينة الجديدة حتى لا يتعرف عليهم هناك أي أحد، ريثما تتبدل ملامحهم بالكامل، وهكذا بالمقابل.. المجانين الذين أتوا إلى مدينتنا مؤخرا، لم يأتوا بالصدفة.. "

هز المحامي رأسه متعبا:

ـ " لا.. لم يأتوا بالصدفة.."

ولم يجد الرجلان ما يقولانه بعد هذا، إنما جلس أحدهما على مقعد قريب واتكأ الآخر على الجدار وقال (تاكفا) بعد ربع ساعة:

ـ " وما حكاية المقبرة، لماذا تحفرون هناك من وقت لآخر؟ "

ـ " لا شأن لي بهذا.. " رد المحامي مذعورا: " أقسم، أنه لا شأن لي بهذا.. "

_ " تحدث! "

_ " أقسم.. أنن نن ننن... غغغ.غغغغغغ.. "

_ " يكفي يا (تاكفا)، ستقتله.. " صاح مراد، ورفع (تاكفا) السلك عاليا:

_ " لا تقسم، تحدث، أريدك أن تتحدث.. "

_ " لابد أن.. " أخذ المحامي يقول بعد أن استرجع أنفاسه: " لابد أن أتحدث، أجل.. المقبرة، الأمر يبدأ من المستشفى.. " وأصغى الاثنان أكثر عند هذا: " بعض المرضى، عندما يأتون للمشفى ويطلبون إجراء عمليات جراحية.. "

_ " كبار السن.. تقصد "

_ " المرضى من كبار السن.. أجل، في الأشهر الأخيرة بدأ الأطباء يشكون في قدرته على مواصلة عمله، لأن الناس كانوا يموتون بين يديه في ظروف غامضة، في عمليات جراحية من المفترض أن تكون سهلة، لكنهم يموتون في النهاية لأن.. لأن أجسادهم لا تقدر على التحمل، أووه ساقي، أعرف أنهم سيضطرون لقطعها.. حسب ما يقوله الحكيم جمال لأهل الميت، إن مريضهم قد فارق الحياة لضعف قلبه أو شيء كهذا، لكنه يكون قد حقنه بمادة تجعل جسده يبدو تماما كأنه لا روح فيه، يبيض ولا يتحرك أبدا، حتى

لو أردت سماع دقات قلبه فلن تسمعها، لكنه يظل ينبض بطريقة ما.. عندما يأخذه إلى ثلاجة الموتى.. هناك.. "

هنا حدث طنين في أذني (تاكفا)، وشعر كأن الماء المغلي يتدفق بداخل رأسه، وأسرع مراد يسنده من ذراعه قبل أن يسقط ويؤذي وجهه:

_ " تاكفا، تاكفا، تحدث إلي.. هل أنت بخير؟، تاكفا.. "

_ " لحظة.. " نطق (تاكفا) بصوت ضعيف متألم، ووضع يده على المكتب القريب وتراجع خطوتين حتى جلس على الكرسي الذي كان يجلس عليه مراد قبل ذلك، أردف بعدها:

" ثلاجة الموتى.. "

_ " أجل، أخبرتني عنها.. عندما رأيت الحكيم يقف أمام تلك الجثة.. "

_ " هل رأيته؟ " ونطق المحامي وقد بدا كأنما فاته لسانه، فنظر إليه (تاكفا) نظرة سريعة وعاد يمسك رأسه:

_ " ما الذي كان يفعله بهم؟ "

_ " يبحث فيهم عن أشياء معينة، لا أدري.. الموتى هناك، الذين يجعلهم يبدون كالموتى تماما.. بعد أن يخبر أهل المريض بأن مريضهم قد مات، يأخذه إلى الثلاجة، يبحث فيه عن أشياء معينة ثم إذا كان ملائما، فيأتي هنا

الدور علي.. على (بريكو)، يذهب في الليل ويخرج المريض من قبره، أقول المريض لأنه يكون مازال حيا، ويأتي به في ظلمة الليل إلى هنا، ثم يتولى الحكيم أمره بعد أن يحقنه بمواد تجعل قلبه ينبض مثل الأول، ثم يشق رأسه أو ظهره على حسب ما يحتاجه.. لهذا، الكثير من المجانين هم بالنسبة إلى أهليهم موتى ينامون في قبورهم، لكنهم قد يكونون في مدينة أخرى يتجولون تائهين وينامون على الأرصفة.. "

_ " أنت كيف تورطت في كل هذا؟ "

_ " أرجوك اعفني من هذا.. "

نظر إليه مراد نظرة بثت الرعب في نفسه:

_ " حسنا، لا تغضب.. سأخبركما، لقد تلقيت الكثير من الرشاوى في عملي في السنوات الماضية، المفتش سليم كان يعلم بها، وهددني مرارا لأساعدهم.. ستسألني الآن في ماذا أساعدهم، بعض الأهالي كانوا متأكدين من أن مرضاهم كانوا بصحة جيدة، ذلك لأن استئصال الأورام لا يقتل.. بالضرورة، أو التخلص من الزائدة الدودية، أو البرد حتى.. ،لذا فقد كان الأهالي يرفعون القضايا ضد الحكيم جمال، وكنت أنا أجعله يبدو كنعاج

إخوة يوسف، لا دخل له أبدا.. لقد استفزوني كثيرا، ثم ومن أول قضية أنقذته منها وجدت نفسي مثلهم أحك جسدي من رائحة هذا الأمر دون جدوى.. "

لم يكد الاثنان يصدقان ما سمعاه في البداية، ناهيك عن هذا، والآن سار الأمر إلى الأفق، وظنا أن المحامي لن يقول أكثر مما قاله، ولقد تمنيا ألا يفعل، لكن مراد تذكر أمرا فراح يسأل:

_ " كانت هنالك أربعة أعين في عبوة صغيرة، ما حكايتها؟ "

_ " لنقل.. لنقل إن التجارب في بعض الأحيان كانت تتطلب أمرا كهذا، تلك أعين أصحابها موتى الآن كما تعرفان فلماذا يهمكما أمرها؟ "

_ " لم نكن نعرف أن أصحابها موتى، من الرائع أنك أخبرتنا.. أين الجثث؟"

_ " تحت حوافر الثيران، توجد حفر مغطاة يصعب العثور عليها.. "

_ " أي بشر أنتم؟ "

_ " نحن؟ أنا؟ أخبرتكما أنني دخلت معهم مجبرا، و إلا فلماذا لا أرغب في أن أكبر ويشيخ جلد وجهي، أحب أن يشيخ جلد وجهي، أقسم أني لم أرغب أبدا في أي شيء من هذا.. لكنكما لستما قاتلان مثلهما، أنتما لن تقتلاني أليس كذلك؟ "

قالها المحامي بوجه يقطر ندما. وقد كان (تاكفا) يوشك أن يسأل شيئا، لكن حسن دخل عليهم في تلك اللحظة، كان يبدو عليه الحزن وقال بنبرة رتيبة:

_ " هشام يجلس هناك لوحده، على صخرة.. ولا يريد التحدث إلى أحد، أظنه كان يبكي! "

ولم يجدا شيئا ليقولاه للولد.

_ " هل تعرفان ما به؟ "

دنا مراد من حسن ووضع يده على كتفه:

_ " حسن، لا تقلق على هشام، ليس به شيء، اتفقنا؟ تعرف أنه لم ينم ليلة البارحة، ربما هو متعب قليلا فقط، ولماذا يبكي، هل أنت متأكد من أنه كان يبكي؟ "

_ " لا، لكنه بدا.. "

_ " إذن هو لم يبكِ، هو متعب فقط.. أنتما ما الذي تفعلانه في الأعلى، هل تستمران بالمراقبة؟ "

_ " أجل، نراقب، هذا ما نفعل، لا شيء يتحرك في الخارج.. كما أن الأطفال يعودون إلى غرفهم.. "

_ " لماذا، كم الساعة؟ "

_ " لا أدري، لا أملك واحدة.. "

_ " الخامسة.. " قال (تاكفا) من خلفه.

_ " الخامسة.. " ردد مراد: " عد إلى (تاز) وابقيا معا، سآتي أنا و(تاكفا) بعد لحظة.. "

نظر حسن إلى الرجل المربوط أمامه:

_ " من هذا؟ "

ولم يجد مراد سوى أن يقول بعفوية:

_ " هل قرأت بعض القصص، دائما يوجد شرير في القصة أليس كذلك.."

هز حسن رأسه لأسفل وأعلى.

_ " هذا هو الشرير في هذه القصة، هذا واحد منهم.. "

_ " اضربوه إذن.. " هتف حسن منفعلا: " هم يتعرضون إلى الضرب دوما، اضربوه بقسوة.. هل أساعدكم؟ "

وابتسم (تاكفا) في مكانه، لكن مراد أجاب بجدية:

_ " هيا لأعلى يا حسن، هيا.. "

_ " لحظة.. انظر.. " قال حسن وهو يخرج يده من جيبه.

ـ " ما هذا.."

ـ لا أعرف.. وجدته بين تلك الملابس.. بحثتُ فيها وهذا كل ما وجدته.. "

ناظرا إليها كما ينظر إلى ألماسة.. إلى لفافة بلاستيكية في يده.. نطق (تاكفا) يقول بعجب:

ـ " شريط تصوير.. "

ودنا مراد ليرى أيضا:

ـ " أليست.. "

ـ " بلى.. مؤكد.. هي تخصه.. لنأمل فقط أن تكون بها الصور.. "

التفت إلى المحامي، وكان يميل رأسه إلى الخلف ينظر إلى السقف ببلاهة:

ـ " ابقَ معنا يا صديقي.. " قال (تاكفا) وهو يعيد له رأسه إلى مكانه المفترض ويضع اللفافة أمام وجهه:

ـ " هل تذكرك بشيء.. "

ـ " لا.. "

ـ " العجوز الذي صور الحكيم جمال تلك المرة.. ووقف معي شاهدا ضده في المحكمة.. هي تخصه أليس كذلك.. "

_ " قلت لك لا أعرف.. ولا يمكنني أن أسأله.. لابد أنه يتبول على نفسه في مكان ما.. لقد جن.. جن.. "

_ " تبا.. "

دس (تاكفا) اللفافة في جيبه.

_ " شيء أخير أجب عليه دون مماطلة.. "

أمسك مراد ذقنه وأنصت، بينما أردف صاحبه:

_ " ما الذي حقنتني به في المشفى، ما كان دور تلك الحقنة.. "

_ " سأخبرك وستضع لي الكهرباء مجددا!! "

وثبت (تاكفا) ناظريه في المحامي بطريقة تدفعه للإجابة إجابةً واضحة. فلم يجد المحامي بدا من أن يجيب على سؤاله:

_ " أخبرني جمال أنه ينبغي أن ننهي أمر أي شخص قد يشك في أنه يمثل أصغر تهديد على خطته، وكنت أنت الشرطي العنيد في القصة، رجل القانون الصالح، لكنك دفعت ثمن ذلك، اعتقدا أنك لفظت أنفاسك عندما سقطت على الأرض دون حركة.. لكنك لم تمت، بل أصبحت أكبر تهديد لهما.. قرر جمال أن ينهي ما بدأه معك بالطريقة التي يفضلها، طلب مني أن أحقنك بمادة لا أعرف حتى اسمها، لكنها كان يفترض بها أن تنهي أمرك بشكل يبدو

فيه أن قلبك توقف من تلقاء نفسه، عندما جئت لأخذ الحقنة لم أجد (بريكو) هنا، كان يفترض به أن يعطيني إياها، هو يعرف الكثير من الأشياء أفضل مني.. دخلت المختبر وأخذت الحقنة الخاطئة.. "

_ " هذا ما أريد معرفته، ما كانت تلك الحقنة، ما الذي كان بمقدورها أن تفعله؟ "

_ " ولكنني كدت أفقد روحي بسببها، أتعرفان.. " قال المحامي منقلا عينيه بينهما دون توقف: " هذا الرجل مجنون، مجنون جدا، حتى مثل دجاجة قطع رأسها، إنه يمشي إلى أشياء.. مثل الدجاجة مقطوعة الرأس عندما تركض جهة الشخص الذي قام بذبحها، هكذا هو الحكيم، يصنع عقارا لكيلا تصيبه الشيخوخة، لكنه قبل ذلك كان يصنع عقارا آخر يجعله قريبا من الموت بشكل لا يصدق، أنا لم أجربه أبدا، لكنني أصدقه عندما يقول أنه قام بتجربته ونجح في ذلك، حتى (بريكو) جربه أيضا، لكنني.. وعندما أعطيتك آخر تلك الجرعة غضب مني غضبا شديدا، إذا كنتما.. تص.. دقان ما أقوله.."

المحامي وهو يدلي بكل هذا، وبتلك النظرات الماكرة، لم يكن أبدا ليخمن ما الذي مر به (تاكفا) بسبب تلك الحقنة، أو حتى علم كم أنهما يصدقان كل ما يقوله، لكن مراد كان يعلم، ولذلك فقد بقي واقفا يسمع بصمت مطبق،

(تاكفا) كان يسترجع كل ما مر به في تلك اللحظة، لحين استطرد المحامي في كلامه:

_ " إن كنتما تسمعان بتجارب الخروج من الجسد.. الإسقاط النجمي، وكل تلك اللا أدري.. ماذا تسمى، فسوف تفهمانني، هذا هو ما كان يفترض بتلك الحقنة التي أخذتها بالغلط أن تفعله بك.. أن تجعلك تعيش تلك التجربة، وأنت كنت في غيبوبة، فلا أعرف إن نجح الأمر معك، فأنت لم تخبرني، لكنني أخبركما، هذا الحكيم ليس مجرد حكيم نال شهادة وله خبرة طويلة، إنه معجزة لها ساقان وتتحرك بهما، مجنون عبقري.. وقد تغلب عليه شيطانه.. ربما يكون صنع كمية أخرى، يمكنك أن تتأكد بنفسك.." وأشار بذقنه.

نظر (تاكفا) إلى يساره وكان ثمة ما يشبه الثلاجة الصغيرة، وقام بفتحها.

_ " الكثير من عينات الدم، أليس كذلك؟ " قال المحام بمكر.

ومد (تاكفا) يده وأخذ يمرر أصابعه عليها، كان معظمها _ تلك الأنابيب الزجاجية بهيئتها المخيفة_ مملوءً بالدم حتى المنتصف، وما بقي منها به سوائل غريبة بألوان مختلفة، ولم يرد (تاكفا) أن يشق رأسه بها، بل أعاد الباب إلى مكانه وتراجع نحو الرجل الذي ظن بكل ثرثرته تلك التي زادها دونما

حاجة، إنما هو بها يكسب وقتا ليعيشه ريثما يصل صاحباه لربما ينقذانه، فكان لا يفارق ذهنه لحظة، أن الموت بات أقرب إليه حتى من أنفه، بعدما رأى مما يلاقيه الناس الذين يتم ربط أيديهم إلى ظهورهم.

استدار (تاكفا) وبدا عليه أنه ينوي الخروج دون قول شيء آخر، لكنه لوى عنقه وقال مخاطبا مراد الذي كان لايزال يقف قرب المحامي:

ـ " مراد، أعد هذا الخنزير إلى حفرته.. أقسم أنني سأفعل به شيئا سيئا لو سمعت صوته أكثر من هذا.. "

ـ " أجل، خذني، خذني، خذ هذا الخنزير إلى حفرته.. خذني بسرعة.. " قال المحامي بنبرة سريعة وهو يهتز فوق المقعد يبغي التحرك به بينما ينظر إلى (تاكفا) نظرة الخائف وهو يراه يختفي بظهره عند باب الغرفة.

كمدا، محزونا، والقلب ينقبض ألما بداخل صدره الصغير الضيق، نزل هشام من على الصخرة ومشى بضع خطوات عنها، بعد أن نظر وتمعن في صورة والدته. وقف يحدق نحو الأفق، وكانت الشمس ثقيلة خلف التلال البعيدة، تنهد وشهق شهقتين وصاح بأعلى صوته:

ـ" يااااا.. ".

وعند حظيرة البقر وقف صديقاه يراقبانه:

_ " (تاز)، ما به هشام في رأيك؟ "

_ " سيخبرنا إذا أرر.. أرا.. أراد ذلك.. "

_ " أظن أنه عرف شيئا عن والدته.. "

_ " ررر.. رب..ربما.. لا أدري.. "

التفت هشام عائدا، وتحرك الصغيران عن مكانيهما، وقال حسن بنبرة حذرة:

_ " هشام، أنت بخير؟ "

ورد هشام بغير تعبير على وجهه:

_ " دعك مني يا حسن.. " نظر إلى (تاز):

_ " ما به، لماذا ذهب إلى هناك عندما رآني قادما نحوكما، منذ الصباح كأنه يتجنبني؟ "

ونظر حسن خلفه، كان (تاز) قد ذهب نحو حظيرة الثيران وجعل يطل برأسه نحو الداخل:

_ " أبدا.. "

_ " حسن، انظر إلي.. هل تكذب؟ "

_ " حسنا، لا تفعل بي هذا.. لقد ضربه السيد (خوني)، ربما لا يريدك أن ترى الجرح الذي على وجهه، لكن لا تخبره أنني أخبرتك.. "

ونظر هشام إلى (تاز) مجددا:

_ " لماذا؟ "

_ " لأن.. أرجوك دعنا من هذا.. "

_ " حسن! "

ولم يجد حسن بدا من أن يسرد عليه الواقعة بكاملها، دون أن ينسى أمر الكلبة التي صورت له على أنها أمه، من طرف زملائهم السابقين في العمل، وانتهاءً بالطريقة التي صفعه بها السيد (خوني) وألقاه على الأرض طريحا، الآن و إن كانت النار تُذكّى بالحطب، فإن حديث حسن هذا قد ذكّا غضب هشام بقدر بالغ، فتوجه إلى (تاز) مباشرة وشده من ذراعه:

_ " انظر إلي يا (تاز)، انظر إلي، ارفع رأسك.. "

ورفع اليتيم وجهه:

_ " هل تخفيها عني؟ " أردف: " من أنا، ألست أخوك يا (تاز)؟ هل نخفي عن بعضنا؟ "

ولاحظ هشام في وقفة (تاز) تلك ونظرته التي تشبه كثيرا نظرة الجندي اللطيف الذي يعاتبه قائده، لاحظ كيف أن شفتيه راحتا ترتعشان بشكل طفيف جدا، وكيف أنه عض منهما السفلى حرجا، فضربه هشام على صدره وقال باسما:

ـ " سنكبر.. " ناظرا لأسفل: " سنكبر، أعدك.. رغم كل شيء، سنكبر وسنعرف أين يسكن الذين آذونا.. "

حسن وهو يقف خلفهما، كان وحده الذي لم يقدر على حبس دموعه، فسقطت من عينيه قطرتان وتبعثرتا على حذائه الرث الحائل، فقال يضحك بألم:

ـ " كأننا نعيش في رواية، تخيلا هذا.. لو.. "

ورد هشام بجدية:

ـ " لا رواية ولا هم يحزنون.. أين هو القرد، هل رأيته.. "

ـ " قبل قليل كان يقفز فوق ظهور البقر.. "

ـ " حسنا.. عودا للمراقبة، أنا سأتبول وأنضم إليكما بعدها.. "

كان الطريق الذي يأتي إلى المزرعة ضيقا لا تمر منه سوى مركبة واحدة، ووقف حسن و (تاز) على مسافة أمتار من حظيرة البقر أحدهما على خط سير

عجلة والآخر على الخط الآخر، وقفا وقفة الحرس يطالعان إلى البعيد حيث التلال والسماء وبقايا السحب، ووصل الصاحبان. واتكأ (تاكفا) على بوابة الحظيرة، وقال بعد فترة:

ـ " إذن هشام كان يشك بوجود شيء كهذا! "

ورد مراد متنهدا وآخذا بذراعيه إلى صدره. يطالع الأفق:

ـ " هذا ما يبدو.. كان يعلم أن أمه لم تفقد عقلها هكذا عبثا، كان يحقد على الحكيم جمال لأنه لم يحاول حتى النظر إليها عندما رآها في المشفى، والآن لك أن تتخيل حجم الغضب في صدره وقد علم أنه هو نفسه من فعل بها ذلك.. "

ـ " أجل، مهما حاولنا التخفيف من غضبه، كأنه لا يحق لنا هذا.. من يصبر على شيء كهذا؟ من؟ "

ـ " سيظل الحقد ينمو في صدره حتى يجد الفرصة ليأخذ انتقامه، لكن بما أننا الآن بجواره فما علينا إلا أن نمنعه من أن يفسد حياته.. "

ـ " لهذا ينبغي أن نسلمه إلى الشرطة مباشرة.. "

ـ " إن وقع في أيدينا.. لنمسك به أولا، ثم نأخذ منه ما نريد معرفته.. بعدها يأتي دور الشرطة، على الأقل إذا سجن وتم إطلاق سراحه بطريقة ما،

وأغلب ظني أن هذا ما سوف يحدث، ستكون لدينا معلومات كافية لنتصرف وفق ذلك.. "

ـ " ما يحيرني هو، من أين يكون قد أتى بكل تلك الأجهزة في المختبر، وكل هذا البناء الذي في الأسفل، كيف استطاع فعل هذا.. "

ـ " من الواضح أنه سرق بعضها من المستشفى، رجل مثله لا يصعب عليه الحصول على أي جهاز طبي يريده.. "

ـ " بهذا نعرف أن الجنون نوعان، جنون يجعلك لا تفعل أي شيء، مثل الذي أصاب ضحاياه، وجنون يجعلك تفعل كل شيء، مثل الذي أصابه.."

ـ " لنأمل فقط أن يسير كل شيء على ما يرام.. "

ـ " لنأمل، حاليا هذا كل ما نملك.. "

بعد ساعتين، اسودت السماء وتساقط البرد ولمعت النجوم في الأعلى، ولم يظهر على الطريق أحد، لكنهم سمعوا صوت ضجيج يأتي من حديقة

الثيران فجأة، فوقفوا جميعا ينظرون بدهشة، بألسنة معقودة، ريثما نطق مراد مذهولا:

ـ " يا إلهي.. "

ففي الظلام الخفيف، وسط الحقول المربعة، كان ثمة ثلاثون ثورا هائجا يركضون هاربين في اتجاهات مختلفة، ومجددا قال مراد يسأل:

ـ " من فعل هذا؟ "

ولم يكن ثمة من حاجة لأن يجيبه أي أحد، فالأطفال الذين يعملون في الحظيرة قد كانوا مندهشين على الأقل بالقدر نفسه، ثم إن هشام وحده كان يعود من تلك الناحية، حين ظهر مطأطأ الرأس مهموما فالتصقت به العيون سائلة، ولم يكلم أحدا، و إنما تجاوزهم صامتا واتجه صوب المكتب وأغلق الباب على نفسه، عاد العمال الصغار إلى مضاجعهم والرهبة تملأ جعابهم خوفا مما سيفعله بهم السيد (خوني) عندما يصل في الصباح الباكر، أما بالنسبة إلى (تاز) وحسن فقد كان هذا انتصارا صغيرا لهما، (تاكفا) لم يقل شيئا، كذلك مراد لم يبدِ رأيه أكثر مما فعل، وعادوا جميعا إلى الداخل دون أن يتفوه أي واحد منهم بكلمة، تماما وكأنهم لم يروا قبل لحظة فقط، ثروة هائلة تفر هاربة وسط الظلام نحو التلال البعيدة.

مرت ساعة، وجاءت عينان كبيرتان مضيئتان تندفعان وسط الظلام نحو المزرعة، كانت الشاحنة تتقدم ببطء كأنها لا تريد الوصول أبدا، لكنها وصلت في النهاية وتوقفت أمام مدخل الحظيرة، فتحت الباب ونزل منها حذاءان أسودان لمعا تحت ضوء المصباح.

أخرج الحكيم جمال محفظته وضرب الباب إلى هيكل السيارة ثم عدل نظارته فوق أنفه وراح يمشي بين الأبقار النعسة، يتلفت يمنة ويسرة كثعلب ماكر، حتى ليبدو للواحد أنه اشتم رائحة المكيدة، توقف فجأة ودار حول نفسه دورة كاملة، مسح صلعته ومشى بعدها نحو غرفة المكتب والشك باد على وجهه فأشعل الضوء ونزل بظهره يرفع الباب الذي يغطي الحفرة السرية، ولم يشعر إلا ويدان تمسكانه من كتفي سترته وترفعانه لأعلى.

جره مراد و(تاكفا) حتى أجلساه على الكرسي وجعلا يتطلعان إليه بغضب، وكان الصغار يصلون في تلك اللحظة:

_ " أليس هناك أحد آخر؟ " التفت مراد يسألهم. وهز (تاز) وحسن رأسيهما، أما هشام فظل يرمق الحكيم بنظرة شرسة.

_ " الشاحنة فارغة تماما.. " رد حسن.

ـ " جيد.. عودوا إلى الطرف هناك وواصلوا المراقبة، ربما يأتي صاحبه بسيارة أخرى.. "

مشى الصغيران إلى حيث طلب منهما، غير أن هشام ظل ساكنا لا يتزحزح، حتى إذا كرر مراد كلامه، نظر إليه بما يشبه أنه لم يكن يسمع شيئا مما قيل حوله، إلا أنه استدار في النهاية بهدوء ومشى نحو صاحبيه اللذين كانا يصلان إلى مكانيهما.

حتى هذه اللحظة، لم يكن الحكيم جمال قد قال شيئا يذكر، سوى بضع كلمات مضغوطة ليبدي بها اعتراضه عما يحدث له لما كانت يداه تُعقدان خلف ظهره، أما الآن فقد سكن هادئا واكتفى بمراقبة ما يحدث، حتى أن عيناه الذكيتان لم تكونا تنبئان عن أي تصرف آخر غير هذا، في النهاية نطق فقال بجرأة بَثت في صدر مراد شيئا من التوتر، فيما (تاكفا) قد أفنى شبابه في أشياء كهذه، لقد نطق الحكيم بغرور واضح:

ـ " هل مللتما الحياة في هذه السن المبكرة؟ "

ولم يحيرا له جوابا، بيد أن (تاكفا) رد يقول بعد دقيقة:

ـ " الحكيم جمال، كبير الجراحين في المدينة.. تتذكرني، أليس كذلك؟ "

_ " بالطبع أتذكرك، ها.. ألا تعلم أن الضباع تنسى وجوه الغزلان التي تأكلها، لكنها لا تنسى وجوه تلك التي تفر منها أبدا.. الجوع ينشط الذاكرة.."

_ " هل تتأسف على أنني ما زلت حيا؟ "

_ " لا، أبدا.. بل أتأسف على أنني وكلت أمر الانتهاء منك إلى ذلك الغبي صاحب الرأس الكبيرة.. صدقاني عندما أقول لكما أن رائحة الغباء تفوح منه على بعد كيلومتر كامل.. هل أمسكتما به أم تراه فر مثل النعامة؟ "

_ " دعك منه الآن، أخبرني أين هو مرافقك، لماذا لم يعد معك؟ "

_ " آه، (بريكو).. لنقل أنه لن يعود قبل صباح الغد، تركته في المدينة ليؤدي لي عملا صغيرا.. "

_ " في المدينة، أم في المقبرة؟ "

رفع الحكيم حاجبيه لأعلى:

_ " أوهوه، وتعرفان هذا أيضا.. طبعا، أنت شرطي سابق، من المؤكد أنك قمت بتحرياتك كما ينبغي، لكن سأضع اللوم على نفسي هذه المرة، ها.. من يوكل أمر قتل شرطي إلى محام؟ سأخبركما عنه شيئا، سألته مرة، مع كل

الغباء الذي يميزه، سألته كيف يحفظ كل تلك القوانين في رأسه، تعرفان ماذا قال؟ "

ـ " لنتحدث بجدية، يا سيد جمال.. فقط اعلم أن مصيرك سيعتمد على إجابتك.. "

ـ " حسنا، بجدية.. " رد الحكيم باسما بخبث.

ـ " المرضى الذين أفقدتهم عقولهم، هل يمكن علاجهم ليعودوا كما كانوا؟"

ـ " طبعا لا.. لا يمكن، للأسف.. "

طالت نظراتهم نحو بعضهم بعد هذا.

ـ " هل أعجبتك هذه الإجابة؟ "

ولم يتمالك (تاكفا) أعصابه فهب نحو فلكمه على وجهه، ولم يتحرك مراد ليوقفه هذه المرة، بل ظل يشاهد الأمر عاضا شفتيه بصبر فائق.

تفل الحكيم دمه ورفع رأسه دون أن ينظر إليهما:

ـ " لم تعجبك إذن.. "

قال (تاكفا) مضيقا عينيه وقد تغير وجهه:

ـ " هل أنت بشر أم ماذا؟ لنقل أنك فقدت إنسانيتك واختطفت كبار السن، فهل تأخذ امرأة لها طفل صغير لتفقدها عقلها وتترك ابنها يتيما هكذا؟ حتى أنه لا يعلم بما حدث لوالدته!! "

ـ " صدقني لو أنك تتمالك نفسك قليلا فسوف أخبرك بكل القصة، لأنك نجوت من الموت مرتين، وقد أعجبني هذا جدا.. "

رفع مراد يده عند صدر (تاكفا) مشيرا له بأن يهدأ، ولبى الآخر الأمر فامتنع، وانطلق الحكيم يقول وليس في وجهه ثمة ما يظهر أنه نادم أقل ندم على أفعاله:

ـ " عندما ولد للمقبور سليم ولده الأول، الأول والأخير، في الحقيقة.. فرح به فرحا عظيما لم يفرحه حتى يوم زواجه، كانت تربطني به صداقة قديمة، منذ شبابنا الأول، كان دائما يخبرني عن جمال الأطفال حين يُحملون على الأذرع، ويصرخون أول صرخة، ثم عندما يضحكون أول ضحكة، كان من ذلك النوع من الرجال الذين تراهم لا يبتسمون أبدا، يحبون أن يظهروا أمام الجميع بمظهر القوة والقسوة، ناهيك عن أن تكون مفتشا، لكنه في داخله، كان أيضا ذلك الرجل الذي لا يريد من الحياة سوى أن تعطيه أطفالا، أخبرني ذات يوم أنه يريد ستة أو سبعة، في النهاية عاش عامه الأربعين دون أن يتحقق له ذلك،

وطوال هذه المدة، ولأن المشكلة كانت فيه هو، فقد كنت أنا أعمل جاهدا على مساعدته، ولم أنجح إلا متأخرا، وربما لم يكن لي دخل أبدا، ربما القدر لوحده، هكذا ظننا في البداية.. لكن عندما كبر الطفل وصار يقدر على الضحك بصوت مسموع بين ذراعي والده بدأت تظهر عليه تجاعيد غريبة، في النهاية.. عندما بلغ سن الرابعة، لم يعد والده يقدر على إخراجه إلى التنزه، فجاء عندي ذات يوم وأخبرني أن كل هذا يرجع إلى الأدوية التي كنت أعطيه إياها، و إلا فالإنسان لا يشيخ قبل بلوغه الستين من عمره، نسي الناس أمر الولد منذ الرابعة، ولم يعد أحد يعلم بوجوده في هذا العالم سوى والديه، وجاءني صديقي المقبور مرة أخرى وقال لي، بهذه العبارة.. قال لي: أليس هنالك علاج لهذا يا جمال، أليس هنالك علاج؟، فأنا لم أعد أقدر على النظر إلى وجه ابني.. شعرت أن قلبي بدأ يتفتت مثل كومة رمل تأخذها الريح، آلمني كلامه جدا، حاولت وحاولت و حاولت.. وأخذت كل وقت فراغي في محاولة إيجاد علاج لمرض ابنه، بعد سنتين فقط، توفي الطفل أخيرا، أقول أخيرا لأننا كنا نتوقع ذلك، وأنت تعرف قائدك السابق على أنه شخص صلب لا تهزه الأحزان والأفراح بقدر ما كانت، لكنه كان يأتيني ويأخذ يبكي مثل امرأة، حياة طفله وموته تركا في نفسه أثرا بالغا، ومن حينها ولأنه جعلني

أشعر أن الذنب ذنبي فقد قررت أن أواصل بحثي عن علاج للشيخوخة، طورت تجاربي، ووجدت مكانا لأنفذ فيه أفكاري، هنا عند السيد (خوني)، لكن الحزن أخذ صديقي بعد فترة قصيرة من وفاة ابنه، لم يقدر على تحمل فراق ابنه، ولم أقدر أنا على التخلص من هذه الفكرة، ظلت تراودني وباتت هاجسا أنام وأستيقظ عليه صباحا.. قد ترون أن ما قمت به أمر شنيع لا يجوز فعله، وهو الحاصل، إنه أمر شنيع لا يجوز فعله، لكن البشرية، كل البشرية ستكون ممتنة لما حققته.. "

_ " الغاية تبرر الوسيلة، أليس كذلك؟ وأي غاية، وأية وسيلة!!"

_ " كما أخبرتك.. البشرية ستكون ممتنة، الآن دعني أنا أطرح عليك سؤالا، تلك الحقنة التي وضعها ذلك الغبي في ذراعك، ما الذي فعلته بك؟ أريد أن أعرف لو سمحت.. "

_ " فعلت ما ينبغي أن تفعله.. "

_ " هل؟ ها.. " قال الحكيم يهز رأسه.

_ " هل ماذا؟ "

_ " هل دخلت في شيء.. كيف أقولها، يشبه أنك خرجت من جسدك وصرت تطوف وتطير دون أن يعترض طريقك شيء؟ تعرف تجربة الإسقاط النجمي، أليس كذلك؟ "

_ " أتعرف.. " قال (تاكفا) وعدل وقفته: " ما يثير غرابتي حقا هو، كيف يمكنك أن تتحدث بكل هذه الأريحية.. هل تفكر في أن نوصلك إلى بيتك بعد ساعة؟ "

تفل الحكيم بعض دم كان قد تجمع على شفته بسبب اللكمة التي تلقاها وصار يقول ضاحكا:

_ " هأ هأ هأ، لا.. لكنني قررت منذ مات صديقي، أن أستمتع باللحظة، خاصة اللحظة السيئة.. مات صديقي حزينا، وعلى الأرجح أنه سيقوم من قبره حزينا يوم القيامة، لكنني أريد أن أقوم من قبري مبتسما، تلك النار، أريد أن أدخلها بطريقة مختلفة.. " بعد صمت: " ماذا ألن تخرج مسدسا من جيبك الآن وتطلق على رأسي؟ إنني قلت كل ما قلته وفقا لهذا.. "

_ " لسنا قاتلين مثلك.. "

_ " طبعا، طبعا، طبعا.. " هازا رأسه: " أنت النوع الجيد من البشر، أما أنا فمن النوع السيء.. " وغير نبرته عند هذا، فصار إنما يتحدث كأن شيطانا أخذ بزمام عقله، راح يقول منقلا عينيه البارزتين بينهما في توتر:

_ " اغتنما فرصتكما، اغتنماها، هذه نصيحتي.. لأنني إذا خرجت من هنا، فستكونان موضع تجاربي القادمة، لن أسلبكما عقليكما فقط، بل سأجزئكما إلى قطع كثيرة بحيث لن يمكن تجزئتها أكثر.. العينان على جانب، والأظافر على جانب، والأسنان على جانب، وأقدام الأصابع على جانب، أنا أزداد جنونا يوما بعد يوم، ولن ترغبا أبدا في أن تقعا في يدي.. "

_ " (تاكفا).. " نطق مراد أخيرا، بعد أن كان ظل صامتا يسمع كل ذلك: " يكفي هذا، لنأخذه للأسفل.. "

وتعاونا عليه فأسنداه كل من جهة وصارا يسوقانه بينهما نزولا على درجات السلم.

في الأسفل وعندما اقتربوا من مدخل الرواق، صاح المحامي لطفي من سجنه:

_ " هااي.. هل من أحد؟، سأتبول على نفسي.. هل من أحد.. "

فقال الحكيم جمال بتذمر:

_ " ماذا، هل هذا البغل هنا.. عرفتها.. "

وما كاد الرجل ينهي جملته حتى ارتفعت صرخات من خلفهم، كان الصغار الثلاثة ينزلون الدرجات بسرعة وكان حسن يصيح خائفا يتقدمهم:

_ " إنه قادم، لقد أتى.. خلفنا مباشرة، بندقية، لديه بندقية.. سيطلق علينا.. "

تقدم مراد نحوهم:

_ " ما الذي تقوله.. هشام، ماذا جرى، لماذا تركضون هكذا.. "

ورد هشام بجدية:

_ " بريكو.. أتى، ولديه بندقية.. أظنها بندقية صيد.. "

انطلقت ضحكات الحكيم جمال عند هذا، ولقد كانت ضحكات شريرة كما ينبغي لها، فدفعه (تاكفا) إلى الجدار واقترب من الصغار الخائفين:

_ " تراجعوا للخلف هيا، ادخلوا إلى الداخل.. "

وصاح الحكيم جمال مجددا بصوت ماكر:

_ " أجل، هكذا.. ينبغي أن تخافوا، خافوا، اصرخوا الآن مثل البنات هيا، لطفي.. أيها البغل، هل تسمع؟، جاء (بريكو) لينقذنا.. هل أنت سامع؟ "

ورد المحامي من خلف بابه المغلقة:

_ " رائع يا سيد جمال، أنا هنا، لا تنسوا أمري.. "

وجمع (تاكفا) الصغار بيديه ودفع بهم إلى الرواق وعاد نحو مراد، لكن وقبل أن يصل عنده انطفأ المصباح فجأة وحلت الظلمة فوق رؤوسهم.

_ " احذر يا (تاكفا) "

_ " لنصعد لأعلى، إذا تركناه ينزل إلى هنا فسوف نقع في مشكلة.. "

_ " بحذر.. "

_ " ششت، لا.. لا تتحرك.. "

_ " هل سمعت شيئا؟ "

_ " هأ هأ هأ.. لو أنكما تعرفان مع من تتعاملان، هيا يا (بريكو)، هيا يا صغيري.. دعنا ننتهي من هذا.. دمرهم.. "

في أعلى السلم، كان بمقدور مراد و(تاكفا) _ على الضوء القليل المنبعث من مصباح غرفة المكتب _ أن يريا شبحا أسود عظيما يغوص نحوهما بتثاقل، وسرعان ما اختفى في الظلمة، وارتفع وقع قدميه وهما تنزلان بقوة على الدرجات الإسمنتية، واشتعل المصباح فجأة وانقشع الظلام وكانت يد (بريكو) لا تزال على الجدار خلف درجات السلم، فوق زر مخفي تصعب كثيرا رؤيته، وبينما تزداد ابتسامة الحكيم من خلفهما توسعا، راح (بريكو)

يتقدم نحوهما حاملا بندقيته ذات الفوهتين تحت إبطه، ومصوبا إياها نحو صدريهما، قال بصوت أجش تكسوه الفظاعة:

ـ " فئران في قبوي؟ هأ، هل أنت بخير يا سيد جمال؟ "

وسريعا، التفت الرجل حولهما ووقف بجنب حارسه:

ـ " فك وثاقي، هيا.. "

في غمرة ورطتهما، نظر مراد و (تاكفا) إلى (بريكو) يتأملانه وهو يفك أسر سيده، بينما يصوب بندقيته نحوهما بذراع واحدة، كان يشبه كثيرا دب الغابة الكبير المتوحش، بثوبه الطويل الأسود وسرواله الخشن وحذائه الصخري، وأنفه الذي يقارب هرثمة السبع مقاربة كبيرة، وفمه العريض وعيناه اللتان لا تكفان تقدحان شرا وقسوة، في نفس مراد كان الخوف قد دب وأصابه شيء من الهلع، حاول جاهدا إخفائه، عكس (تاكفا) الذي كان يقف هادئا، خارجه يعكس ما بداخله، انتهى (بريكو) من عمله وعاد يمسك البندقية بكلتي يديه، بينما قال الحكيم وهو يحك معصميه اللذين آذاهما السلك.

ـ " من بين الأشياء التي لا أحبها في حياتي هي أن.. " واصل يحدثهما دون أن ينظر: " هي أن جميع الأشياء التي أريدها تأتيني متأخرة.. لكن هذه

المرة على العكس تماما، هو حظكما السيء، ماذا أفعل! ها.." ورفع بصره نحوهما: " أين كنا؟ اجثيا الآن على ركبكما.. "

وتردد الاثنان قليلا، لكن (تاكفا) شجع مراد على فعلها، ونزلا بهدوء وأيديهما على رأسيهما، مشى الحكيم نحو الرواق وغاب للحظات ثم عاد يجر الصغار الثلاثة من ياقات أثوابهم وأجلسهم معهما وناول (بريكو) ثلاثة أشرطة لاصقة كان قد أحضرها معه:

_ " خذ، قيدهما جيدا.. "

ونفذ (بريكو) أمر سيده فقيد يدي كل من (تاكفا) ومراد خلف ظهريهما وعاد إلى مكانه، وانطلق الحكيم يبربر في فرح:

_ " كنا في.. هاه، أجل.. كنت سأقول شيئا، الآن تذكرته، تحسبان أنني كنت أقص عليكما كل ذلك الحديث لأمتعكما، هذا ما تحسبانه أليس كذلك؟ أو أنني كنت خائفا! خسئتما، تفووه.. إنما كنت أتحدث إلى ميّتين، كنت أربح الوقت فقط، ولا ضير في أن يسمع الموتى حديث الأحياء كما أعلم.. اربط وثاقهم جميعا يا (بريكو)، سأخرج ذلك البغل من الغرفة.. "

_ " من؟ "

_ " لطفي، هل نعرف بغلا غيره؟ أمسكوا به قبلي.. لكنك تأخرت كثيرا، هل يتطلب الإمساك بثور هارب كل هذا الوقت؟ "

_ " لم يكن ثورا واحدا.. "

_ " ماذا؟ "

_ " وجدت ثلاثة آخرين أيضا.. لا أدري كيف خرجوا من الحظيرة.. "

_ " أولئك الأطفال، آه منهم.. سيجعلوننا نتخاصم مع السيد (خوني)، لكن لولا أنك نزلت بعيدا لتعيد الثور لكنت الآن مقيدا معي، رب ضارة نافعة.. لقد نصبوا لنا فخا يا (بريكو)، أتصدق هذا! "

في ظل هذا، كان ثمة حديث صغير يدور بين جماعتنا بصوت خافت، كان مراد يخبر الصغار أن لا يفزعوا، وأن الأمر لن ينتهي إلا بطريقة جيدة، لكن حسن وحده الذي بدا عليه الخوف من بين صاحبيه اللذين كانا يجلسان كصخرتين لا يعنيهما الأمر بتاتا، رد حسن مرعوبا يعتذر:

_ " نحن آسفون حقا يا سيد مراد، لم نره، لم يكن يركب سيارة، لأننا نستطيع أن نرى المصابيح من مسافة بعيدة، أليس كذلك؟ لقد ظهر أمامنا فجأة، ونحن ركضنا مباشرة إلى هنا.. لم نعرف ماذا نفعل غير هذا.. ها، ماذا تقول يا سيد (تاكفا)؟ "

ـ " ليس عليك أن تأسف يا حسن، هذا ليس خطأكم.. لا تقل مثل هذا.. "

وأخذ انتباههما كلام (بريكو) مع سيده، حينما قال له:

ـ " ذلك القرد الذي أخبرتك أنه جرح وجهي البراحة.. "

ـ " ما به؟ "

ـ " وجدته في الخارج، كان فوق الشاحنة، أمسكته ورميته إلى السور، لا أدري إن كان لا يزال حيا.. "

ـ " وما شأني أنا بالقرد يا (بريكو) "

صاح حسن وقد هاجت نفسه:

ـ " أيها الرجل الشرير، هل قتلته.. هل قتلته؟ "

ـ " اهدأ يا حسن، اهدأ.. "

ـ " ألم تسمع ما الذي قاله ؟ لقد رماه إلى السور مثل فردة الحذاء.. "

ـ " هأ هأ هأ.. " (بريكو) يضحك:

ـ" أنت من دخلت إلى هنا في الليلة الماضية إذن.. "

ووقف هشام وقال معترضا:

ـ " لا، لم يكن هو.. بل أنا.. "

ـ " تعال إلى هنا إذن.. " مشى نحوه وطوق رقبته الصغيرة بيده ورفعه لأعلى: " ألست خائفا؟ "

ـ " تفووه.. " بصق هشام على وجهه.

وابتسم (بريكو) ابتسامة خبيثة بثت الرعب في صدر هشام، وهو ينظر إليه من تلك المسافة، ثم إنه أخرج لسانه ولعق ما استطاع من البصاق حول شفتيه وقال بصوت جهوري لاذع:

ـ " رائع.. هذا ما أحبه، سأربيك مثل الجرو وستغدو لي طائعا ريثما تكبر.. "

أما الحكيم فالتفت عائدا نحو الرواق كي يخرج صاحبه من زنزانته، وكانت غبطته واسعة، وكان يمشي زهوا بخطا عريضة، لما قال وهو يتجاوز مراد و(تاكفا):

ـ " لا تقتل أي واحد منهم.. آه، أعلم أن ما كنت أقوله بشأن وقوعكم في مشكلة كبيرة، بالنسبة إليكما قد كان يمكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون حقيقة، لكن.. "

مع آخر حرف قاله، انطفأ ضوء المصباح مجددا، وغرق الجميع في الظلمة، ولم يُسمع إلا صوت ارتطام شيء ما بالأرضية، ولقد كان ذلك هشام لما أفلته

(بريكو) فجأة ودون أن يكترث لجسمه الرخو الصغير، تلاه صوت الحكيم جمال وهو يسأل (بريكو) عما يحدث، ورد الأخير مستغربا:

_ " لا أدري، ربما احترق المصباح من تلقاء نفسه.. "

_ " ابحث عن شيء آخر وأشعله فورا.. "

_ " انتظر يا سيد جمال، أعتقد أنني أسمع شيئا.. "

_ " اللعنة على الذي تسمعه، ما الذي يحدث؟ "

وارتفعت أصوات تشبه الخطا السريعة ومعها انطلق صوت العيار الناري وتردد صداه في أرجاء الحفرة:

_ " اهرب يا سيد جمال، اهرب بسرعة.. رأيت أحدا يتحرك.. "

من نبرة صوته، بدا واضحا أن (بريكو) قد ارتبك بشكل كبير جدا، فأخذ يدور حول نفسه ويوجه فوهتي بندقيته صوب الخيالات التي كان يلمحها، قال مراد وهو يرتمي بصدره على الأرضية:

_ " اخفضوا رؤوسكم هيا.. "

هذا، فيما واصل (بريكو) الدوران حول نفسه وإطلاق الشتائم بشتى أنواعها، وكان بين لحظة وأخرى، يضغط الزناد فتخرج طلقتان سريعتان صوب الأشباح الهاربة لينتهي بها الأمر على الجدار المقابل، واستمرت هذه

الحرب الصغيرة قرابة الدقيقتين و(بريكو) يدور حول نفسه فزِعا ويطلق ويصيح بالسباب ورائحة البارود تزداد انتشارا وأصوات حركات الأقدام المتسارعة يتغير مكانها دون توقف، ثم ولما لم يكن من الممكن لهذا الأمر أن يطول أكثر، فإن صوتا يشبه ضربة قوية وقعت على رأس أحدهم قد طنّ عاليا فوق كل صوت آخر، وانقشع معه كل الضجيج الذي كان، وصار بإمكان الواحد منهم _ أولئك الذين يرقدون على صدورهم تحت الظلمة _ أن يسمع دقات قلبه المتسارعة بوضوح أكبر، عم صمت رهيب لبضع لحظات قبل أن يعود النور ليشع فوق رؤوسهم.

ولما رفعوا وجوههم عن الأرضية الإسمنتية، واعتدلوا واقفين على أقدامهم، ونظروا وأعادوا النظر فيما حولهم بعيون مفتحة، ووجوه يكسوها الذهول والحيرة، فلأن (بريكو) بجسده الكبيرة الضخم المخيف قد كان يرقد أمامهم كخشبة ميتة، مطروحا على بطنه وذراعاه ممدودتان نحو حذائه، فيما يقف السيد جلال والد هشام على رأسه يتأمله بنظرة تشفي، حاملا مجرفة فوق كتفه، بإحدى ذراعيه الضامرتين، بينما يحك خصره بيده الأخرى:

_ " أظنني قتلته! "

قال يحدث نفسه، ثم رفع رأسه نحوهم:

ـ " لماذا تنظرون إلي هكذا.. جدوا شيئا واربطوا به يديه إن كان لا يزال حيا.."

ووصل ياسين ووقف بجانبه أيضا، إذ كان هو من تكفل بمهمة إشعال الضوء و إطفائه، قبل أن ينزل مسرعا ليتفقد الوضع في الأسفل:

ـ " كيف.. " قال والدهشة تكسو وجهه: " كيف ضربته ومعه بندقية؟!! "

ورد السيد جلال بنبرة جافة:

ـ " هذا من منافع السجن الانفرادي، ولأنني تسببت في الكثير من المشاكل، كنت أقضي معظم وقتي لوحدي.. عندما تقضي الكثير من الساعات في الظلمة لوحدك، تعود قادرا على رؤية الكثير من الأشياء حولك، حتى النمل الذي يتحرك في الزوايا.. الآن هذا المسكين لم يقدر على إصابتي ببندقيته، لكنني ضربته على مؤخرة رأسه بمجرفة.. بمجرفة.. "

كررها كي يبقى وقع الكلمة راسخا في رؤوسهم، وحتى لا تختفي حكاية المجرفة من أحاديث ناس المدينة طوال الثمانين سنة القادمة، الآن قال (تاكفا) فزعا لما التفت خلفه:

ـ " الحكيم، الحكيم جمال.. "

ونظر مراد، وكان الرواق خاليا، وتبين لهما بسرعة أنه قد فر بجلده، عاد (تاكفا) يخاطب ياسين بنبرة سريعة:

ـ " كنت في الأعلى، هل رأيت أحدا يخرج؟ "

ـ " رأيت رجلا أصلعا يخرج أمامي فجأة، نظر إلي مرعوبا وركض بعيدا، ظننته واحدا من الذين جئنا لإنقاذهم.. "

ـ "لمَ لم توقفه، تبا!! "

ـ " لم أوقفه.. لست أنا من ولدته، فليركض نحو الجهة التي يريدها، بالمناسبة، هشام.. هشام أيضا خرج خلفه.. "

ـ " اللعنة.. " قال مراد وانطلق يركض هائجا بالقدر الذي استطاع، يتجاوز درجات السلم كل اثنتين على حدة، وصاح (تاكفا) خلفه بينما يحاول اللحاق به يائسا:

ـ " سيقتله.. أسرع، أسرع، أسرع يا مراد، أسرع.. "

وتبعهما السيد جلال ثم (تاز) وحسن يليهم ياسين بخطوات متخاذلة، غير مدرك لما يحدث.

في الخارج، وقف مراد وسط الطريق حائرا يتلفت حوله، صاح صيحتين باسم هشام ثم عاد يمسك جبينه ويلعن، كان الظلام يسد الجهات البعيدة،

لكن فيما حوله، كان يقدر على رؤية الأشياء القريبة على ضوء القمر، عندما تحرك إلى الأمام قليلا بالصدفة، سمع صوتا يأتي من داخل حقل قريب فأسرع نحوه، كانت ساقاه تحملانه بصعوبة، فجأة بدأ يشعر بحرارة شديدة في صدره، وأخذ قلبه يختنق وهو يقترب منهما، ثم سقط على ركبتيه منهارا.

_ " هشام.. " غمغم بنبرة متهدجة: " هشام ما الذي فعلته؟ "

عندما وصل الآخرون وتجمعوا على مقربة صاروا ينظرون بصدمة، كان هشام يجلس على صدر الحكيم جمال وقد غرز السكينة في عينه، وهو آخذ في التنفس كشبل صغير نال صيد والده، وكراهية لا متناهية، حتى تلك اللحظة كان مراد لا يزال جاثيا على ركبتيه غير مصدق لما يحدث، واقترب (تاكفا) من هشام وأمسك يده وجعله يقوم عن جسد الحكيم في هدوء وروية وأخذه بعيدا، لم يحرك والد هشام ساكنا، ولا حرك لسانه، بل ظل يتأمل الجسد الطريح بلامبالاة بالغة، كأنما يشاهدا عقربا ميتا، أو كأنما فخورا بما فعله ابنه، كذلك ظل الجميع صامتين لفترة، ثم قال مراد لما استطاع أن يجمع شتات نفسه، قال بصوت مرتبك:

_ " حسن، احضر شيئا لنغطيه به.. "

بعد ربع ساعة، كان هشام يجلس لوحده، على صخرة أمام مدخل الحظيرة. يحدق أمامه بعينين فارغتين وبصمت مطبق، والجميع يلقون عليه نظراتهم من وقت لآخر في انتظار أن يستعيد نفسه وينطق بشيء ما ليكلمهم، كان (تاكفا) يسأل الرجلين عما جاء بهما إلى مكان كهذا، وكان ردهما أن حسين هو من أخبرهما، كما دلهما على الحظيرة وعن مكان الحفرة بدقة، ثم إنهما وعندما وصلا ودخلا الحظيرة خفية، سمعا كل تلك الجلبة في الأسفل، ففكرا في شيء ما حتى تناهت إلى السيد جلال تلك الخطة فجأة، ثم كان الله في عونهما أن جرت بحذافيرها دونما أي خلل.

قال حسن:

_ " لكنك ما زلت تمسك بالمجرفة يا عم جلال.. "

_ " ها، هذه.. إنها.. إنها تذكار يا ولدي، سأحتفظ بها معلقة في جدار غرفتي، عندما أمتلك واحدة.. "

_ " ب..بب.. "

نظر الجميع إلى (تاز) الذي كان يصارع لسانه ليقول شيئا.

_ " ماذا يا (تاز)؟ "

ومد (تاز) يده نحو موضع ما خلفهم. والفزع يملأ عينه:

_ " بب.. بريكو.. خخ.. خلفكم.. "

واستدار الجميع على وقع الصدمة، فرأوا الوحش يتقدم نحوهم يمشي مشيا متألما قادما من ناحية الحظيرة، تاركا ضوء المصباح خلفه، ولذلك فقد كان كل شيء فيه أسود بالكامل، فلم يقدروا على رؤية تفاصيل وجهه، إنما كيان جسده الضخم المتعب راح يتقدم نحوهم وهو يوشك أن يتهادى ويسقط على الأرض في أي لحظة، لكنه كان يحمل بندقيته في يده، وعزاهم الوحيد كان أن فوهتها ظلت موجهة نحو الأسفل كأنها ساقه الثالثة، ومن ثم فقد وجدوا وقتا ليتحسروا على الغفلة التي وقعوا فيها، قال (تاكفا) بأسف:

_ " أمر الحكيم قد أنسانا هذا.. "

ورد مراد:

_ " أجل، وها نحن وقعنا في مصيبة كبيرة.. "

على هذا، جمدت أجسادهم وشُدت عيونهم نحو (بريكو)، بينما يقترب منهم وتقل بينهم المسافة، في النهاية، أبعد الكبار الصغار خلفهم واستعدوا لهذا الوحش الكسار، توقف (بريكو) عن السير أخيرا بعد أن لم يعد يفصل بينهم سوى مسافة وثبة جندب، توقف ورفع بندقيته نحوهم، الآن بات لهم أن يروا حجم الألم في وجهه، كان ينظر بعين واحدة، وظل يتنفس أنفاسا

متقطعة كأنما يحاول تحديد أماكن وقوفهم والتأكد منها، في النهاية تنهد عميقا وقال بصوت متعب:

_ " أين السيد جمال، هل هو بخير؟ "

لم يجب أحد، فأطلق طلقة مرت فوق رؤوسهم فزع لها الكبير والصغير.

_ " سأسأل لآخر مرة، هل هو بخير؟ "

_ " انتظر، لقد فر السيد جمال، لم نستطع ال.. "

لم يدع (بريكو) مراد يكمل حديثه حتى نقل فوهة البندقية صوبه وضغط الزناد بقوة.

_ 4 _

العاشرة ليلا، مراد كاد ينتهي من آخر فصول الرواية، شعر ببعض النعاس فقام وملأ فنجانا من القهوة وعاد إلى الغرفة، وضعه على طاولة الكتابة وذهب إلى النافذة، كانت الغيوم تعصر بغزارة، والبرق يشق كبد السماء في الأفق، والرعد يتفجر غاضبا، وقف يضع يديه في جيبيه يشاهد الساحة الكبيرة من خلف الستارة شاردا، دخل (تاكفا) في هذه اللحظة، نفض مظلته عند الباب ونزع حذاءه وتوجه إلى غرفة الكتابة مباشرة:

_ " ألم تبرد؟ "

_ " لا.. "

_ " ما الذي تفعله عندك؟ "

_ " أتذكر، أتذكر تلك الليلة.. التي لم أمت فيها!"

نزع (تاكفا) سترته وألقى بها على الأريكة وجلس بجانبها:

_ " دخل الشتاء حقا.. "

التفت مراد عائدا نحو طاولة الكتابة، أخذ كرسيه واستدار به:

_ " وأنت.. ما الذي فعلته؟ "

هز (تاكفا) كتفيه في ضجر:

ـ " لا شيء، لا خبر، لا أحد يتحدث، لا أحد يعلم.. حتى أصحابي السابقين في العمل، عندما أسألهم، أشعر أنهم يرغبون في أن يعيدوا طرح السؤال علي حتى أجيبهم.. "

ـ " أمر متوقع.. "

ـ " وأنت، هل من جديد عندك؟ "

ـ " أكاد أنتهي منها، فقط بعض.. "

ـ " لا، أسألك عن هشام، هل عثر عليه أحد؟ "

ـ " حتى الآن لا، لا أحد يعلم أين اختفى أيضا.. أصدقاؤه يفتقدونه بشدة، تعرف.. حتى هديل بان عليها أنها تشعر بالقلق عليه كثيرا.. ذهبتُ اليوم إلى المطعم، رأتني وكان هشام هو أول من سألتني بشأنه.. رأيت في عينيها أنها تفتقده.."

ـ " ألا يعرف والده أين يمكن أن يكون قد ذهب؟ "

ـ " والده؟ ليته يجد نفسه أولا، صدقني، هي مسألة وقت حتى يعود إلى السجن مجددا.. "

فترة صمت.

ـ " إذن وصلت إلى ذلك المشهد، هل ستنتهي منها اليوم؟"

ـ " أجل.. "

ـ " أخيرا.. " قالها (تاكفا) بملل.

ـ " ماذا، ألن تقرأها؟ "

ـ " أنا؟، لا .. لن يكون لدي وقت.. "

ـ " وهل يفترض بي أن أسألك لماذا؟ "

ـ " سأخبرك في الغد، في الأصل سأذهب إلى مكان ما غدا، هنالك أمر يجب أن أفعله.. "

ـ " ليكن.. فكرت في شيء، ألا يمكن أن يكون قد ذهب هشام إلى والدته؟ "

ـ " وهل يعرف مكانها؟ "

ـ " أظنه يعرف، أغلب الظن أنها في المدينة الجديدة.. "

ـ " وأنا سأذهب إلى هناك.. "

لم ينطق مراد، فعاد (تاكفا) يقول بعد دقيقة:

ـ " هنالك أمر في رأسي، وأظنك نسيته.. سأطلعك عليه غدا إذا تأكدت منه.. "

_ " لا أدري حقا عما تتحدث، لكن بما أنك ذاهب إلى هناك فابحث عن هشام في طريقك.. بالمناسبة، هل قلت أنك فرغت من الرواية ؟ "

_ " تقريبا، عشر صفحات هي كل ما تبقى.. ربما.. "

_ " جيد.. الديدان.. منذ متى قرأتها.. "

_ " منذ سنة.. "

_ " لست بارعا في هذه الأشياء كما تعلم، لكن ألا ترى أن في هشام شيئا مما في علاء؟ "

وأحدث كلام (تاكفا) هذا ابتسامة على وجه مراد:

_ " كنت أنتظر منك متى تقولها، علمت أنك ستلاحظ.. بالفعل، كما قلت تماما، هشام وعلاء متشابهان.. سواءً في طبيعتهما أو في حياتهما، في الطريقة التي عاشا بها، إلا أن حياة هشام أقسى، علاء فقد والدته في وقت مبكر، ثم عاش إلى جانب والده الذي لم يكن يتفق معه كثيرا، لكنه لم يكن بسوء السيد جلال على أي حال، أيضا فَقدُ هشام لوالدته أمرٌ وأصعب، لو أنها ماتت كان سيكون أسهل، لكن هكذا، هذا نصف فقد، وليس فقدا بالكامل.. حقا ما أصعب الأمر على أولئك اليتامى، لا أدري إن كان كاتب الديدان قد

استند على أحداث حقيقة كما فعلت أنا، لكن.. آه، قلت إنك لم تنتهي منها، يعني أنك لم تعرف النهاية.. "

_ " لا، هل ينبغي أن أعلمها؟ "

_ " حاليا لن أشجعك على إنهائها، في الأصل أنا ما وافقت على كتابة هذه الرواية إلا لأن رواية الديدان أثرت فيّ بشكل بالغ جدا، شعرت أن فيها شيئا ناقصا، كأنه لم ينبغي لها أن تنتهي بالطريقة التي انتهت بها.. علاء كان يستحق حياة أفضل بكثير من تلك التي عاشها.. "

_ " لماذا، ما الذي حدث في الصفحات الأخيرة، هل فقد عمله؟ "

_ " ليت ذلك ما حدث، كما قلت، إذ كان كاتبها قد استند على وقائع فلا لوم عليه، لكن إن كانت من وحي خياليه فإنه كان قاسيا جدا على بعض شخصيات الرواية، علاء خاصة.. "

_ " بما أنك تقول لا.. فلا.. " قال (تاكفا) في تخاذل، ووقف يحرك صورا كانت أمامه على الطاولة.

_ " الآن وقد حصلنا على الدليل مجددا.. اختفى هو.. شيطان في جسد إنسان.. " قال وكان ينظر إلى صور استخرجاها من شريط التصوير التي وجده حسن بين الملابس التي كانت في القبو مرمية عند الزاوية.. وكان يحتوى

على مشاهدا تثبت بما لا يمكن إنكاره كيف أن الحكيم جمال ساعد بشكل مباشر في حمل رجل فاقد الوعي نحو سيارة مركونة.. تنهد ومضى نحو باب الغرفة.

_ " إلى أين أنت ذاهب؟ "

_ " تبللت في الخارج ورأسي يؤلمني، أشعر أنني سأمرض.. "

_ " لم تسألني عن عنوانها.. "

توقف (تاكفا) عند الباب والتفت:

_ " صحيح، أنت ماذا قررت؟ "

_ " الديدان.. القردة!! "

حدق (تاكفا) في صاحبه طويلا قبل أن يفتح فمه:

_ " القردة.. هل لأن القرد أنقذك؟" قالها مستغربا، وبضحكة.

_ " لا تضحك، بجدية.. "

خفض (تاكفا) رأسه لأسفل:

_ " أنت من كتبتها، أنت تختار العنوان أيضا، لكن صدقا، دعه هكذا.. "

غادر (تاكفا) الغرفة واستدار مراد إلى أوراقه ينهي ما تبقى من أحداث روايته، وفي اليوم التالي، ذهب إلى المدينة الجديدة كما أخبر مراد، ولما كنا

نعلم أنه سيعود مساءً في وقت متأخر، فإننا سنستغل هذا الوقت لنلقي نظرة سريعة عن باقي تفاصيل تلك الليلة المشؤومة.

حين كان (بريكو) قد وجه بندقيته نحو مراد مباشرة، ثم ضغط الزناد دون تردد، و إذ كان مراد لم يمت في تلك اللحظة، فإن الفضل كل الفضل يعود إلى القرد الذي تسلل من خلف (بريكو) _ بعد أن ظنه ميتا لما قام بضربه إلى سور الحظيرة _ وصعد على رأسه ونشب أصابعه في عينيه بقوة حتى أفقده توازنه، وعندما ضغط (بريكو) الزناد فإنه لم يقدر على إصابة أي شيء أمامه، وطارت الرصاصتان فوق رأس مراد بعيدا، وفي لمح البصر، استغل (تاكفا) الوضع فتناول المجرفة من يد السيد جلال وضرب بها وجه (بريكو) ضربتين قويتين ألقتا به صريعا عند أقدامهم، ولم يكن من مجال لارتكاب أي خطأ هذه المرة، فلقد أسرع حسن وأحضر سلكا فربط يدا (بريكو) وقدماه وتم جره إلى طرف الطريق هناك حيث ترك لوحده كصخرة كبيرة ميتة، ريثما يُنظر في أمره.

سبع دقائق.. وكان القرد لا يزال يتوجع بين ذراعي مراد غير قادر على التنفس، ولذلك فقد أسرعوا به إلى تحت الأرض فأجبروا كسره بما وجدوه من معدات في المختبر وأرقدوه على سرير نظيف وألبسوه جهاز تنفس، فالضربة

الثانية التي تلقاها القرد من (بريكو) حين وضع يده عليه وألقاه على الأرض قبل أن يسقط الجزء المعدني من المجرفة على وجهه ـ لما ضربه (تاكفا) بها ـ قد تسببت له في كسر على مستوى ذراعه وأضرارا بليغة في صدره، على هذا تجمعوا حوله وقد أثارت حالته الحزن في عيونهم أكثر مما أثاره مشهد الحكيم جمال لما رأوه مطروحا على التراب وقد غرزت في عينه سكينة جراحة، كان المحامي لطفي يضج من خلف باب زنزانته يطلب منهم العفو بعد أن فهم إلى أي شيء قد آل إليه صاحباه، وأي هزيمة نكراء تعرضا لها، وأي فضيحة هم واقعون فيها، لكن دون أن يلتفت أي أحد لأمره.

بعد ربع ساعة، كان ما أخرجهم إلى الهواء الطلق مجددا هو حديث (تاز) المتقطع والمرعب حين أخبرهم أنه عاد ليتفقد جثة الحكيم جمال ـ والذي كان يفترض به الآن أن يكون الآن ميتا قد طارت روحه ـ إلا أنه لم يعثر لها على أثر، حتى أن قطعة القماش التي تمت تغطيته بها لم تكن موجودة، فكأنما أحد ما جاء ورفعه عن الأرض كما وجده وذهب به بعيدا، تفقدوا بريكو وكان لا يزال في مكانه منكمشا على نفسه وعيناه مغلقتان، بحثوا في كل أرجاء المزرعة، لكن دون جدوى، لم تكن هنالك أي إشارة، لا شيء كان يوحي بأن أحدهم جاء إلى المزرعة، فجأة، وهم يقفون وسط الطريق يحاولون فهم ما

يحدث، بتلك الوجوه المتهكمة الحائرة، ظهرت وسط الظلام البعيد أضواء مركبات مشت لمسافة ثم انعطفت جميعها نحو المدخل الذي يؤدي نحوهم، ثم إن (تاز) انتبه فجأة إلى أنّ هشام لم يكن موجودا بينهم، واشتدت صدمتهم أكثر، بعد أن ظنوا أن الوضع لن يسوء أكثر من ذلك، وظل عزاءهم الوحيد أن الشرطة وصلت في تلك اللحظة، ومنذ تلك الساعة لم يظهر لا لجثة الحكيم جمال المفترضة ولا لهشام أي أثر، وفسّر الكبار اختفاء هشام المفاجئ إلى كونه قد فر هاربا لما خاف من أن تقوم الشرطة باعتقاله بسبب الجريمة التي ارتكبها، كان هذا أقوى تفسير قيل بشأنه، أما الجثة المختفية فقيل أنها قامت على قدميها وهربت وهي تضع الغطاء على عينها، وكان هذا أقوى تفسير قيل بشأنها، مع كونه مضحكا ينافي عقل المرء الكيّس، لكن لا أحد استطاع أن يحل الذي حدث، كانت مجرد فرضيات فقط، وكان على الجميع أن يكتفي بها ريثما تظهر الحقيقة.

جن الليل مجددا، وعاد المطر يهطل بغزارة، كان الشتاء قد دخل بما يسمح بذلك، وصعد (تاكفا) الأدراج مسرعا والمظلة فوق رأسه، جفف نفسه عند الباب ونزع حذاءه ودلف إلى الداخل، نظر إليه مراد مبتسما:

_ " يوجد شاي ساخن في المطبخ.. "

_ " شكرا، لكن لا داعي.. "

_ " تبدو قلقا!! "

أخرج (تاكفا) كرسيا وجلس عليه وتقدم به نحو الطاولة، شابك يديه دون أن يرفع بصره:

_ " مراد.. " نظر إليه نظرة صلبة: " أنا ما الذي فعلته؟ "

أومأ مراد برأسه نافيا، فأردف (تاكفا):

_ " هل كان علي أن أقول ذلك؟ "

_ " اهدأ يا (تاكفا)، واشرح لي بهدوء من فضلك، عمَ تتحدث.. "

_ " جد هديل، عثرت عليه.. "

انفجرت رعود في الخارج، واشتد صوت انهمار المطر، ظلت الستارة تترنح عند النافذة، ومرت عشرون ثانية، و(تاكفا) لا يزال يعض على شفتيه من فيض الحسرة، بينما ينظر بعينين فارغتين لم يقدر مراد على أن يفهم منهما

شيئا غير أن معنى ذلك الكلام لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يصب منحاه في معنى جيد.

_ " وما العمل؟ "

لم يسأل مراد عن مكانه ولا عن حاله، إنما ذهبت حيرته إلى كيف سيكون من الممكن التعامل مع هذا أيضا، فلقد فهم الوضع بسرعة، وكان واضحا لهما من البداية أنما جد هديل هو واحد من ضحايا تجارب الحكيم جمال ليس إلا، لكن رغم هذا فلم يجرؤ أي واحد منهما على التحدث بشأنه، على الأقل ليس قبل التأكد من ذلك، والآن وقد ذهب (تاكفا) إلى المدينة الجديدة وبحث بين مجانينها لساعات طويلة، آخذا بعين الاعتبار كل المواصفات التي وُصف له بها ذلك الجد السيء الحظ، فإنه عثر عليه يبحث عن شيء ليقتات به من وسط القمامة، كان في حالة يرثى لها، ولم يتعرف عليه إلا بوشم قيل أنه موجود على ذراعه اليسرى، كان الوشم عبارة عن وجه لفتاة صغيرة، و إن (تاكفا) قد دمعت عيناه لما رأى منه ذلك، وتمنى لو تنشق الأرض فلا يعود مجبرا على الوقوف أمام هديل و إخبارها أن وجهها الموشوم على ذراع جدها قد أوشك أن يغطيه الوسخ الذي لون جسده بالكامل فاستحال إلى فحم أسود، عندما حكى (تاكفا) لمراد كل هذا، رد الأخير وقد اهتزت نفسه بشدة:

ـ " لن نخبرها، لا يمكن.. ستقول إنك لم تعثر عليه.. "

ـ " لكنني وعدتها! "

ـ " لا يمكن، إذا أخبرتها بهذا فسوف تصر على الذهاب لرؤيته، ستزداد حزنا، لن يكون من السهل عليها أن تراه وهو في تلك الحالة.. سنفكر في شيء آخر، لكن لن نخبرها بالحقيقة.. ماذا عن هشام، أو والدته؟!! "

ـ " ليس هنالك أي امرأة بدون عقل في تلك المدينة، بحثت وسألت فلم يبدو أن أحدا رأى امرأة مجنونة في الأعوام الأخيرة.. "

ـ " إذا لم تكن هناك فمعناه أن هشام ليس هناك أيضا.. "

ـ " مؤكد.."

ـ " لم أعد أقدر على رؤية أصحابه وهم يأتون إلي بتلك الوجوه الحزينة، تخيل أن تفقد سندك الأقرب، هذا ما يعانون منه الآن، آه يا هشام، أين ذهبت هكذا وتركت أصحابك.. "

ـ " سيعود حتما، سيعرف أن جسد الحكيم قد اختفى، سيسمع بطريقة ما وسيرجع.. "

ـ " آمل هذا، لكن راودتني فكرة سيئة، ماذا لو أن الحكيم فطن حقا وقام هاربا فرآه هشام وتبعه، في رأيك من سيقدر على الآخر! "

ـ " أظن أن من لم يقدر برأس سليم فلن يقدر بسكينة مغروزة في عينه، سيكون الحكيم محظوظا إذا وقف على قدميه ومشى خمسين خطوة، أجزم أنه تلقى مساعدة.. "

ذهب كل منهما بعينيه بعيدا عن بعضهما، فكرا طويلا، ثم نطق (تاكفا) يسأل:

ـ " انتهيت منها؟ "

ـ " انتهيت.. بقيت النهاية.."

ـ " لا تبدو سعيدا كما.. يفترض أن.. تكون، ربما!! "

رد مراد وفي نبرته أن شيئا يزعجه:

ـ " كنت أعتب على كاتب الديدان أنه أنهاها بطريقة محزنة، الآن أنا أيضا سأضطر لأن أكتب نهاية سيئة.. "

ـ " لا تقل سيئة، قل محزنة.. سواء كانت مبهجة أو محزنة فلا يمكن أن تكون سيئة، لمجرد أنها واقع.. ستكون جيدة.. "

ـ " أراك بدأت تتعمق في هذه الأشياء، كنت لا تحب مناقشتها أبدا.. "

ـ " لأنني ربما، ربما يمكن أن أخمن كيف سارت الأمور بعلاء في النهاية، ودون أن أطلع على النهاية، ولن أطلع عليها أبدا.. سأقول إنها كانت

نهاية جيدة، لأنه في رأيي، سيكون من الممل أن تسير الأمور على النحو الذي يحبه القارئ، أقول لك يا مراد، في رأيي إن النهايات الجيدة هي تلك التي لا يشعر معها القارئ أنه انتهى من الرواية التي يقرؤها، إذا لم يأخذ ساعة في الليل يفكر فيها فلابد حينها أن تكون نهاية سيئة، الذي يقرأ نهاية ويشعر معها بالرضا، تلك نهاية سيئة في رأيي، لأن الكاتب سيكون قد كتبها ليرضي الناس بها، ليس لأنه يفترض بها أن تكون كذلك.. "

_ " سأحاول أن أفهم ما قلته، على كل.. تبدو وكأنك ستنام جالسا.. "

_ " في هذا أنت محق تماما، أستأذنك الآن يا صديقي.. "

بعد ذهاب (تاكفا) إلى فراشه جلس مراد لساعة كاملة لوحده خلف أوراقه، ظل يقلب رأسه بحثا عن عبارات مناسبة ليختم به قصته، لكنه في النهاية عدل عن إنهائها، قرر أن يتريث أكثر ويؤجل أمرها لوقت آخر، قام نحو النافذة وأبعد الستارة ووقف يتأمل صفحة الماء وهي تغلي فوق أرضية الساحة، تذكر كيف كان هشام وأصحابه يسهرون فوق تلك النافورة في ليالي الصيف الدافئة، حين كانت النوافذ تضاء على جدران المنازل خلفهم فيأخذون يتوقعون أيها سينطفئ أولا على أن يحصل الفائز على نقطة لصالحه في كل

مرة يصدق فيها توقعه، تسلل حزن عميق إلى صدره فترك الستارة تهوي نحو بعضها.

في الصباح كان المطر قد توقف، لكن الجو كان باردا جدا، والنسمات لا تكف تضرب وجوه الناس في الخارج حتى احمرت لها الأنوف ودس لها الأيادي في الجيوب الدافئة، راحت أصوات الناس تعلو شيئا فشيئا، وكان مراد يلبس حذاءه عند الباب استعدادا للذهاب إلى المكتبة، بعدما طرق الباب على (تاكفا) فوجدها انزاحت لوحدها دون أن يكون صاحب الغرفة في الداخل، لقد خرج (تاكفا) باكرا، لكنه لم يخبرني، ماذا يريد أن يشترى؟، تساءل مراد في نفسه بينما يغلق باب الشقة الخارجة، فوجد الإجابة تماما عند وجهه، وقد تجسدت في شكل رسالة مكتوبة بخط يد جميل جدا، كخط شرطي لديه هبة كهذه، كان مما جاء في الرسالة أن (تاكفا) قال فيها:" . اعذرني أنني لم أودعك يا صديقي العزيز، لم أستطع أن أفعل هذا، فقط اعلم أنني قررت هذا الأمر منذ الليلة التي نجونا فيها من الموت جميعا، للمرة التي لا أذكر، أراني وأنا أجد نفسي أنجو من الموت بأعجوبة، كأن هذا المكان يطردني، سأذهب إلى محطة القطار في السادسة صباحا، وسأشتري أبعد تذكرة، سأذهب حيثما يذهب القطار، ثم سأركب أربع حافلات أو خمسة، لن

أسأل إلى أين ستأخذني، مادامت ستأخذني إلى مكان لا أعرفه، سأذهب معها.. وربما سأبحث عن تلك الممرضة.. بالأمس حلمت بها..

قلت لك لن أقرأ الرواية، لكنني سأذهب بعيدا وسأنتظرها تلحق بي، وأنا متأكد من أنها ستفعل، ستكون جيدة، فكر جيدا في النهاية التي ستكتبها، فقط اكتبها كما ينبغي لها أن تكون في الواقع، لا تفكر فيمن سيقرؤها.. لكني أثق فيك يا صديقي، مهما كانت، أعلم أنها ستكون جيدة، لمجرد أنها نهاية.. كل النهايات جيدة إذا لم يبدِ الإنسان رأيه فيها أو يحاول التدخل في صنعها.. دعها تكن نهاية.. النهاية المطلوبة، وستلحق بي حيثما أذهب، لا أظن أنني لن أعود أبدا، سأرجع يوما ما.. لا أدري متى.. صديقي لا أعرف كيف أشكرك على كل ما عشناه معا.. جئت إلى مدينتكم ولم أكن أعرف أحدا.. تعرفت عليك بطريقة أو بأخرى.. كم كان أمرا جيدا أنني تعرفت عليك.. الآن اقلب الورقة.. "

" .. لا تضيع المزيد من الوقت.. تزوجها..

واعتنيا بهديل جيدا.. أخبرها أنني.. لا أعلم.. جد عذرا مناسبا..

لكن تزوج..

لا تبقى عازبا مثل قلم الكتابة.. "

نزع مراد الشريط اللاصق الذي كان بقي على الباب وعاد إلى الداخل فوضع الورقة على طاولة الكتابة بجانب الأوراق الأخرى وعاد نحو الخارج، وهو ينزل درجات السلم وجد العجوز الهولندي يربط حذاءه في فناء البيت فبادره بتحية الصباح.

ـ " هل يأتي الصغار إلى العمل؟؟... "

ـ " يأتون أجل، لكن يتركون عقولهم على الوسائد.. ألم يظهر ذلك الشقي بعد؟ "

لم يجب مراد بأي كلمة، بل فتح باب الفناء وخرج مباشرة بعد أن تمنى له يوما طيبا.

في هذه الأثناء، كان (تاكفا) يجلس بجانب النافذة يطالع آخر صفحات روايته، كان يقرأ آخر فصول رواية الديدان مبتسما، رغم أنه لا شيء فيها كان يدعو إلى ذلك، حتى إذا أتم آخر سطر منها أغلق الكتاب ووضعه على المقعد الذي بجانبه ونزل من القطار الذي كان قد وصل إلى محطة ما، بعد رحلة دامت ثلاث ساعات متواصلة قضاها القطار وهو يتلوى بين الجبال

الخضراء المتراصة، دون أن يعرف هذا الراكب إلى أي أرض يتجه به هذا الثعبان المعدني الصامت.

كانت المحطة فارغة تقريبا، ولم يكن (تاكفا) يعرف أين نزل تحديدا، ولذلك فقد نظر إلى مؤخرة القطار وهي تختفي بعيدا حاملة معها ذلك الكتاب دون أن يكون على وجهه تعبير غير الذي نراه عادة في وجه رجل رفضته امرأة، فتح عينيه بعدها وسمع رجلا يسأله إن كان في حاجة إلى سيارة أجرة.

النهاية

تمت بحمد اللّٰه.